الجثة الخامسة



د. حسين السيد

الجثة الخامسة

الكتاب : الجثة الخامسة
المؤلف : حسين السيد
تصميم الغلاف :
تدقيق لغوي : محسن عباس غريب

رقم الإيداع : 2014/9505
الترقيم الدولي :1-67-6436-977-978
الطبعة الأولى : 2014



20 عمارات منتصر – الهرم ـ الجيزة
ت-02-35860372   011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com

الجثة الخامسة

رواية

حسين السيد


للنشر
والتوزيع

إليه وَحدُه

..إلى من أتى بى للحياة ,فكان همه الأول أن يعلمنى معناها..

..إلى من علمنى أن الحياةَ قلمُ يكتب وكتابٌ يُقرأ ..

..إلى من علمنى أن الحلم حلوُ وأن النجاح ممكنٌ..

..إلى من علمنى كيف أكون إنساناً ,قبل أن أكون فَردّاً ذَكرً..

..إلى منّ أفتقده فى كل حينٍ, وأنتظر كثيرا اليوم الذى يجمعنا فيه الله

به ثانيةً ..

..إلى أبى ..

..ذلك الرجل الطيب ..

..أعوام عشر قد مضت منذ رحيلك ..

..وهاهو كتابى الأول الذى آمنت أنه آت لاريب ..

..اليك وحدك يا أبى كتابى هذا ..

أحبك

عم منصور !..

امتاز عم منصور بصفتين رئيسيتين .. الأولى أن الرجل هو أهم شخص طوال العامين الأولين فى كلية الطب لغالبية الطلاب, إن لم يكن جمعيهم.. ولما لا, وهو خازن قلعة الأسرار ..

المشرحة ..

الرعب والصدمة الأولى التى تنتظرها, وتتلقاها فى أول عهدك بدراسة الطب .. اللحظه التى تتخيلها كثيراً قبل أن تلتحق بالكليه .. ربما لأن دراسة الطب تعنى للكثيرين عالم من الجثث الممزقه والأشلاء الدامية..

يحدثك صديقك حين تعود من الكلية, بعد يوم واحد من التحاقك بها بانبهار عن عدد الجثث التى قمت بتشريحها .. وتنظر إليك أمك بتوجس فور أن تعود من الكلية, وعيناها لاتفارقان يديك بتأفف متسائلةً:

ـ ألن تستحم أو تغتسل ؟.. ظناً منها أنك ربما تسبح فى الكليه فى بحر من الجثث والدماء والأشلاء ..

وتتأفف أختك حين تجلس بجوارها الى المائدة, متسائلةً باستنكار..

ـهل تظن أنك ستأكل معنا؟..

طبعاً ستجيب من بين أسنانك, وأنت تجاهد نفسك ألاتقضم رقبتها:

- بالطبع لا .. من قال هذا؟.. أنا فقط أجلس بجواركم كى أستمتع برؤيتكم, وأنتم تتناولون الطعام .. إن هذا هو مايشبعنى.

لاتغضب ياصديقى لو حدث هذا لك, وغالباً سوف يحدث .. ستتحول فى أعينهم الى كائن موبوء مصاب بالجرب, وسيستمر هذا بعض الوقت الى أن يعتادوا عليك مرة أخرى, أو تعتاد أنت على اشمئزازهم منك, فلاتبالى بعد ذلك ..

لذا من الصعب أن تتخيل أن هناك أشياء كثيرة مهمة فى دراسة الطب, بل وربما تستحق ذعراً أكبر بكثير مما تتنظرة من المشرحه والجثث ..

كلمنى عن عوالم علم دراسة الأنسجه (الهستولوجى) وشرائحها المتشابهة, وصبغياتها القاتمة اللعينه.. حدثنى عن الكيمياء الحيويه بمعادلاتها الشيطانية التى لا تنتهى ..

حدثنى عن الامتحانات الشفهية .. رعب قوطى يستحق الاهتمام والدراسة, ولايعلمه إلا من عايشه .. صدقنى لو أدركت عوالم هذة الاشياء المخيفة, لما سببت لك المشرحة بجثثها كل هذا الرعب..

الشيء الآخر المميز فى عم منصور, هو شراهته المتناهية فى التدخين..

فلم أره أبداً إلا وكان يدخن .. سجائر .. شيشة .. وبالتأكيد ذلك الملك المتوج لأصحاب المزاج العالى, المدعو الحشيش ..كان الرجل يدخن كمرجل بخارى نهم ..

كان ابن مزاج حقيقى كما نقول..

اعتدنا حين كنا طلاباً في المرحلة الأولى من كلية الطب علي هيئته التى لم تتغير أبداً, دوماً كنا نراه أمام باب المشرحة الخشبى ذو الزجاج المدهون بطلاء أبيض باهت سقيم .. يجلس على كرسى خشبى عتيق متهالك, ويضع على مسنده الخلفى وسادة قطنية؛ لتريح ظهره من قسوة الخشب..

يثير فى نفسك الكثير من التوتر بهيئته الضخمة وملامحه الغليظة, وجبهته العريضة الناتئة ..كان دوماً يذكرنى بمسخ فرانكشتين, لو كنت قد شاهدت الفيلم يوماً ما, وتذكر كيف كان المسخ..

كان عليك أن تحرص على أن تعلن له احترامك .. إياك أن تعامله على أنه مجرد عامل فى المشرحة .. لن ينسى لك هذا أبداً لو فعلت ..

بالتأكيد لن يتطاول عليك أبداً .. لكن حين يقترب ميعاد امتحان منتصف العام أو آخره, وتتداخل فى ذهنك عشرات الأعصاب ومئات العضلات, والأوردة, والأوتار, ولاتدرى من أين يبدأ هذا, وكيف ينتهى ذاك, وتحتاج لمن يعيد ترتيب هذه الأشياء فى ذهنك مرة أخرى, ستتذكر المشرحة وتتذكره .. حينها لا تلومن إلا نفسك حين يرفض أن تدخل المشرحه فى غير أوقاتها المحددة لك ,ولاتتذمر حين تعلم من أحد أصدقائك أن عم منصور ساعده بالأمس, وأعطاة أحد أطراف الجثث الطازجة التى لم تتدهور بعد من مباضع التشريح الكثيرة التى جرت عليها, أو تناقلها بين أيدى الطلاب مئات المرات ..

طبعا لا يقدم عم منصور هذه الخدمات مجاناً .. فهناك دوماً الدخان, والشاى الذى لايمل منه .. لكن أى قيمة لمثل تلك

الأشياء الصغيرة أمام مغارة على بابا التى باستطاعته أن يفتحها لك ؟..

****

عرفته فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى, حين التحقت بكلية الطب .. كنت غارقاً حينها فى أنشودة البدايات السوداء, التى يعرفها كل طالب التحق بكلية الطب يوماً ما .. من الصعب أن تنسى المصطلحات الكئيبة التى كنت تسمع عنها لأول مرة, ولاتدرى كيف تنطقها أو تكتبها .. وهناك المذاكرة التى تشعرك فى البداية أنك جاهل أحمق, ولم تكن لتصلح لأن تكون أكثر من صبى كواء ..

هذه ذكريات تنسيك بهجة الحياة نفسها, فى وقت كان عليك أن تعيش فيه هذه المباهج ..

عرفت عم منصور بقامته الضخمة للغاية, ووجهه ذو الفك البارز والعينين الجاحظتين دائماً, كأنما تزمعان مغادرة رأسه يوماً ما, وأطرافه الطويلة العريضة الهائلة الحجم .. فيما بعد علمت أنها حالة متقدمة لفرط إفراز هرمون النمو أثناء الطفولة .. لكن فى ذلك الوقت كان من المستحيل إصلاح مثل هذا الخلل فعاش به..

وحين عرفته, وتنفيذاً لنصائح أحد زملائى من الطلاب الأقدم سناً حرصت على أن تكون علاقتى به طيبة .. اقتربت منه, فساعدنى الرجل بصورة كبيرة, فحين تقترب الامتحانات, كان يكفينى أن أذهب الى المشرحة ليخرج لى حينها أجزاءً طازجة من جثث جديدة لم تمس بعد, كان يحتفظ بها للامتحانات .. كنت دوما كريماً معه, لم أنس سجائره أو معاملته بصورة لائقة ..

وكان خدوماً لى بالرغم من الفظاظة التى كثيراً ما يظهرها للطلاب..

كان الرجل صورة حية للمقولة التى تدعوك لئلا تربط بين شكل الرجل وقلبه .. فبالرغم من ملامحه الغليظة, وفظاظته التي كثيراً ماكان يبديها للطلاب, إلا أنه كان يمتلك طيبةً شديدةً ..طيبة تذكرك بحنو جدك الراحل والتى تتذكرها بين طيات ذكرياتك المبهمة عنه..

ومرت الأعوام الدراسيه سريعاً, كما ينتظر منها أن تمر ,وبالرغم من انتهاء حاجتى للمشرحة بعد عامين فقط من الدراسة ؛لا نتهاء دراستى حينها لمادة التشريح, إلا أننى حرصت على استمرار زيارته بحجرته بالمشرحة من حين لآخر, حيث لاحظت سعادته بمثل هذه الزيارات ..

كان دوماً يرى أن الطلاب يعاملونه بصورة جيدة, ويتوددون إليه طالما هم في حاجة إليه .. أما بعد ذلك ,فكثير منهم يتجاهلونه, وإن قابلهم مصادفةً, فالكثير منهم قد يشيحون بوجوهم بعيداً عنه بشيء من التعالى, أو يحيونه بصورة باردة بلا ود حقيقى فى الغالب, كأنما يتذكرون فجأة أنهم سيصيرون أطباءً بعد أعوام قليلة, أما هو فسيظل دوما عامل المشرحة البسيط وليس أكثر..

كنت أطيب خاطره حينها بكلمات طيبة, فيهز رأسه بغير اقتناع, وهو يسحب دفقةً كبيرةً من دخان سيجارته التى لاتفارق يده, ليقول بعد أن يزفرها, وهو يرنو للسقف بعينين تسعان الفراغ كله:

-لا تؤاخذنى يادكتور ولا تغضب مما سأقوله الأن, إن مايقوم به زملائك ندعوه فى عرفنا قلة أصل.

بالطبع لم أكن أدرى بما أجيبه, لذا كنت أكتفى بهز رأسى بحركات مبهمة لاتوحى بشئ, وإن وافقته بداخلى على مايدعيه .. إن مايقومون به هو نوع من نكران الجميل والتعالى لا مبرر له, فليس ذنب الرجل أن مهنته بسيطة, ولا يجب أن نشعر الرجل بأنه لاقيمة له إلا باحتياجنا له.

وتخرجت بعد حين من الكلية .. وتباعدت زياراتى لها, إلا أننى حرصت على زيارته بالمشرحة حين كنت أزورها..

كنت ألاحظ أن الرجل - عاماً بعد عام - يزداد هرماً, وتتكاثف بصورة مخيفة التجاعيد فى وجهه, وحول فمه و عينيه .. كما لاحظت فى الأعوام الأخيرة أن صدره لم يعد على مايرام .. صار يعانى من نوبات ربو حادة تستدعى أحياناً أن يتم تنويمه بعناية الصدر بالمستشفى بضعة أيام ..

صار صدره يعمل كصافرة لاتكف أبداًعن الصراخ والشكوى ..

المشكلة هاهنا أن الرجل كان أسوأ مريض من الممكن أن يقابله طبيب يوماً ما.. فبالرغم من خطورة حالته ,وسوء حالة رئتيه, فإنة ظل يدخن كقطار بخارى .. حاولت مراراً أن أثنيه وأقنعه بتقليل مرات التدخين بلا أمل فى استجابة منه .. كان دوماً يضحك ضحكته المشروخة المصحوبة بسعال عنيف, ثم يقول ,وهو يمسح بيده الغليظة قطرتين من الدموع أفرزتهم عيناه بعد نوبة السعال العنيفة التى تنتابه:

-يادكتور دعك مما تقوله .. الدخان هو الشيء الوحيد الذى لن يضر الصدر أبداً .. إياك وتصديق كلام الكتب التى درستها هنا ..كلنا يعلم أن الصدر فى حاجة للتدفئة, والدخان هو أفضل من يقوم بتدفئة الصدر..

ثم يقطع حكمته تلك, ليدخل بعدها فى سعال عنيف مرةً أخرى, حتى أظن أنه سيبصق روحه نفسها بعد قليل .. فأرمقه مشفقاً صامتاً, لكنى أفاجأ به يقول بعد أن يهمد سعاله ويسكن :

-هل تعلم يادكتور أن الدخان الذى نشربه مفيد للصحة جداً ؟.. نعم إنه مفيد للغايه, أنت لا تصدقنى فيما أقوله لكننى لا أمزح وأقول الحق.

وابتسمت رغما عنى لطرافة كلماته, وسألته متصنعا الجد :

-وكيف هذا برأيك أيها الحكيم ؟..

إنبعث حينها بعض البريق من عينيه, قبل أن يجيب بصوته الخشن بجدية حقيقية:

-نعم يادكتور .. الدخان شيء صحى جداً أكثر من الهواء نفسه .. هل تعتقد يا دكتور أن هناك ميكروباً ما يستطيع العيش وسط سحب الدخان التى نستنشقها حين ندخن .. بالطبع هذا مستحيل .. الدخان يادكتور قادر على قتل أى ميكروب مهما كان, ولابد أنه يقوم بفعل هذا الشيء حين تتنشقه الرئتان .. إنه بلاشك يطهرهما من الميكروبات التى قد تعلق بهما.. ألا يُعد هذا أمراً صحياً يادكتور؟.

أطلقت حينها ضحكةً عاليةً, مدركاً أنه من العبث أن أجادله .. الرجل له قناعاته التى عاش عليها, ولن يتركها بعد كل هذا العمر, كى يصدق هذا الهراء الذى يطلقه أمثالنا من الأطباء على آذانه..

كان الأمر عجيباً عبثياً .. رجل يعمل فى كلية الطب لأعوام طوال .. فيرى أن مايلقنونه من علوم لأطباء المستقبل هو الهراء ,ولا يؤمن إلا بآرائه .. كان من المستحيل إقناعه بخطأ ما يعتقده, لذا قلت له باستسلام متنهداً:

-ربما كان الدخان مفيداً كما تقول, فمن يدرى ياعم منصور؟!

****

مرت أعوام كثيرة بعدها, سافرت خلالها إلى إحدى بلاد النفط والنقود, كما يفعل أغلب الأطباء, ولم أعد أتردد مرة أخرى إلى الكلية .. وتوارى حينها عم منصور فى ثنايا ذكرياتى المتناثرة, كالكثير من الذكريات الأخرى التى عشتها من قبل يوما ما ونسيتها.

لم أتذكره إلا حين أردت الحصول على بعض الكتب الطبية الحديثة, وذهبت إلى الكلية لأبتاعهم من إحدى مكتباتها, قررت حينها زيارته متوقعاً أن أجده بعد كل هذه الأعوام الكثيرة, قابعاً فى مكانه الأزلى, على كرسيه الخشبى العتيق أمام المشرحة ..

وكنت واهماً !.. عرفت هذا حين وجدت شاباًآخر يجلس على كرسى خشبى مختلف أمام المشرحة .. سألته عن عم منصور فأجابنى بتعجب, وهو يتفحصنى بشيء من اللزوجة فى نظراته :

- وهل كنت تعرفه ؟.

وأجبته بتحفظ اعتراضا منى على تطفله :

-نعم أعرفه .. لكن أين يمكننى أن أجده الأن ؟.

- عم منصور تعيش أنت يا أستاذ .. مات بالمستشفى فى حادث منذ خمسة أعوام .. إننى أتعجب أنك لا تعرف هذا بالرغم من انك تزعم انك تعرفه.

وغادرته شاعراً بالصدمة والضيق دون أن أجيبه, فهاهو جزء آخر من ذكرياتى قد انتهى للأبد .. لا أدرى لماذا سطعت فى رأسى الكثير من الذكريات مع الرجل ؟.. بعض دعاباته ذات الإيحاءت الجنسية غالباً, والتى كان يستمتع برواياتها, والضحك عليها دون ان ينتظر ليرى هل أعجبت مثل هذه النكات من يلقيها عليه أم لا ؟..كان يضحك عندئذ كأنما كان يلقيها لنفسة ليضحك هو عليها ..

وهنا طفت على سطح ذاكرتى, ذكرى أخرى حكاها لى الرجل فى مرة من المرات التى جمعتنا سوياً .. كنت قد سألته يومها عن عالم الجثث الذى يعيش فيه .. فالرجل منذ عرفته لايغادر المشرحة تقريباً أبداً, كما أنه لم يتزوج؛ ولهذا فإنه قد اتخذ المشرحة بيتاً له .. ولأنه أقدم العمال فقد سمحت له إدارة الكلية أن يعيش فى حجرة بداخل المشرحة فى شيء استثنائى .. وسألته يومها بشىء من الجد ,والكثير من المداعبة :

-ألا تخشى الجثث ياعم منصور ؟.. ألاتخاف أن يظهر لك عفريت جثة ما فى أى لحظة, وأنت تنام على بعد خطوات منها ؟.. ألاتخشى أن تنتقم أشباحها منك لما تفعله بها ؟..لوكنت مكانك

لاهتممت بهذا الأمر, وخشيت على نفسى .. إن أرواح الموتى كما أعلم لا تعرف المزاح.

هذه المرة رأيت عيني الرجل ولأول مرة, زائغتين مرتعشتين .. شحب وجهه كثيراً, قبل أن يجيب بصوت مضطرب معاتباً:

-هذه أشياءُ لا يصح السخرية منها أو الضحك فيها يادكتور .

شعرت بالدهشة من رد فعله البادى على وجهه .. بدا واضحاً أن الرجل يهاب شيئاً ما ..كانت هذه أول مرة أرى تعبيراً كهذا فى صفحة وجهه, ولم أكن لأتركه حينها حتى يفصح عما يخفيه, فقلت ملحاً:

- هل تعنى كلماتك هذده أنك قد صادفت شيئاً من هذه الأشياء من قبل؟.. أشعر أن هذا قد حدث بالفعل, وأرى الإجابات فى عينيك تقفز مؤكدة ما أعتقده .

أخذ حينها نفساً عميقاً من سيجارته التى بيده, وكتمه للحظات داخل صدره كأنما يلتمس به بث الطمائنينة فى صدره, ثم أطلقه ببطء ناثراً سحبا من الدخان الكثيفة حولنا, وأجاب ببطء, وبصوت هامس:

- هل تصدقنى يا دكتور لو أخبرتك أنهم حولنا طوال الوقت, بل وإننى كثيراً ما أراهم, وأسمع أصواتهم,وصرخاتهم وبكائهم .. نعم أسمع بكائهم, ونحيبهم كأنما هناك ما يحزنهم ويسوءهم .. إننى لست واهما فيما أدعيه, ولن أكذبك الحديث أبدا بعد هذا العمر..

نعم, فى البداية كنت أخشاهم ,وأشعر بالرعب والهلع منهم حين أشعر بهم, لكننى بعد حين اعتدت عليهم, فلم أعد أكترث بهذا كالسابق .. فبعد أن قضيت أكثر من أربعين عاماً من العمل مع الموتى, لاتتوقع أن تجد مايخيفنى .. حتى الموت نفسه صرت لا أخافه كالسابق .. إننى أراه, وأعايشه كل يوم..

-أتعنى بما تقوله أن هناك بالفعل أشباحاً للموتى و عفاريت لهم ؟.. إذا هذه الأشياء موجودة بالفعل .. أليس كذلك ؟!.

-إننى لا أدرى ماذا يكونون بالضبط ؟.. هل هم أشباح أم عفاريت أم أنهم قرين الموتى من الجان ..صدقنى لا أدرى ما حقيقتهم .. لكن هناك بالفعل أشياءً مرعبة تدور دوماً حول الجثث .. أشياء شاب لها شعرى مذ كنت شاباً صغيراً .. لكنى كما ذكرت لك لم أعد أعبأ بها الأن, وقد صرت شيخاً كبيراً, على أعتاب الموت .. ليكونوا مايكونون, فعمّا قريب سألحق بهم, وحينها حتماً سأعرف الإجابات كلها.

كان مايقوله مثيراً, وشعرت بنشوة هائلة مما أسمعه ..كانت هذه أول مرة أرى فيها من يجزم بوجود أشباح عايشها .. خبرة تمنيت أن أعايشها, ولو مرة واحدة فى عمرى, وإن كنت أخشى حدوثها بشدة .. ولا أدرى حقا ماذا سأفعل لو واجهت شبحا فى يوم ما .. هل سأعدو هاربا منه ؟.. أم ترانى سأتفحصه ثابت الجنان ؟.. لن أعرف حقا إلا لو واجهتهم.

لذا ملت نحوه متسائلاً بحماس :

-إذا أخبرنى بالله عليك كيف تراهم ؟ .. وكيف يبدون لك ؟.. هل تراهم كطيف مثلاً .. أو ضباب كما يصفهم البعض, أم أنهم يتخذون شكلا ماديا محسوسا ؟..

-إننى لا أراهم بعينى بصورة واحدة متشابهة .. أحيانا هم كالظلال, وأحيانا آخرى أراهم كالأحياء يحومون حول الطاولات التى تحوى جثثهم .. لكن فى الكثير من الأحيان لا أراهم بعينى, بل أشعر بوجودهم حولي .. إن لهم حضورا مميزا لا شك فيه, ولو كنت دقيق الملاحظة, فسوف تشعر بهم حتما حين يكونون حولك.

صمت بعدها, وأخد نفساً عميقاً وأخيراً من الجزء الباقى من سيجارته,كأنما يعتصر دخانها المتبقى كله, قبل أن يلقيها أسفل قدمه ويسحقها, ثم سعل مرة أخرى بشدة , وبصق على الأرض, قبل أن يكمل:

-لا أتكلم عن الأصوات والصرخات والأشياء التى تتحرك بلاسبب .. كل هذا يحدث كثيراً .. لكننى أتحدث عن الإحساس بهم وهم يحيطون بك .. دوماً هناك ذلك البرد الذى يتسلل إلى جسدك, فتكون تلك الارتجافة التى تخترق نخاع عظامك نفسه .. هناك ذلك الإحساس المريب أن هناك من يقف خلفك, فإذا ما التفت لاتجد أحداً .. أحياناً ترى تلك الظلال المنعكسة على الحوائط, والتى لاتمت بصلة للموجود بداخلها .. إنها أمور غريبة تحدث, وتنبئك بأن شيئاً ما غامضاً يدور حولك ولاتراه .. لكن فى أحيان قليلة أخرى, قد أرى صاحب الجثة نفسه فى الفراغ شاخصاً نحوى بعيون جامدة مفزعة .. هذه المرات النادرة هى ما أهابها بشدة وأخشاها.

وبدت حركة ما مفاجئة حينها, فالتفت كالملسوع ونظرت حولى بتوتر ..كنا حينها فى المشرحة, ولا أحد حولنا الآن على الإطلاق .. لم يكن اليوم يوماً دراسياً فلا محاضرات هناك أو طلاب, لذا بدا المكان مهجوراً تقريبا .. وشعرت بالرهبة للحظة ,واعترانى هاجس سخيف أن عم منصور يراقب هلعى المفاجئ

هذا باستمتاع ..لم أرغب فى أن أراه يرمقنى هكذا ساخراً, لذا قلت بتوتر :

- ومع كل هذا مازالت تنام بالمشرحة بمفردك .. من العسير أن أتخيل نفسى مكانك .. أنت تمتلك قلبا فولاذيا لتفعل هذا.

أطلق ضحكته المشروخة حينها, مجيباً بشيء من اللامبالاة:

-أكل العيش يادكتور.. أكل العيش الذي لا يرحم.

صمَتُ لوهلة متخيلاً أكل العيش الذى قد يدفع صاحبه للجنون أو الموت رعباً .. هذا مالا يمكننى ان أفهمه .. ما لذة الطعام أو الشراب أو الأموال لو عشت دوماً فى فزع أو خوف ؟.. وكيف تتذوق حلاوة هذه الأشياء دون أن تحيا مطمئناً ؟.. ورمقته بحيرة وأنا لا أدرى كيف أكمل حديثى, بينما أشعل هو سيجارة جديدة, وقال لى باسماً:

-هل ترغب فى تناول كوب من الشاى معى ؟

أفقت من تأملاتى قائلاً على الفور:

-لاداعى لهذا.. أشكرك.. لكن أخبرني, هل حاولت هذه الأشباح يوماً أن تؤذيك, أوتعترضك وتخيفك مثلا, أم أنها تكتفى بالتواجد فقط.

بدت نظرة شاردة على عينيه, وأخذ فى التدخين بشيء من العصبية, لاحظتها فى ارتجافة خفيفة سرت فى أصابع يده الممسكة بلفافة التبغ , وعيناه اللتان ارتفعت مقلتاهما نحو سقف الحجرة .. شعرت بأن هناك ذكرى ما يتذكرها الآن .. ذكرى ربما

ذكره كلامى بها .. وبدت تلك الذكرى وكأنها غير سعيدة أبداً .. بدا هذا بشدة فى ملامحه التى تقلصت بتوتر , ويده التى واصلت الارتجاف..

إلا أن فضولى كان عاتياً .. وأردت أن أسمع منه ماعاشه أو رآه فى تلك المنطقة الغامضة .. عالم الأشباح والأرواح .. هذه خبرات قد لايعايشها المرء فى حياته كلها .. والغالبية من البشر قد لاتصدق بوجودها, وترفض الإيمان بها.

أنا شخصياً, وبالرغم من قراءاتى لم أعايش مثل هذه الخبرات إلا بين صفحات الكتب أو عوالم السينما .. لا أرفض وجودها كلية, ولا أقبلها كذلك كأمر مسلم به .. المشكلة الحقيقية أن الأفاقين من شهود هذه الأحداث كثيرون للغاية, حتي لتختفى الروايات الصادقة بين أمواج الروايات الهزلية الملفقة .. لهذا أردت أن أسمع من عم منصور ماحدث له .. فالرجل مع طيبته هذه محدود التعليم, وقليل الخيال بالتأكيد, كما أنه غير كاذب .. هذا شيء عرفته عنه منذ زمن, ولهذا فمن الصعب أن أكذب ما سيقوله لي .. ربما لايكون دقيقاً تماماً فيما يذكره, إلا أنة حتما لن يلفقه .

وطال صمته حينها فقلت له مداعباً, محاولاً حثه على البوح بما يخفيه عنى:

-أين ذهبت بعقلك أيها العجوز ؟!.

بدت انتفاضة خافتة فى وجهه, وقد أفاق من تأملاته .. قال بعدها راسماً ابتسامة باهتة على وجهه :

-مازلت معك يادكتور .. لقد سبح عقلى نحو أحداث, جرت هاهنا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً .. أحداثاً مخيفة, وشريرة

لأقصى حد .. إن الكثير من شعيرات رأسى البيضاء التى تراها الأن حدثت حينها .. ذكريات طالما تمنيت أن أنساها, وطالما دعوت الله كثيراً ألا تتكرر مثل هذه الأحداث مرة أخرى .. فلم يعد قلبى كالسابق, قادراً على احتمال مثل هذه الأحداث الشيطانية, ولا شيخوختى عادت لتسمح للإثارة أن يكون لها دور فى أيامى المتبقية.

وسحب النفس الأخير في بقايا السيجارة الثانية التى يدخنها, تاركاً إياى أتطلع إليه مترقبا, ثم قال بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه أحد ما:

-هل تعلم أننى طالما كنت أحاول أن أتناسى هذه الأيام المشئومة .. وحين كانت بعض أحداثها تراودنى فى يقظتى أو ككوابيس فى أحلامى, كنت أحاول أن أتنساها بالقيام بالكثير من الأعمال أو بالصلاة وتلاوة القرآن ..

وارتسمت ابتسامة باهتة على وجهة, زادت تجاعيده, وأكمل:

-هل تعلم يادكتور أننى لجأت للحشيش حينها كى أنسى ..كنت في حاجة لأن أغيب أحياناً عن الواقع , وأن أنسى ما حدث .. هذه الذكريات لم تحمل لى الرعب فحسب, بل فقدت خلالها أحد ما كنت أعده ابنا لى.

شعرت بالشفقة نحوه .. بدا لى الآن أنى أخطأت حين أيقظت بداخله تلك الذكريات الأليمة .. تمنيت لو كنت قد كتمت فضولى, لذا قلت معتذراً :

-أنا آسف بحق ياعم منصور لو كنت قد أزعجتك بفضولى .. وأرجو أن تسامحنى على هذا, فلم أقصد أن أذكرك بتلك الذكرى

السيئة .. لو كنت أعلم أن هذا سيقلب عليك آلام مدفونة لما تحدثت أبداً .. لذا تجاهل أسئلتى كلها, ولا تحاول أن تتذكر أو تحكى أى شيء .. بل إننى سأنصرف الأن كى لا أضايقك أكثر من هذا.

ونهضت حينها مبدياً جديتى فى الانصراف, إلا أنه أسرع قائلاً لى, وهو يجذبنى من ذراعى داعياً إياي لأن أنتظر:

- لا بأس أبدا بما قلته يادكتور .. أنت لا تزعجني بالفعل , لذا اجلس أرجوك.. ربما يدهشك أنى أريد الأن أن أحكى لك ماحدث .. إن هذه أول مرة أحكى فيها ماحدث لأحد ما .. فالكثير من الأشخاص الذين عايشوا ماحدث قد ماتوا, ومن عاش منهم ربما لم يعد يتذكرها الأن .. إننى مازلت أذكر كل شئ .. أذكر أشياءًا أردت أن احتفظ بها لنفسى, وكنت أنتوى أن آخذها معى حتى قبرى .. لكننى الآن أريد أن أحكى .. إن ماكتمته لأعوام طوال ليموج فى صدرى الأن ملحاً على أن يرى النور ثانية, لذا فلا بأس من أن اقص عليك ماجرى.

- صدقنى ياعم محروس أنا لا أريد مطلقا أن أثقل عليك .. لقد كنت فقط أداعبك قليلاً .. لايهم كثيراً أن تقص عليّ أى شيء .. مايهمنى هو ألا أوقظ فى نفسك ما قد يؤلمك أو يضايقك.

قلتها صادقاً مشفقاً, شاعراً بالأسف الحقيقى نحوه .. لكنه قال مصراً:

-كلا يادكتور .. أنت دوماً على الرحب والسعة .. ولكن هل لديك الوقت الكافى كى أقص عليك ماحدث, أم أن وقتك محدود؟..إن حديثنا سيطول.

نظرت إلى ساعتى .. كانت مازالت الحادية عشر صباحاً, ولم يكن هناك أى موعد لي قبل الرابعة عصراً, فقلت له مطمئناً:

- لاتقلق بشأنى أيها العجوز .. فمازال أمامى متسع من الوقت لأسمعك .. يمكنك أن تحكى كما تشاء .

وتنهد بإرتياح ونهض متجهاً إلى -سبرتاية- عتيقة قابعة على طاولة خشبية بجوار أحد جدران حجرتة ,وهو يقول:

-حسنا ليكن ذلك ..لكن دعنى أولاً أعد بعض الشاى الثقيل من أجلنا.

أخذ يعد الشاى بشرود كأنما يرتب ذكرياته ويصنفها فى عقله ,ورحت أراقبه بلهفة, وأنا أنتظر ما سيلقيه على أذناى ..كنت متحمسا بشدة كى أسمع, يومها حكى لي الأحداث التى مر بها منذ أعوام بعيدة .. وكالعادة كنت مبهوراً كثيراً بما حكى .. بالطبع كانت الأحداث مرعبةً ومخيفةً وعسيرة التصديق .. إلا إننى لم أستطع أن أكذبه .. وقلت لنفسى حينها "مالذى يدفع رجل مثل هذا, وقد بلغ من الكبر عتياً, أن يختلق مثل هذه الأحداث؟.. لاشيء بالتأكيد..إن ماقصه علي لابد أنه قد حدث بالفعل, أو على الأقل هو يؤمن أنه قد حدث, لكنه لايكذب."

بالطبع كنت محظوظاً؛ فقد استطعت بعدها الحصول على الكثير من تفاصيل القصة من أهم أبطالها الذين عايشوها ..

الدكتور محمد شاهين.. كان له دور رئيسى بالقصة ,وحكى لى فيما بعد ما يتذكره عن تلك القصة..

واكتملت حينها خيوط القصة بأكملها فى رأسى.. وكان عليّ أن أحكيها لكم ..

وها أنا أفعل..

(1)

كانت البداية قبل أسبوع واحد من بداية العام الدراسى ..

كانت هذه هي أيام التعب الفعلية في العمل بالمشرحة .. فالعمل كان حينها كثيرا بحق .. كانت هناك الكثير من أعمال الصيانة للمشرحة .. وهناك الكثير من الزيارات إلى مشرحة زينهم, وغيرها لجلب الجثث التى يحتاجها الطلاب فى دراستهم .. أيضا كان هناك تحضير الجثث, وحفظها بالفورمالين كى لاتتحلل أو تتلف .. والعمل على جلب الكثير من العظام, والهياكل العظمية للطلاب لبيعها لهم أو إعارتها إياهم .

كان هذا صيف 1971م, تلك الأيام الكئيبة التى عاشتها مصر بأكملها مابين مرارة الهزيمة التى بددت الأحلام الضبابية التى عاشها المصريون طويلاً, وخاصة قدرة الجيش على إلقاء إسرائيل, ومن عاونها فى البحر, ولهيب الترقب فى انتظار الحرب التى ستأتى بالثأر, و تعيد إلي الشعب جزءاً من كرامته المهدرة وأحلامه المفقودة.

كان عم منصور قد أمضي فى عمله بالمشرحة أكثر من عشرة أعوام .. تعلم خلالها كل أسرارها حتى صار كبير العمال بها .. لم يكن يعمل بمفرده بالطبع, فقد كان هناك ثلاثة عمال آخريين للمساعدة ..

كان الأول هو عبدالدايم النوبى .. نوبي أسمر البشرة .. كان نحيل الجسم كعود ثقاب, لكنه كان نشيطاً كنحلة, كان فى بداية العشرينات من عمره, وكان فيه كل ما فى أبناء النوبة من طيبة ووداعة, ولهذا كان عم منصور يشعر نحوه بالراحة ويحبه ..

كان هناك – أيضاً- متولى الديب .. فلاح من البحيرة, أدرك بفطنة أن أعمال الفلاحة والزراعة لن تغنى شهوته للمال الذى يرغب فيه بشدة, فقرر هجرها, وباع القراريط القليلة التى يملكها فى بلده, ليهاجر بزوجته, وابنيه إلى القاهرة ..

كانت العاصمة قاسيةً معة فى البداية, ولم تعانقه مرحبةً به كما ظن.. وأدرك أن عليه أن يلتحق بعمل ما حتى يعرف طريقه, ويختار طريقاً ما يهيئ له أن يصير ثرياً يوماً ما كما يحلم .. لهذا لم يتردد فى أن يعمل فى المشرحة حين أخبره أحد جيرانه بالحى الشعبى الذى انتقل إليه للعيش فيه, أن كلية الطب تطلب عمالاً للمشرحة ..

تقدم بأوراقه, وتم قبوله فى الحال .. كان لئيماً ماكرا, وإن لم يكن خبيثاً .. أدرك هذا عم منصور منذ النظرة الأولى, فلم يرتح له كثيراً .. لكن ماجدوى مشاعره هذه ؟.. إنه لن يتزوج أخته بالطبع, ومايربطه به هو العمل فقط .. كان متولى قد مضى على عمله بالمشرحة فى ذلك الحين عامين كاملين, والحق يقال, أنه قد تعلم بسرعة أسرار العمل ,وصار مفيداً بصورة ما.

فى العام الماضى تحدث لعم منصور عن قدرته على إحضار مايلزم المكان من عظام الموتى التى يحتاجها الطلاب .. طبعاً مكان ن العبث أن يسأله عم منصور عن مصدرها..

سيسرقها بالتأكيد من المقابر .. بالتأكيد هذا ما كان يفعله.

ولم يشأ عم منصور أن يتورط معه فى أمر كهذا, لهذا أخبره أن لاحاجة به إلى ما يجلبه من تلك العظام..

لكنه راح يلحظ من بعيد كيف صار متولى يغيب عن العمل, من حين لآخر ليومين أو ثلاثة, ليعود بعدها بالكثير من العظام .. لابد أنه يجلبها من مقابر قريته أو مقابر قرى المجاورة لها ..بالطبع صار الأمر أكثر بهجة لمتولى وقد ابتسمت الدنيا له .. وفى شهور قليلة صار مقصد الكثير من الطلاب, حيث يشترون منه مايحتاجونه من العظام .. كما تناثرت-أيضا - بعض الأقوال عن قدرته على جلب بعض الجثث الكاملة أو أجزاء منها لمن يريد مادام قادراً على الدفع ..

كان عم منصور قد سمع, ورأي من قبل, مثل هذه النوعيات من البشر, التى لاتتردد فى فعل أى شيء من أجل المال .. فى الغالب لن يمضي وقت طويل قبل أن يكون متولى فى السجن بتهمة نبش المقابر, هذا بالطبع إن لم يفتك به أصحاب تلك المقابر التى ينتهكها, ويسرقها لو نجحوا فى اصيطاده يوماً ما..

كان العامل الأخير هو جمال عبد الهادى ..ب دين, أخرق, وكسول .. كان من القاهرة, وكان لا يفعل شيئاً إلا النوم,والأكل,والنميمة, والشكوى من زوجته التى تسيء معاملته بلسانها السليط حتى أحالت حياته لجهنم صالية, كما يحب أن يقول..

هؤلاء كانوا عمال المشرحة ..

وقبل أن يبدأ العام ظهرت المشكلة...

لم يكن هناك إلا جثث ثلاث فقط بالمشرحة .. كان هذا العدد ضئيلاً للغاية, ولم يكن هذا العدد كافياً لمتطلبات الدراسة .. كان المعتاد أن يتوافر بالمشرحة عشر جثث على الأقل فى بدء العام

الدراسى, كى تكفى أعداد الطلاب المتزايدة .. ولم يتوافر إلا تلك الجثث الثلاث, وهنا كانت المشكلة.

ذهب عم منصور أكثر من مرة لمشرحة زينهم, عسى أن يحصل منها على المزيد من الجثث, لكنها كانت تعانى من قلة الجثث الواردة إليها فى ذلك الحين .. بدا الأمر حينها كأنما كف الناس عن الموت .

بالطبع كان هناك الكثير من الاتصالات من الدكتور نعيم, رئيس قسم التشريح فى ذلك الوقت, وغيره من الأساتذة بالمسئولين بمشرحة زينهم, لكن كل هذا كان بلا جدوى, فالمشرحة بالفعل لم تحوى أى جثث لتذهب لكلية الطب.

وفى قاعة المشرحة قال الدكتور نعيم, وهو ينفث دخان سيجارته بحنق, وعيناه تتأمل الجثث الثلاث باستنكار:

-لست أصدق ما أراه .. ثلاث جثث فقط هى كل مالدينا .. هذا مستحيل .. لن يبدأ العام الدراسى بهذا العدد القليل أبداً .. علينا أن نفعل شيئاً ما.

وتبعه عم منصور, وهو يقول محاولاً تهدئته:

-لاتقلق يادكتور .. مازال أمامنا بعض الوقت .. وأعدك أن أبذل قصارى جهدى كى أوفر الجثث المطلوبة .. لقد طلبت من عبد الكريم كبير العمال بمشرحة زينهم أن يعلمنى لو توافرت أى جثث جديدة لديهم, ووعدنى أن يفعل.

-أعطه يامنصور بعض الأموال لو تطلب الأمر, ليهتم .. أمامنا أقل من أسبوع واحد علي بدء الدراسة, ولابد أن نحصل على جثتين آخرتين على الأقل قبل ذلك.

-لقد وعدته بإكرامية معقولة يا دكتور فاطمئن .. ولن أتركه إلا بعد أن يمدنا بما نحتاجه من الجثث.

-هذا ما أنتظره منك يا منصور .. إننى أعتمد عليك فى هذا.

وغادر المشرحة فى عصبية, وهو يتمتم بكلمات مبهمة غير مفهومة, بينما اتجه عم منصور إلى الداخل حيث انهمك العمال الثلاثة فى تحضير الجثث الثلاث, لحقنها بالفورمالين ..

هناك كانت الرائحة الشيطانية التى لاتطاق .. إنه الفورمالين لمن لايعلم .. الكثير من الدموع والنيران الملتهبة بالعين والأنف, ونيران أخرى تشتعل طوال الوقت بالحلق, ولا يُجدى معها السعال أو أى شيءآخر .. إنه حجيم حقيقى يافتى لايمكنك أن تهرب منه أو تتجنبه.

هنا اقترب منه متولى, وهو يمسح عينيه الدامعتين المحتقنتين بطرف كمه, وقال راسماً ابتسامة تعبق بالسماجة على وجهه:

- لماذا كان الدكتور نعيم عصبياً هكذا .. هل هناك ما يغضبه؟ .

- إنه حانق لقلة الجثث بالمشرحة, إن الجثث الثلاث لاتكفيه ويرغب فى توفير المزيد منها.

-لكنك قد ذهبت بالأمس إلى مشرحة زينهم من اجل هذا كما أعتقد .. لماذا إذاً لم تجلب المزيد من الجثث من هناك ؟..

-لايوجد لديهم جثثاً تصلح لنا .. الجثة الوحيدة المتوافرة بها الأن محترقة تماما, ولاتصلح للدراسة عليها.

-وماذا تنوى أن تفعل ؟

-لا أدرى !.. لكننى بالتأكيد لن أهبط إلى السوق مثلاً لأجلبها .. ليس بيدنا أى شئ إلا أن ننتظر .

هنا سعل متولى للحظة كأنما يطرد شئ ما من حلقه, قبل أن يميل نحو عم منصور, ويهمس فى أذنه بصوت كالفحيح وعيناه تبرقان:

-وماذا لو كنت أستطيع توفير جثث طازجة للمشرحة, وبأى عدد ترغبون فيه .. يمكننى أن أقوم بهذا الأمر بالطبع لو شئتم.

واتسعت عينا عم منصور بالكثير من الامتعاض والدهشة, وقد أدرك مايلمح به متولى .. بالطبع لم يكن ليقبل بشيء كهذا .. لذا قال له بحدة:

-اصمت يا رجل .. إننا لا نرغب فى جثثك المشبوهة تلك..احتفظ بها لزبائنك, وحين أحتاج إليك سأخبرك.

تجاهل متولى نظرة الامتعاض التى رمقه به عم منصور كعادته, ومضى مبتعداً ببساطة, وبرود,كأنما لم يحدث شيء, وشعر عم منصور بالغيظ .. هل صنع هذا الرجل من الثلج؟.. كان يحنقه بروده الشديد .. إنه رجل لا تنتظر منه أن يخجل منك لأى سبب ما, أو يتأثر برأيك فيه, أو نظرتك عنه .. هذه أشياء لاتترجم لديه إلى أموال, لهذا لا يعبأ بها ..

وسمع متولى يقول ,وهو يبتعد متجهاً إلى الطاولة التى رقدت عليها الجثة التى يعمل عليها.

-لقد كنت أعرض خدماتى فقط .. لا أدري لماذا تغضب ؟!..

- لكننا لانحتاجها .. ظننت هذا واضحا.
أجابه عم منصور ببرود , وعقله يفكر فيما يمكنه أن يفعله لحل هذه المشكلة ..لكنه لم يصل لحل يرضيه ..فقرر أن يترك الأمر لله ,فربما يأتى الفرج قريباً..

(2)

وظل الأمر هكذا إلي يوم الأربعاء, ولم يعد متبقيا غير أيام ثلاث, قبل أن تبدأ الدراسة .. لم ينجحوا إلا فى توفير جثة أخرى .. لكن بالرغم من هذا مازال عدد الجثث بالمشرحة غير كافٍ .. ومازال الدكتور نعيم فى جنون.

وراح الدكتور نعيم يتجول بالمشرحة بعصبية وحنق, ووجهه محتقن؛ حتى تخال أن الدماء المحتشدة فى أوردتة سوف تنفجر منها فى أى لحظة, كان بصحبته اثنان من أستاذة القسم الكبار, وعلى مقربة منهم بالخلف تبعهم عم منصور ..

كان الرجل كعادته يدخن بشراهة وحنق, وهو يتطلع الى الجثث الأربعة الراقدة أمامه على طاولاتها الرخامية, وعيناه لاتصدق أن يبدأ العام الدراسى بهذه الجثث الأربع فقط .. كانت الجثث مغطاة بغطاء بلاستيكى قاتم, ومازلت رائحة الفورماليين الطازجة تفوح منها بصورة خانقة أدمعت العيون كافة, وأشعلت نيرانها, وهيجت أغشية الأنوف فأسالتها .. وتوقف فى منتصف القاعة, وصاح بعصبية وهو يضرب كفاً بكف:

-لا أدرى كيف سنبدأ الدراسة بأربع جثث فقط .. هذا عبث !.. سوف يتكدس الطلاب حول الجثث, ونصفهم على الأقل لن يرى أى شيء .. إننا نرتكب جريمة حقيقة بحق الطلاب, لوقبلنا بهذا و لم نجد حلاً ما.

قال الدكتور مصطفى رئيس القسم السابق محاولاً تهدئته, وقد كان يسير إلى يمينه:

- إنها ورطة بالفعل .. لكننى أرى أن نلجأ لحلول مؤقتة حتى نحصل على باقى الجثث التى نحتاجها .. يمكننا مثلا أن نقسم الطلاب إلى عدد أكبر من المجموعات .. هذا سيقلل عددهم فى المجموعة الواحدة, مما يتيح لهم الفرصة لاستيعاب مايدرسونه.

صمت الدكتور نعيم مفكراً للحظة, وهو يطلق من أنفه وفمه سحباً رمادية كثيفةً من دخان سيجارته, قبل أن يهز رأسه رافضاً الفكرة, ويقول:

-ومن أين سنجد الوقت الكافى لكل هذه المجموعات التى سوف نصنعها يا دكتور مصطفى ؟.. إن ساعات اليوم الدراسى محدودة للغاية كما تعلم .

هنا قال الطبيب الآخر , وهو الدكتور فؤاد, مقترحاً حلاً آخر:

-ما رأيكم لو قسمنا الطلاب إلى مجموعتين .. المجموعة الأولى تكتفى بالدراسة النظرية فى أسبوع, والأخرى تقوم بالدراسة العملية بالمشرحة فى هذا الأسبوع, وفى الأسبوع التالى نقوم بتبديل المجموعتين .. أظن أن هذا قد ينفع مؤقتاً.

لكن هذا الاقتراح هو الآخر لم يرق للدكتور نعيم , فغمغم معترضاً:

- لكن هذا سيقلل من فترة احتكاك الطالب بالجثث فى المشرحة, وهذا سيؤثر حتماً على استيعابهم .. على الطالب فى البداية أن يمكث بالمشرحة حول الجثث أطول وقت ممكن, حتى يعتادها ويتعلم منها.

وافقه الدكتور مصطفى قائلاً:

-بالتاكيد يجب أن يفعل الطلاب هذا .. لكن الحلول التى نقترحها هى حلول مؤقتة, ريثما يتوافر العدد الكافى من الجثث .. لا أظن أن المشرحة ستعانى من نقص الجثث طوال الوقت .. لقد واجهنا نقصاً كهذا من قبل, ولم يدم الأمر لفترة طويلة .. هناك دوماً جثث جديدة .. فالناس لايكفون عن الموت أبداً..

وقال الدكتور نعيم, وهو يشعل سيجارةً جديدةً, كانت الثالثة فى أقل من عشر دقائق :

-هذا صحيح, لكن هذا العام يختلف عما مضى .. طلاب الدفعة الجديدة سيزيدون خمسين طالباً عن طلاب الدفعة السابقة .. وهذا يعنى حتماً الحاجة للمزيد من الجثث, فما بالك, ونحن لم نستطع توفير الحد الأدنى من الجثث اللازمة للدراسة حتى الأن.

وصمت الثلاثة بعدها, وراحت عقولهم تبحث عن حل ما, وهم يدركون فداحة الأمر .. راحت عيونهم تتفحص جوانب المشرحة بشرود, بينما كان عم منصور يتبعهم دون أن يتدخل ..

وهنا فوجئ بالدكتور فؤاد يلتفت إليه, ويقول له مداعباً:

-مارأيك فى ما يحدث يا منصور .. ألديك اقتراح ما ؟!...

أجابه عم منصور مبتسماً:

- صدقنى أنا لا أكف عن البحث يادكتور .. إننى أرتاد كل المستشفيات بحثا عن جثة ما دون جدوى .. أتمنى لو كان هناك شئ ما أستطيع أن أفعله, كى أتمكن من جلب الجثث المطلوبة, وحل هذه المشكلة.

ابتسم الدكتور مصطفى, وغمزة بعينه اليسرى, وهو يقول بلهجه غامضة غريبة لم يألفها منه عم منصور :

-يمكنك أن تجلب إحدى الجثث من مقبرة ما .. هذا ليس بالأمر العسيرا هذه الأيام .. فى الماضى كان عم عبدالفتاح –رحمه الله- يعرف ما عليه أن يفعله, حين نواجه مثل هذه المواقف .. لقد كان أريباً فى هذه الأمور.

شعر عم منصور بالدهشة مما يسمعه .. هذه أول مرة يطالبه الدكتور مصطفى بشيء كهذا .. أطلق بعدها ضحكةً قصيرةً, وقال محاولاً أن يستشف إن كان الدكتور مصطفى يداعبه, أم أنه جاد فى حديثه :

-يمكننى أن أسرق عشرات الجثث لوشئتم .. لكن ماذا لو قبضوا على ؟!.. حينها لن يكون هناك غير السجن بلاريب, ولا أظن أن طقسه الحار وأمراضه تناسبنى هذه الأيام .. ربما لم أكن لأمانع لو كان الوقت شتاءً.

وضحك الثلاثة لدعابته, إلا أن الدكتور نعيم أسرع يقول, مستعيداً عصبيته التى تلازمه كظله:

-ولماذا يمسك بك أحد ما أو يكون هناك سجن ؟.. كل ماعليك أن تفعله هو أن تراقب مقابر أحد النجوع أو القرى البعيدة عن القاهرة, و تأتى منها بجثة طازجة .. عم عبدالفتاح كان قد فعلها من قبل مراراً كما أخبرناك .. ولو كنت تخشى أن تفعلها بنفسك, يمكنك أن تستأجر من يفعلها بدلاً منك .. خذ ما تشاء من مال وأفعل!.

وعقب عليه الدكتور فؤاد مؤيداً, بينما الذهول قد عقد لسان عم منصور فلم يجد جواباً :

-ثم إن هذه لاتسمى سرقة أبداً .. إنك تفعل هذا من أجل العلم ومن أجل أن يتعلم الطلاب .. حتما سيكون هناك ثواب عظيم عند الله من أجل الطلاب الذين سيتعلمون عليها ويدرسونها.

ولم يكن هناك مايجيب به عم منصور, وقد صدمه طلبهم هذا, فاكتفى بتحريك رأسه بلا معنى, وقال الدكتور نعيم بلهجة آمرة, كأنما يرغب فى إنهاء الأمر, وتوريط عم منصور بالموافقة:

-اسمع يا منصور ..لو استطعت توفير جثة قبل يوم السبت فسوف أمنحك مكافأةً طيبةً .. كما أن كافة التكاليف, والمصاريف اللازمه لجلب الجثث سوف يتحملها القسم .. اجلبها مهما كانت التكلفة, وسوف أكافئك.

وغادروا المشرحة بعدها, وتناهى لسمع عم منصور صوت الدكتور نعيم قائلاً قبل أن يخرج:

-إننى فى انتظار جثة أو اثنتين يا منصور قبل يوم السبت .. إن مكافأة حقيقية بانتظارك, لو استطعت توفير تلك الجثث.

تركوا عم منصور دون أن يدركوا كيف شعربضيق شديد مما طلبوه منه ومن تورطه بالأمر..

لم يكن يتخيل أن يحدث هذا معه..لكنه لن يقبل أن يكون نباشاً للقبور مهما حدث, كى يجلب لهم الجثث التى يريدونها .. ليفعلونها بأنفسهم لو شاءوا .. لكنه لن يفعل .. وبعد حين عاد ليفكر, هل كانوا يحدثونه بجدية, أم أنه أساء فهمهم, وأنهم فقط

كانوا يداعبونه .. تمنى لو كان هذا حقيقا .. لكنه كان يدرك أنهم جادون فى الأمر تماما .. كانت هذه مصيبة بحق .. كان عليه أن يجد حلاً ما.

وأسند ذراعه إلى إحدى مناضد الجثث الفارغة .. أخرج من جيب بنطاله علبة سجائره, وأشعل سيجارةً جديدةً, وأخذ يبصق دخانها بحنق .. لكن وبعد هنيهة قفز إلى عقله متولى, وحديثه من قبل عن قدرته على جلب الجثث .. تنهد بإرتياح حينها .. مادام الأمر قد وصل إلى سرقة الجثث من المقابر , فليقم به إذاً من يجيده .. ليخبر متولى بما قالوه, وليترك الأمر كله على عاتقه .. لن تكون هذه أول مرة يفعل فيها شيئاً كهذا بالتأكيد .. كما أنه هو الذي عرض خدماته من قبل لتوفير الجثث للمشرحة..

اتجه للحجرات الملحقة بالمشرحة كى يبحث عنه .. وجده جالساً بإحدى غرف المشرحة الجانبية, يتجادل مع جمال الذى علا صوته الغليظ, وراحت ذراعاه الممتلئان تلوحان فى الفراغ فى كل إتجاه, وهو يحاول أن يثبت أمر ما, بدا متحمسا فى حديثه واحتشد عرقه على جبهته زاحفا عنحو وجنتيهه حتى وصل الى رقبته وتكاثف فيها, وقد بلل القميص من تحت إبطيه فى منظر ملفت .. بينما جلس فى ركن بعيد عبدالدايم يحتسى كوباً من الشاى, ويتابعهما باستمتاع, دون أن يشاركهم فى الحديث..

توقف عم منصور أمام باب الحجرة, ونادى متولى قائلاً باقتضاب :

-متولي .. أريدك أن تساعدنى فى شئ ما بالداخل ؟..

انتبه متولى له, فالتفت برأسه نحوه, ورمقه محاولا سبر غوره, وأجاب بشيء من اللزوجة كعادته :

-أساعدك فى ماذا ياعم منصور ؟.. وهل مازال هناك عمل ما لم نقم بة؟..

-العمل بالمشرحة لاينتهى أبداً .. هيا انهض يارجل وسترى بنفسك.

قال عبدالدايم بلهجته النوبية المميزة, عارضاً خدماته:

-هل تريدنى أنا –أيضا - ياعم منصور ؟.

-لاداعى لهذا .. أكمل أنت شرب الشاي .. إن متولى يكفى.

ظل متولى يحدق إلى عم منصور بعيون متسائلة, كأنما يرغب فى النفاذ إلى عقله دون أن يغير من جلسته أو ينهض .. وتأفف بعدها عم منصور بنفاذ صبر, فنهض متولى بتثاقل, وهو يغمغم بضيق مفتعل:

-حسناً يا عم منصور .. كما تحب .. أرنى أين هو هذا العمل ؟.

لم يجبه, وسار بخطوات سريعة نحو الداخل , فتبعه متولي باستسلام, ولما استيقن عم منصور أنهما ابتعدا مسافة معقولة عن الباقين, التفت إليه, وقال محاولاً تحاشى النظر إلى عينيه:

-هل تستطيع إحضار جثة ما بحالة جيدة قبل يوم السبت؟.

وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه متولى, والتمعت عيناه بشدة, قبل أن يقول بلهجة عجيبة:

-إذا فقط احتجت خدماتى ..

-لست أنا من يحتاجك .. لقد طلب الدكتور نعيم أن نفعل هذا ففكرت فيك .. والآن أخبرنى هل يمكنك أن تفعل ؟.

-يمكننى بالطبع ..لكن هذا يتوقف على النقود .

- وكم تريد ؟..

حك متولى رأسه بيده متصنعاً التفكير, وقال :

-أخبرنى أولا .. كم جثة تريدون ؟.

-جثة واحدة فقط..

- سأقبل بخمسين جنيها فقط فى تلك الجثة .. إن هذا من أجلك أنت.

تجمدت نظرات عم متولى ذهولاً .. خمسون جنيهاً مرةً واحدةً .. مبلغ كهذا كان ضخماً بحق فى تلك الأيام .. كان أكبر من راتب شهرين كامليين له .. لهذا قال معترضاً بغيظ :

-أنت تحلم .. لست أنا من سيدفع .. إنه الدكتور نعيم, وهو لن يقبل أبداً أن يدفع لك مثل هذا المبلغ .. لن يدفع أكثر من خمس وعشرين جنيها .. أنت واهم لو ظننت أن هناك من يدفع في جثة سعر كهذا.

هنا صاح متولى معترضاً, وهو يلوح بكلتا يديه, راسماً الامتعاض على وجهه :

-لكن هذا قليل للغاية, هناك من يساعدنى, وهناك السيارة التى ستنقل الجثة, ومجهودى و..و..

وهتف به عم منصور ,مقاطعاً :

-إذاً سأقنع الدكتور نعيم بأن يدفع ثلاثين جنيها بلا أى مليم آخر .. هذا عرضى الأخير .. إما أن تقبل, أو أبحث عن أحد غيرك.

صمت متولى مفكراً, وحك رأسه مرة أخرى, وعيناه تبحثان عن شيء وهمى بالسقف, قبل أن يعاود رسم تلك الابتسامة الماكرة على وجهه, وقال باستسلام مفتعل :

-بالطبع لا يمكننى أن أرفض .. لكن هذا من أجلك فقط ياعم منصور .. سأقوم بجلب تلك الجثة, حتى لو كان الأمر بلا مقابل .

تمتم عم منصور بتأفف حقيقى, شاعراً بالإشمئزاز منه :

-بل ستقوم به بمقابل جيد للغايه .. لا شئ مجانى فى هذا الزمن .. أريد الجثة هاهنا قبل يوم السبت القادم .. من الأفضل لو أمكنك أن تجلبها الجمعة مساءً ؟.. يمكننا أن ندخلها إلى المشرحة دون أن يشعر بنا أحد فى هذا الوقت, وسأتولى أنا الأمر مع أمن الكلية .

-توكل على الله يارجل ولاتقلق .. يمكنك اعتبار الجثة فى المشرحة من الآن.

غادره عم منصور, وهو يتساءل من أين هذا الوغد بكل هذه اللزوجة والجشع, خمسون جنيها في الجثة الواحدة ؟!.. هذا جنون بلا شك.

بينما انصرف متولى سعيداً بهذه الصفقة ..

لم يكن أيهما يدرى أى كارثة مقبلين عليها حينها ..

لو علموا حينـها لأنـهوا الأمر على الفور وما فعلوه ..

(3)

قبل أن تصل عقارب الساعة للعاشرة مساء يوم الجمعة, توقفت سيارة نصف نقل أمام الباب الخلفى للكلية .. هناك كان عم منصور يجلس بجوار محمد الريس حارس الأمن الشاب يدخنان سوياً, مستمتعين بالنسمات الباردة التى بددت قيظ النهار الصيفى الخانق..

أخبره عم منصور قبلها أنه بانتظار جثة جديدة من أجل المشرحة, فغداً سوف تبدأ الدراسة, ومازالت المشرحة بحاجة للمزيد منها, ولهذا اضطروا أن يأتوا بها ليلاً لضيق الوقت .. بالطبع لم يشك الحارس فى شيء, ولم يعقب.

بجوار السائق جلس متولى مبتسماً راضياً عن نفسه تماماً .. وتوقف السائق بسيارته أمام الباب, أطلق نفير السيارة لينبهما لقدومه, وفى نفس الوقت لوح متولى بيده خارج نافذة السيارة محيياً, وهو يصيح:

-إفتح الباب يا عم منصور .. إنه أنا.

هرع محمد الريس إليهما كى يفتح الباب للسيارة ,والتى دلفت على الفور نحو فناء الكلية, ثم توقفت على بعد خطوات من الباب, فخرج متولى منها, بينما بقى السائق بداخلها منتظرا.

لحق عم منصور بالسيارة, وقال لمتولى هامساً كى لايسمعه أحد:

-كيف سارت الأمور ؟

-أخبرتك ألا تقلق, كل شيء على مايرام, والأمانة موجودة بالسيارة .

-إذن دعنا لانضيع الوقت, ولندخلها الى المشرحة بسرعة.

قالها عم منصور, ثم سبقه مترجلاً إلى أحد الأبواب الجانبية المطلة على الفناء المتجه للمشرحة, وتبعه متولى والسيارة تسير خلفهما ببطء, ثم توقف الجميع أمام الباب.

أسرع السائق بالهبوط, وفتح الباب الخلفى للسيارة .. كان هناك صندوق خشبى يشبه النعوش إلى حد ما يرقد على صندوق السيارة المعدنى بطول الصندوق .. صعد السائق فوق صندوق سيارته, وأمسك بالصندوق الخشبى من الخلف, وقام بدفعه نحو الخارج ببطء, بينما تعاون عم منصور ومتولى على حمل الصندوق الثقيل من الناحية الأخرى ..

اتجه الثلاثة بالصندوق الخشبى نحو المشرحة ,وغمغم متولى بقلق محذراً وعيناه معلقتان بالصندوق :

-حاذروا لخطواتكم من فضلكم .. لو سقط الصندوق فقد يتحطم.

صرخ فيه عم منصور بغيظ, شاعراً بثقل الصندوق يكاد أن يخلع كتفيه:

-اصمت يا أحمق وتحرك .. صندوقك اللعين هذا, هو ما سيحطم أذرعنا قبل أن يتحطم.

صمت متولى على الفور, وتحرك الموكب الصغير ببطء نحو المشرحة, وقال عم منصور فور أن دلفوا من باب المشرحة, موجهاً إياهما لمكان متسع خلف الباب:

-لننزل هذا الصندوق هنا .. إن هذا يكفى.

أنزلوا الصندوق برفق, وانتصبوا جميعاً ليلتقطوا أنفاسهم اللاهثة من ثقل الصندوق الخشبى, ومايحويه, والتفت عم منصور إلى السائق العجوز مرحباً به مرة أخرى, وهو يقدم له سيجارة من علبته, تناولها السائق بامتنان .. دعاه بعدها لتناول كوب من الشاى بالداخل, إلا أن السائق اعتذر متحججاً بضيق الوقت .

هنا قال متولى :

-دعه يذهب ياعم منصور .. مازال أمام عم بلال رحلة عودة طويلة.

وصحبه متولى بعدها إلى السيارة .. أخرج من حافظته نقوداً ناولها له, فقام الأخير بعدها بسرعة, قبل أن يقبلها ثم يدسها بحافظة جلدية كبيرة أخرجها من جيبه, ثم رحل بسيارته..

وبالداخل كان عم منصور يتفحص بعينيه الصندوق الخشبى المغلق .. كان خشبه غير مدبوغ, وقد تلوثت جدرانه بالبقع, وبعض الطمى الجاف .. أيقن عم منصور أن متولى لابد وأنه قد صنع هذا الصندوق من قبل خصيصاً لمثل هذه المهام القذرة, التى يقوم بها من حين لآخر.

دلف متولى الباب وأشار إلى الصندوق بفخر, وابتسامته اللزجة مرة أخرى تملأ وجهه:

-مارأيك ياعم منصور بهذا الصندوق .. لقد كلفنى صنعه أكثر من عشرة جنيهات كاملة .. لكنه والحق يقال يستحق .. إنه من الزان.

-لايهمنى صندوقك ولا ما دفعته فيه .. إن ما أريده هو الجثة فقط .

-إنها بداخله .. أراهن على أنها سوف تعجبك.

-لا أريدها أن تعجبنى .. فقط أريد جثة صالحة .

-إنها كذلك بالفعل .. اطمئن .. إنها سليمة وطازجة .. سترى هذا بنفسك.

وقال عم منصور بضجر, وهو وينحنى نحو الصندوق, كى ينتهى الأمر :

-إذاً دعنا ندخلها لقاعة التشريح, لنرى هذا بأنفسنا.

تعاونا سوياً وبصعوبه فى حمل الصندوق, وإدخاله للقاعة، ثم اتجها به نحو طاولة فارغة, فأرقداه أسفلها, وانحنى متولى على الصندوق, وأخرج مفتاحاً صغيراً من جيبه, عالج به القفل الصغير الموضوع بجانب الصندوق, وفتحة, ثم رفع الغطاء العلوى للصندوق, لتظهر الجثة ملفوفة فى كفنها الأبيض..

شعر عم متولى بالضيق حين رأى الجثة مستورة بكفنها, وانتابه إحساس ساحق بأنه قد انتهك حرمتها, فهتف في متولى غاضباً:

-لماذا لم تنزع الكفن عنها قبل أن تأتى بها ؟.. إنك تفعل أشياءً حمقاء.

- ظننت أنه لا بأس من الاحتفاظ به .. لا مبرر هنالك للتخلص منه.

وابتسم مرة أخرى ابتسامته اللزجة مكملاً, وهو يشير إلي الكفن:

-إنه مازال جديداً كما ترى, يمكننا الانتفاع به مرةً أخرى.

رمقه عم منصور بنفور حقيقى, وقال بتأفف, وهو ينظر إليه شذراً:

-هل تعلم أنك أكثر من رأيته جشعاً في حياتى كلها .. لا أدرى كيف يحيا إنسان ما بتفكيرك وطمعك هذا .. إنك تشعرني بالغثيان يارجل.

لم تختلج عضلة واحدة فى وجه متولى, وهو يجيب بثبات, دون أن تتعكر ابتسامته لما يسمعه:

-الحياة صعبة يا عم منصور, ولا يصلح لها إلا الشخص (المفتّح) القادر على انتزاع المال من فم الأسد, إننا نحيا من أجل هذا.

وابتلع عم منصور لسانه, ولم يعقب .. لا جدوى من الكلام معه, فلن يتفهم أى منهما منطق الآخر, كلاهما يرى الدنيا من منظار مختلف .. ولن يجنى من مثل هذه المجادلات, إلا إثارة أعصابه وحنقه.

لذا صمت وانحني نحو الجثمان ليرفعة كاتماً غيظه, قائلاً:

-إذن عاوننى لنضع الجثة على الطاولة. علينا أن ننتهى من عملنا.

وحمل الجثه فشعر بالعجب حين اكتشف أنها خفيفة للغاية, بالرغم من طولها البادى عليها .. أرقداها على المنضدة برفق, ثم أشار عم متولى إلي الجثمان, قائلاً لمتولى:

-هيا انزع ذلك الكفن اللعين عنها .. لن أشارك في هذا العمل البغيض.

وعلي الفور امتدت يد متولى نحو الكفن, وراح يزيله من جسد الجثة بسرعة, ومهارة من اعتاد فعل هذا عشرات المرات من قبل, فى نفس الوقت أدار عم منصور جسده للخلف, كى لايرى ما يفعله متولى.

لكنه حين استدار ثانيةً نحو الجثة, ورأى من تكون, أطلق شهقة عالية, وتراجع للخلف بذهول, كاتماً صرخة عالية كادت أن تفلت من فمه, بينما قال متولى, وهو ينظر إلى الجثة ببلاهة وذهول, كأنما يراها للمرة الأولى:

- ما هذا..إنها فتاة ؟!. فتاة ؟!..

كانت الجثة لفتاة بالفعل .. فتاة شابة في مقتبل العمر .. كانت حلوة .. بل أجمل فتاة رآها أحدهما فى حياته كلها .. كانت بيضاء البشرة بشدة, وإن شاب شفتيها وخدودها بعض الصفرة والشحوب بتأثير الموت ..وامتلكت وجهها يحوى ملامحاً دقيقة وفاتنةً للغاية.. بدت فى منتصف العشرينات من عمرها, وحول وجهها التف شلال حر من الشعر الفاحم الحريرى الناعم ..

بدت الفتاة كنموذج للفتنة النائمة .. جمال كهذا لو رآه فنان لجن عقله, ولهام به عشقا, وصنع من أجله عشرات اللوحات والصور.

شعر الاثنان أنها كائن لاينتمي فى روعته وجلاله لعالم البشر الفانى .. فمنذ متى والنساء فى هذه الدنيا يحملن حلاوة كهذه ؟!..

وبالرغم من أن عم منصور قد عمل لأكثر من عشرة أعوام مع الموتى , رأي خلالها مئات الجثث, حتى صار يعرف الموتى بنظرة واحدة .. إلا أنه حين رآها شك بشدة أنها ميتة .. وهتف بصوت مبحوح مختنق, وعيناه مثبتتان عليها بإصرار:

-ما الذى فعلته أيها الأحمق .. من هذه ؟.. وكيف أتيت بها ؟

ابتلع متولي ريقه بصعوبة حقيقة, وأجاب بتوتر, وعيناه هو الآخر معلقة بها, وهو لا يصدق ما يراه:

-لم أكن أعلم أنها فتاة .. ما أخبرنى به اللحاد أنها جثة طازجة, فظننتها جثة لرجل, لقد اعتدنا دائما ألا نقرب جثث الإناث .. إنه لم يخبرنى أنها لفتاة .. إنه خطأه.

وتصلب عم منصور أمام جثمان الفتاة, وعيناه جاحظتان ترمقها بدهشة ممزوجة بالإشفاق .. وألح ليه عقله, فمد يده نحو عنقها متحسسا وريدها السباتى,

هل تكون تحت تأثير غيبوبة ما ؟.. علم من قبل أن هذا قد يحدث أحياناً .. وأمام جمالها تمنى أن تكون كذلك.

لكنها كانت باردة بشدة, ولم يشعر بأى نبض لها تحت أصابعه, إنها ميتة بالفعل .. ونظر إلى عينيها المغلقتين للحظات, بأسف متوقعاً أن تفتحهما فى أى لحظة, ناظرة إليهما برعب و فزع .. لكنها لم تفعل ..

نظر إلى جسدها العارى متفحصا, فبدا هو الآخر سليماً تماماً .. حتى علامات الموت التى يراها فى الجثث كالزرقة الرمية، وغيرها غابت عنها .. فكرر سؤاله مرة أخرى ,وتوتره يتصاعد بداخله:

-من أين أتيت يارجل بهذه الجثة ؟.

ولاحظ عم منصور أن توتر متولى وحيرته, لاتقل عما يشعر به, ومتولى يجيب بصوت مرتجف:

- أحضرتها من مقابر إحدى القرى المجاورة لقريتى .. لم يكن هناك جثث جديدة بمقابر قريتى فبحثت هناك .. لقد أخبرنى اللحاد أنها ماتت صباح اليوم, ودُفنت بعد صلاة الجمعة ..

كان هذا يعنى أنها ماتت منذ أكثر من خمس عشرة ساعة, وبالرغم من هذا لم يظهر عليها أى من علامات التحلل .. وكان ذلك الوقت هو نهاية شهر سبتمر, حيث مازال الحر على أشده, ولهذا كان من المستحيل أن تبقى فى وقت كهذا, أى جثة على حالها, دون أن تظهر عليها علامات التحلل ..كان هذا مريباً غريباً.

ظل يتأمل الجثة بتوتر, ووجد نفسه يغطي جسدها حياءً ,كأنما مازالت حية .. لم ينْتَابْهُ فى يوم من الأيام شيء من هذه المشاعر التى يحس بها الآن أمام تلك الجثة .. لم يشعر يوما ما بالأسف نحو جثة ما كما يحدث الآن.

وجد نفسه يفكر فى الفتاة .. ترى كيف, ولماذا ماتت هذه الفتاة ؟.. هل قتلها أهلها من أجل الشرف, ودرءاً للعار, كما يحدث فى

الأرياف كثيراً ؟.. لكنه لم يلحظ على جثتها أى آثارٍ لعنفٍ ما أو عدوان .. بشرتها سليمة رائقة لا غبار عليها ..

هل ماتت لمرضٍ ما ؟.. لكنه عاد واستبعد هذا الاحتمال .. فقد أوحت إليه الجثة أن صاحبتها قد ماتت فى عنفوانها .. فلا وجود لآثار المرض ومخالبه على جسده ووجهها.

لو ماتت هذه, فلابد أنها كانت بكامل صحتها وعنفوانها .. نامت في المساء, ولم تستيقظ بعدها قط .. ميتة هادئة, لكنها مؤلمة ومفاجئة لذويها ..

وأخرجه متولى من شروده قائلاً, وهو يشير بإصبعه نحو الجثة:

-والآن ماذا سنفعل ؟.

-لست أدرى .. إننى أشعر بالحيرة.

قالها, وأخرج علبة السجائر من جيبه ليشعل سيجارة جديدة, ليبدد فى دخانها توتره وحيرته .. شعر أن هذه الجثة تخصه هو .. جثة تحمل شيئا من مشاعره وجيناته .. كان إحساساً سخيفاً .. لكنه لم يستطع أن يطرده من عقله ..

كان يتمنى ألا يصيبها مايصيب الجثث هنا من تمزيق وتفكيك .. إن تلك الرقة والفتنة النائمة لخليقة أن تظل هكذا حتى يبتلعها الثرى, دون أن يرى أحد كيف تذهب الأرض بتلك الحلاوة والفتنة .. لذا غمغم بصوت خافت دون أن يتمالك نفسه:

-هذة الفتاة لاتستحق أبداً أن توجد هاهنا .. هذا كله خطأ.

واستدار متولى نحوه بغتة بشيء من الاستنكار, وهو يثب كالملسوع:

-هل تعنى بكلامك هذا أنك لاتريدها ؟! .. إننى لن أعيدها لقبرها ثانية.

نظر إليه عم منصور, وهو يزفر سحابة كثيفة من الدخان نحو وجهه, وقال ببطء:

-لم أقل هذا .. لقد جاءت إلى هنا .. هذا قدرها إذن.

تنهد متولى بارتياح, بعدما ظن أن عم منصور سيطلب منه أن يعيد دفنها ثانية .. لكن عم منصور لم يقلها, وإن تمنى في أعماقه أن يفعل هذا .. كان متوتراً, وشعر أنه لارغبة لديه فى أن يبدأ إجراءات تجهيزها للحفظ بالفورمالين, ريثما يأتى أطباء القسم في الصباح كى يكملوا حفظها بالفورمالين .. وقال لمتولى وهو يجذبه من ذراعه:

-دعنا نحتسى كوبين من الشاى أولا, قبل أن نعود إليها, لنبدأ عملنا عليها.

وافقه متولى, فانطلقا إلى حجرتيهما واجمين .. ورقد عم منصور على السرير المعدنى الصغير, وراح يدخن ومازال يفكر فى هذه الفتاة .. كيف ماتت .. وكيف عاشت ؟..

تخيل مصيبة أهلها لفقدها .. لو كانت ابنته هو لجُنّ حتماً ..لم تكن المسألة لجمالها الآخاذ البادى عليها, حتى وهى ميتة .. لكنها مسحة الرقة و الجاذبية الخفية التى تنبعث من ملامحها .. راهن أن عشاقها كانوا بالمئات .. لا يظن أن أحداً منهم كان

بالجسارة كى يقربها .. مثلها تستحق أن نتأملها من بعيد, خائفين أن نخدشها بنظراتنا, أو آهاتنا ودموعنا .. وغمغم بخفوت محاولاً إخراج نفسه من تأملاته الحزينة:

-لا إله إلا الله ..لله ما أعطى ..ولله ما أخذ ..

جلس متولى أمامه أمام السبرتاية يعد الشاى .. راقبه عم متولى ووجد نفسه في هذه اللحظة, يشعر بمقت هائل نحوه .. لولاه لظلت هذه في قبرها يسترها ويغطيها .. شعر أنه يجلس إلى أحد السفاحين الأقرب إلى الحيوانات منها للبشر .. وتعالى حنقه عليه, حتى تمنى لو مات متولي فى هذه اللحظة, ليقوم بنفسه بتحنيطه, وحقنه بالفورمالين, مثلما سيحدث معها بعد قليل ..

وأغمض عينيه, ووجد نفسه يتخيل كيف سيقوم بتقطيع متولي بالمنشار إلى أجزاء, حين يطلب الأطباء منه هذا .. لن يدع أحداً غيره يقوم بهذا .. سوف يقوم بالامر كله بنفسه .. هذا مخلوق طفيلى يستحق مصيراً كهذا, لا هذه الفتاة.

ولاحت على وجه عم منصور ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيه, وأحس بشيء من الراحة لخواطره تلك.

قدّم له متولى كوب الشاى الساخن, فتناوله بصمت, دون أن يشكره عليه .. أخذ يرشفه ببطء, وهو يفكر فى المهمه الثقيلة التى عليه أن يقوم بها بعد قليل مع جثة الفتاة .. حينئذ انقطع التيار الكهربائى فجأة فصاح متولى بسخط:

-ماهذا النحس ؟.. هذا ليس وقته أبداً..

قالها وأشعل عود ثقاب, قبل أن يشعل به مصباحاً زيتياً موضوعاً على طرف المنضدة التى أمامه .. كانوا يحتفظون بهذا المصباح لمثل هذه الأوقات التى تنقطع فيها الكهرباء, وقال متولى, وهو يعلق المصباح من حلقة معدنية فيه إلى مسمار على الحائط :

-لقد تأخرت على البيت ياعم منصور, ولا أريد أن تشعر زوجتى بالقلق لو تأخرت عليها أكثر من ذلك.

-لاداعى للقلق يارجل, ربما عادت الكهرباء بعد قليل .

قالها له عم منصور شاعراً بالراحة .. هذا سيؤجل الأمر بعض الوقت .. وجد نفسه يتمني ألا يعود التيار ثانيةً .. كأن هذا سينقذ جثة الفتاة من مصيرها, ولكن متولى هتف بحنق واعتراض:

-بهذه الصورة سأعود للبيت متأخراً .. إننى أكاد أموت إرهاقاً وتعباً, فأنا لم أنم منذ الأمس .. هذا ليس سعدى بلا شك.

-يمكنك أن تنام اليوم هاهنا معى بالحجرة لو تأخرت .. المكان يتسع لكلينا كما تعلم.

-وماذا عن زوجتى التى أخبرتها أنى سوف أعود إليها اليوم .. حتماً سيقتلها القلق من أجلى إن لم أعد إليها الآن.

كان محقاً فى خوفه .. ففى ذلك الوقت لم تكن التليفونات متاحةً إلا للقليلين, لهذا كان من المستحيل أن يُطمئن زوجته عليه, إلا بأن يعود بنفسه إلي بيته, لذا قال عم منصور بإستسلام:

-حسناً .. يمكنك أن تذهب إلى بيتك, وسأتولى أنا تجهيز الفتاة بنفسى حين تعود الكهرباء.

-وماذا لو لم تعد الكهرباء .. هل سنترك الجثة هكذا للصباح ؟.. أخشى أن تفسد الجثة, أو تتصاعد رائحتها .. فالجو هاهنا أكثر دفئاً من الخارج.

كان هذا شيئاً محتملاً .. إلا أن شيئاً بداخل عم منصور أشعره بأن هذا لن يحدث .. دعك من أن الفتاة ماتت بالفعل منذ الصباح, ولم يحدث لجثتها أى تلف بعد .. والطقس في هذه اللحظة ليس بالشديد الحرارة كما كان في النهار, لذا قال له مطمئناً:

-لا أظن أنها ستتحلل بهذه السرعة, لوتركناها هذه الليلة .. إنها مازالت بحالة جيدة, ولا أعتقد أنها سيضيرها أن تنتظر بضع ساعات أخرى حتى الصباح .. عد لبيتك ولاتقلق.

وانصرف متولى تاركاً عم منصور الذى راح يفكر مرة أخرى فى الفتاة التى لم تفارق خياله.

وظل النور مقطوعاً طوال الليل,ولهذا لم يجهزها, فانتظر الصباح, شاعراً بالراحة لتأجيل الأمر ..

(4)

-ماهذا ؟!

قالها الدكتور نعيم بدهشة, وهو يحدق إلى جثة الفتاة التى جلبها متولى بالأمس .. لاحظ عم منصور يده المرتعشة الممسكة بالسيجارة المشتعلة, وهو يتطلع لجثة الفتاة بتوتر, فأجابه بسرعة:

-إنها الجثة التى طلبت منا أن نحضرها, لقد جلبناها بالأمس.

-أعلم إنها الجثة التى طلبتها .. إننى أسأل كيف, ومن أين جئتم بها ؟..

قالها, دون ان يرفع عينيه عنها, وأجاب عم منصور:

-إن متولى هو من جلبها بالأمس, ولقد أتى بها كما أخبرنى من مقابر قرية مجاورة لقريته, بالمناسبة إنه يطلب ثلاثين جنيهاً ثمناً لها .. لقد أخبرته أنك سوف تدفع له .

-ليس هذا وقته يامنصور .. سأعطيه مايريده, لكن هل أخبرك متى توفيت هذه الفتاة بالضبط؟.

قالها, وهو يقلب الجثة برفق على جانبيها, وينظر الى جسدها متفقدا, ثم امتدت أصابعه لتتحسس نبضها؛ كأنما يريد أن يتأكد بنفسه أنها جثة حقيقية, وقال عم منصور, وهو يراقب مايفعله:

-يقول إنها ماتت صباح الجمعة ..

-هذا يعنى أنه قد مر على وفاتها أكثر من يوم .. إن هذا مستحيل .. لابد أنه قد أخطأ .. إننى لا أرى أى آثار للتحلل بها, ولاوجود للزرقة الرميّة أسفلها .. هذه الفتاة تبدو ,وكأنها قد ماتت منذ ساعة واحدة على الأكثر .. إنني أشعر بالدهشة.

كان عم منصور مازال تائهاً في حيرته فلم يرد عليه, بينما استمر الدكتور نعيم فى فحصها .. أمسك أناملها, وقربها إلى عينيه متأملاً أظفارها اللامعة, ثم أعادها لمكانها برفق, ثم فتح جفنيها فتضاعفت دهشته, وهو يقول :

-إن هذا غريب بحق .. إننى لم أشاهد فى حياتى جثة كهذه من قبل, من يراها يظن أنها فتاة نائمة .. لكن جسدها البارد ,ونبضها المفقود يشير إلى موتها ويؤكده.

غطاها بعد ذلك بغطائها البلاستيكى, وأخرج سيجارة من علبة سجائره, وأشعلها قبل أن يقول بشرود:

-احضر لى متولى هنا الأن .. أريد أن أعرف منه ما قصة هذه الجثة بالضبط, وكيف أتى بها ؟.

تحرك عم منصور لإحضار متولى, تاركاً إياه فى المشرحة أمام الجثة .. خمّن عم منصور أن بعقل الدكتور نعيم الأن الكثير من الأفكار والهواجس, التى روادته عن الفتاة بالأمس ..

وبعد دقيقة عاد ومتولى برفقته ..

أخرج الدكتور حافظته الجلديه الأنيقه, وأخرج منها بعض النقود, فعدها ثم مد يده بها نحو متولى, الذى التقتطها على الفور ودسها فى جيب بنطاله دون أن يعدها, وإن كان قد أحصاها بنظره

بصورة خاطفة طمأنته إلى أنها المبلغ الذى ينتظره .. وقال الدكتور نعيم بعدها:

- والأن أخبرنى هل كنت تعرف هذه الفتاة من قبل؟

-لا يا دكتور .. لم أكن أعرفها, لكنها من بلدة مجاورة لبلدتنا .. لقد أتيت بها من مقابر تلك القرية.

-إذا لا تعلم كيف ماتت ؟!

-هذا أيضا لا أعلمه يادكتور .. لكن لوشئت, فمن الممكن أن آتيك بقصتها عن طريق بعض الأصدقاء من بلدتها .

زفر الدكتور نعيم من فمه سحابة من الدخان, وهز رأسه للجانبين رافضاً الفكرة, وهو يتمتم:

-كلا .. كلا.. لاداعى لهذا .. هذا لايهم الآن .

ثم التفت إلى عم منصور, وقال وهو يهز كفه الممسك بعقب السيجارة الذى قارب على الزوال:

-عليك أن تبدأ الأن فى تجهيزها يامنصور, وسوف أرسل الدكتور شريف إلى هنا كى يساعدكم.

قالها, وألقى نظرة أخرى طويلة للجثة الراقدة أمامه تحت غطائها البلاستيكى الملئ بالبقع, وهز كتفيه بحركة مبهمة, ثم غادر المشرحة دون أن يعقب.

لم يشعر عم منصور بالراحة, وكره أن يكون هو من يقوم بإعداد جثة الفتاة هذه .. ولأول مرة يشعر بأنه لا يحب أن يقوم بعمله الذى اعتاد عليه منذ أكثر من عشرة أعوام..

لكنه كان عمله الذى عليه أن يقوم به, تنهد للحظة, ثم أزاح غطاءها البلاستيكى عنها, ورمقها بتوتر قبل أن يبدأ فى تهيئتها.

(5)

في هذا اليوم كان على عبد الدايم أن يبيت فى المشرحة, ففى تلك الأيام كان النظام المتبع, أن يبيت أحد عمال المشرحة فيها كل ليلة طالما هناك جثث بها .. لذا كان العمال يتناوبون المبيت فيها .. ظل هذا الأمر معمولاً به لسنوات طويلة, حتى انتهى الأمر بعم منصور إلى المكوث بالمشرحة بصورة دائمة, حينها انتهى نظام الدور مكتفين بوجود عم منصور..

كانت ليلة صيقية أخرى, وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً.. مازالت حرارة الجو مرتفعة, والرطوبة فى عنفوانها خانقة لاتمرح .. كان نهار ذلك اليوم شديد الحرارة, ويبدو أن هذا القيظ سيستمر هكذا طوال الليل..

خلع عبدالدايم جلبابه وصار بملابسه الداخلية .. أخد يدندن بعض الأغانى النوبية, وهو يُعد لنفسة كوباً آخراً من الشاى الثقيل .. انتهى منه, ثم خرج من المشرحة متجهاً نحو الحديقة الصغيرة الموجودة خلف المشرحة, متلمساً فى فضائها المفتوح بعض النسمات الباردة ..

بدت السماء حالكة السواد صافية, وتناثرت في أرجائها الكثير من النجوم دون أن يسطع قمرها .. إنه آخر يوم فى الشهر العربى فلا تنتظرن قمرا يافتى ..

وجلس عبدالدايم على كرسى خشبى جلبه من قلب المشرحه .. وضعه فى منتصف الحديقة, وأخذ يرشف الشاى الساخن باستمتاع وتلذذ , دون أن يلتفت إلى الناموس الصغير الذى يلسعه من حين لآخر .. هذه أشياءٌ اعتاد عليها مذ كان فى بلاده أسفل الشلال, فلم تعد تؤرقه أو تثير انتباهه..

غاب فى تأمل السماء الصافية, وهو يتذكر الليالى النوبية الحارة ,تذكر جلسات السمر الصيفيه الليلية حول الأخشاب المشتعلة التى كانوا يشوون الذرة الخضراء فى قلبها, وعادت لذاكرته الحكايات التى لاتنتهى عن الأجداد وبطولاتهم, وحكاياتهم عن القبائل الزنجية الهمجية القادمة من الجنوب, والتى طالما دارت بين قومه, وتلك القبائل المعارك العظيمة والتى كانت تنتهى فى الغالب بانتصار قومه, ودحر الغزاة مرة أخرى نحو الجنوب ..

لقد ولّت أيام البطولات الحقيقة الى الأبد ولم يعد باقيا إلا الشتات.

تذكر داره الطينية الصغيرة التى تلاشت هى وقريته كلها الآن؛ لأن بحيرة السد قد غمرت وأغرقت كل شيء خلفها .. لقد تم ترحيل أبناء النوبة إلى أماكن جديدة شمالاً .. لكن أى مكان, ومهما كان حلواً, لم يكن ليعوض أى منهم عن بلادهم السمراء الذهبية التى امتدت حكاياتها وجذورها لآلاف الأعوام.

استغرق حيناً فى تأملاته .. لكنه خرج منها حين لمح بطرف عينيه ظلا ما يتحرك خلف الباب الزجاجى للمشرحة.

نبض قلبه بقوة .. ودون أن يشعر حبس أنفاسه بترقب, وهو يتطلع إلى الظل البشرى الذى بدا واضحاً من انعكاسه من خلال الزجاج الداكن لباب المشرحة ..

كان ظلاً بشرى .. هذا مؤكد .. فى البداية فكر أنه قد يكون أحد حراس أمن الكلية الذين يأتون أحياناً الى المشرحة, كى يسألونه دخاناً أو سكراً, أو أى شيء آخر قد يكونون فى حاجة إليه .. لكنه أدرك أن هذا الاحتمال غير ممكن .. فهو يجلس قبالة الباب, ولو جاء أحد من الخارج لرآه أو سمع على الأقل صوت خطواته ..

إذن من يكون هذا؟ ومن أين جاء؟ وماذا يريد ؟..

كلها أسئلة حائرة تبحث عن إجابة ما ..

تحرك الظل فجأة للداخل, فجف ريقه توتراً .. إذاً فهناك شخص ما بالفعل فى المشرحة .. لم يكن يتوهم إذاً ..

لكن الشيء العجيب أن خطوات ذلك الشخص الغامض لم تصدر أى جلبة أوصوت .. كان بمفرده فى هذه البقعة من الكلية, يحيط به الصمت التام والسكون, الذى لايقطعه إلا بعض هسيس الحشرات , وبعض الأصوات البعيده للسيارات التى تمر عبر الطريق القائم خلف الكلية .. لذا فلو تحرك فأر صغير فى هذا المكان, فسيسمع صوت خطواته بالتاكيد ..

لكنه بالفعل لم يسمع شيئاً, فكيف يتحرك ذلك الظل بكل تلك الخفة والسكون ؟..

ظل فى مكانه للحظات لايدرى ماذا يفعل, قبل أن يقرر أن يدخل المشرحة ليرى من هناك ..

اتجة بخطوات مترددة نحو الداخل, ودلف الباب, وتطلع إلى الفناء الطويل والممتد أمامه حتى قاعة التشريح, والذى بدا خالياً مقبضاً تحت أضواء النيون البيضاء الباردة التى تنير المكان ..

كانت حجرته أول الحجرات التى قابلته .. دخلها وفحصها بعينيه بسرعة, لكنها كانت فارغة .. والتقط عصا خشبية غليظة بيديه,كسلاح له لو واجه أحد ما, وقرر أن يفتش المشرحة بأكملها ..

كانت الحجرة التالية هى الحجرة التى يتم إعداد الجثث بها .. المفترض أنها مغلقة بالمفتاح .. تأكد أنها كذلك, وقرر أن لاحاجة لفتحها وتفتيشها ..

اتجة بعد ذلك إلى قاعة المشرحة؛ حيث ترقد الجثث, وأضاءها فبدد الضوء الصادر من لمبات النيون ظلامها ووحشتها .. جالت عيناه القاعة الواسعة, والتى تناثرت فى أرجائها المناضد الرخامية المخصصة لوضع الجثث, كان بعضها يحوى جثثاً والباقى فارغاً ..

كان كل شيء فى مكانه .. أحصى الجثث بعينيه بسرعة .. كانوا خمسة .. تطلع إلى جوانب المكان بسرعة مرة أخرى .. لكن القاعة بدت بريئةً تماماً, كان من الصعب أن يختبئ أحد ما فى القاعة دون أن يراه..

كاد أن يعود أدراجه حين لاحظ شيئاً ما .. إحدى الجثث قد انحسر عنها غطاؤها .. توتر بعض الشيء .. إنه متأكد من أن جميع الجثث كانت مغطاة بغطائها البلاستيكى قبل قليل, فكيف صارت تلك الجثة عارية إذا ؟..

واتجة ببطء نحو الجثة كى يغطيها مرة أخرى ..

هنا أطلق صرخة مكتومة دون أن يملك كتمها ..

كانت جثة الفتاة الجديدة .. وكانت تحدق فيه بعيون لامعة مفتوحة باتسعاها .. عيون حية لا أثر للموت فيها !!.

وثب للخلف بفزع ,وهو يصرخ مستنجداً بالله .. وأخذ قلبة يتراقص بهلع فى قفصه الصدرى .. ما الذى يحدث هاهنا ؟

ظل متجمداً مكانه بإضطراب لايدرى ماذا عليه أن يفعل .. قبل أن يحزم أمره محاولاً تشجيع نفسه, وقال هامسا:

-لابد أن شيئا ما أدى إلى فتح عينيها هكذا .. ربما هى عضلات وجهها قد انقبضت لتيبسها, ففتحت الجفون المغلقة .. لاداعى للهلع يا عبد الدايم, ولا تكونن جباناً هكذا كالأطفال .. لقد رأيت مثل هذا مراراً ..

ومد يديه بعدها نحو الجثة متحاشياً النظر إليها, أعاد الغطاء البلاستيكى إلى موضعه مغطياً إياها, ثم عاد إلى حجرته دون أن يطفئ أضواء قاعة المشرحة كما كان يفعل فى العادة ..

أحكم إغلاق باب حجرته عليه, بل ووجد نفسه يضع كرسياً خلف الباب, ويحشره بإحكام بين الأرضية ومقبض الباب, صانعاً عائقاً بدائيا لمن يفكر فى فتح الباب أو اقتحامة من الخارج ..

لم يكن عبدالدايم من الجبناء .. فلا يستطيع أحد أن يدعى عليه شيئاً كهذا .. لكن هذه الحقيقة تنطبق على ما يعرفه ..لن يخاف من لص أو من رجل مهما بلغ من القوة, أو حتى ذئب أو حيوان مفترس ما..

لكنه هذه المرة كان مضطرباً خائفاً .. كان يخاف مما يجهله .. ووجد عقلة يستعيد مئات القصص عن الجان والعفاريت والنداهات وغيرها .. تلك الحكايات المخيفة التى طالما سمعها فى طفولته ببلاد النوبة .. فلم يشعر بالراحة..

حاول أن ينام .. لكن الوصول للنوم كان صعباً .. كانت أذناه يقظتين منتبهتين لأدنى صوت قد يصدر بالمشرحه .. لكن شيئاً لم

يحدث ,وبعد ساعة كاملة داعب النوم أجفانه ..ودون أن يشعر راح فى سبات عميق.

(6)

وقبل أن تبلغ عقارب الساعة الثالثة صباحاً استيقظ فجأة ..

كانت هناك خطوات خافتة تتردد فى الردهة بالخارج !!..

فى المعتاد لم يكن مرور قطار بجوار رأسه ليوقظه .. لكنه وجد نفسه مرة واحدة مستيقظاً .. ومرة أخرى تواثب قلبه فى قفصه الصدرى مضطرباً .. أرهف السمع .. كانت هناك بالفعل خطوات يسمعها تتردد بالخارج, فشعر بالهلع..

كان قد أغلق باب المشرحة من الداخل قبل أن ينام .. وقد فتش المشرحة جيداً قبلها .. فمن يتحرك بالخارج إذا, وكيف دخل الى المشرحة ؟!..

أيكون جاناً أم عفريتاً لأحد الجثث ؟.. كان خاطراً مرعباً .. وتذكر أن المشرحة تحوى الآن جثتين لشخصين قد أعدما شنقا, ورفضت أسرتاهما أن تتسلمهما .. هل يكون هذا أحد عفاريتهم ؟..

أراد أن يهتف من هناك ؟.. لكن صوتاً لم يخرج من حنجرته.. كان حلقه جافاً بشدة كرمال الصحراء فى ظهيرة الصيف, فاكتفى بالنظر إلى الباب, دون أن يتحرك كاتماً أنفاسه بقوة, كأنما يخشى أن يدرك من بالخارج وجوده من صوت أنفاسه ..

استمرت الخطوات فى التردد خارج الحجرة لفترة طالت, حتى ظنّ أنها لن تتوقف, قبل أن تتوقف فجأة .. راح يتنفس ببطء

شديد مترقباً أن تعود الخطوات الثقيلة مرة أخرى .. ومضى الوقت بطيئاً دون أن يتناهى لمسامعه أى صوت ..

هل ابتعد هذا الشيء ؟.. تمنى هذا, وهو يرتل فى سره ماتسعفه به ذاكرته من آيات القرآن الكريم .. ولما طال الصمت غادر الفراش ببطء, سائراً على أطراف أصابعه كى لا يحدث صوتاً, واتجه ببطء نحو باب الحجرة, وانتظر لفترة متجمداً بجواره ,ولما اطمئن إلى استمرار الصمت اقترب من الباب بأذنه وألصقها به ..

حينئذ وفى نفس اللحظة كان هناك صوت احتكاك بالباب من الخارج, كان الصوت يشبه صوت الخربشات التى تحدثها الأظافر على الخشب .. بعدها بدأت كف قوية تضرب الباب, كأنما هناك من يحاول أن يخترق الباب الخشبى, وتعالى فى نفس الوقت صوت حلقى مفزع, فى الردهة بالخارج, ذكره بالأصوات التى يصدرها الصم والبكم.

ارتد بعنف للخلف على الفور وعيناه لاتغادر الباب المغلق, وأطلق صرخة عالية دون أن يشعر .. هذه المرة أفلتت دموعه, وثارت هواجسه, وصاح بفزع :

-من هناك بالخارج ؟!. من هناك ؟.. تحدث أرجوك .. من الذى يتحرك؟..

زاده رعباً أن تحرك مقبض الباب ببطء, كأنما يريد الموجود بالخارج أن يفتحه ..

اندفع نحو المقبض النحاسى, وتصلبت أصابعه عليه محاولا منعه من الدوران .. فى الواقع لم يكن فى حاجة لهذا,ف الباب مغلق

بإحكام بواسطة المقعد المثبت به .. لكن الرعب لم يترك فى عقله أى منطق للتفكير .. وظل يصرخ بلهجة نوبية مذعورة:

-ابتعد من هنا أرجوك .. بالله عليك ارحل .. ابتعد .. ابتعد.

ومرت اللحظات بطئية ثقيلة, حتى ظن أنها الدهر كله, ثم هدأ كل شيء فجاة .. لم يعد هناك صوت الخربشات على الباب, ولا الصوت الحلقى المخيف .. توقف صوت الخطوات,لكنه مع ذلك ظل ممسكاً بالمزلاج بكلتا يديه بإصرار وقوة, وهو يرفع صوته بآية الكرسى التى يتلوها ,ويكررها عسى أن تدفع عنه شر من بالخارج..

طال الصمت والسكون؛ فاطمئن قليلاً, ولم يعد يسمع إلا صوت أنفاسه اللاهثة, ابتعد عن الباب بحذر, وعاد بخطوات مرتجفة إلى الفراش وألقى بجسده عليه باعياء ..

رنت عيناه الى ساعة الحائط .. كانت تعلن الثالثة والنصف صباحاً .. مضت نصف الساعة منذ بدأ الرعب, ومازال أمامه أربع ساعات أخرى, على الأقل قبل أن يأتى أحد زملائه فى الصباح إليه .. وقرر أنه لن يغادر مكمنه هذا حتى الصباح مهما حدث ..

شعر بحاجة ماسة للتبول لكنه كتمها بأقصى مايمكنه .. لن يخرج حتى لو بال على نفسه .. وببطء راح يراقب عقارب الساعة التى راحت تتحرك ببطء شديد أمام عينيه المكدودتين ..

(7)

لم يدر كيف ولا متى نام ,ولكنه استيقظ على طرقات صاخبة دوت فى عقله كقرع طبول همجية فى أحراش السافانا الإفريقية ..

فى البداية ظن أن الشيء بالخارج قد عاد, فاختلج قلبه .. لكنه انتبه بعدها إلى صوت جمال الذى كان يصرخ منادياً باسمه .. انتقلت عيناه إلى النافذة الصغيرة أعلى الفراش, فلاحظ ضوء النهار المتسلل إلى الحجرة من خلالها, فأسرع إلى باب الحجرة ليفتحه.

أزاح الكرسى المثبت إلى مقبض الباب, ثم اتجه إلى باب المشرحة الخارجى وفتحه .. لكنه قبل أن يفعل, أرسل بصره إلى الردهة الطويلة, فاطمأن أن لا أحد هناك..

فتح الباب فوجد أمامه جمال ببدانته وعرقه الغارق فيه دائماً واقفاً يحمل إفطاره المكون من شطائر ملفوفة بورق الجرائد ..

وما إن رآه الأخير حتى صاح فيه بغضب مصطنع, وهو يدفعه جانباً ليدخل:

-أين كنت كل هذا أيها الصعيدى الكسول .. إننى أطرق الباب منذ زمن حتى انقطعت أنفاسى ..ظننت أنك قد مت بالداخل..

فى العادة كان عبدالدايم يحتج عليه ويخبره أن ليس صعيديا .. إنه نوبى, لكنه هذه المرة لم يهتم وقال له وهو يدعك عينيه المرهقتين بكلتا يديه :

-كنت نائماً, ولم أسمع صوت الطرقات إلا الآن ..

-كل هذه الطرقات لم تسمعها .. أنت تمزح حقا يارجل .. لقد ظللت أطرق الباب حتى خشيت أن يستقيظ الموتى بالداخل, وأن أجد أحدهم هو من يفتح لى الباب محتجا على إيقاذه .

لم يعقب عبدالدايم, واتجه جمال إلى حجرتهم ليتناول الإفطار مع الشاى .. هذه هى الطقوس اليومية له, والتى يحرص على ألا يكسرها منذ عمله بالمشرحة, ولهذا اعتاد أن ياتى كل يوم للعمل قبل موعده بقليل,كى يتناول إفطاره بهدوء, دون أن يطالبه أحد ما بأى عمل ..

فتح لفافات الشطائر داعياً عبدالدايم الى مشاركته الإفطار .. لكن الآخير كان قد فقد شهيته للطعام, فأزاح جانباً اللفافة التى ناوله إياها جمال, دون أن يقربها.

تساءل جمال بدهشة, وهو يلاحظ مافعله باللفافة ,إن كان مريضاً إلا أنه أسرع مجيباً :

-إننى أشعر ببعض الصداع .. لكنه حتماً سيزول بعد قليل, لا تقلق بشأنى.

وتذكر مثانته الممتئلة عن آخرها والتى يمسكها بالكاد, فراحت تصرخ فيه محتجة ومنذرة بالفيضان القادم, فأسرع إلى الحمام ..

وحين عاد كان هناك عم منصور, الذى جلس على طرف الفراش وتناول هو الآخر شطيرة من جمال, وأخذ يأكلها بشهية .. حياه وجلس بجواره صامتاً, شارداً..

لاحظ عم منصور توتره وشحوب وجهه, فسأله عما به, فأجابه نفس الإجابة المبهمة التى أجابها لجمال .. كان جمال قد انتهى من إفطارة فحمل إناء الشاى, واتجة به للخارج ليغسله ويملأه بالماء, راقبه عبدالدايم حتى اختفى,ثم انحنى نحو عم منصور, وقال هامساً :

-هناك ما أريد أن أخبرك به ياعم منصور.

دارت رأس عم منصور ناحيته, ورمقه بعين أزدادت جحوظا من الدهشة, متفحصاً, وهو يبتلع ماتبقى من شطيرته, ثم قال باهتمام:

-هل حدث لك مكروه ما يا ولد ؟

-ليس أمام جمال .. دعنا نتحدث بالداخل.

قالها عبدالدايم, وعيناه ترقبان باب الحجرة, فتطلع إليه عم منصور بشيء من الدهشة, وإن لم يعقب حين تعالى صوت جمال القادم نحوهم .. فصاح عم منصور به, وهو ينهض :

- اهتم أنت بالشاى ياجمال؛ ريثما أحضر بعض الأشياء من الداخل.

قالها والتفت الى عبدالدايم ,وسحبه ببساطة من يديه قائلاً :

-تعال معى لتساعدنى ياعبدالدايم.

واتجها بخطوات سريعة إلى داخل المشرحة .. واسترق عبدالدايم النظر إلى جثة الفتاة, متوقعاً ألا يجد غطاءها عليها كما حدث بالأمس, لكن الجثة كانت تحت غطائها ساكنة بريئة .. توقفا عند حجرة صغيرة تلى قاعة المشرحة, حيث اعتادوا أن يحفظوا بعض أجزاء الجثث بداخلها .. كانت رائحة الفورمالين بها عنيفة للغاية, الا أنهما كانا قد اعتادا عليها فلم يهتما, والتفت عم منصور إلى عبد الدايم قائلاً :

-والآن أخبرنى ماذا بك؟ أرى أنك لست على مايرام اليوم .. ما الذى هناك ياولد ؟..

ازدرد عبدالدايم لعابه ببطء, وصمت للحظة كأنما يدير الأمر بعقله .. وعينا عم منصور ترقبه, قبل أن يقص عليه ماحدث له بالأمس .

نظر إليه عم منصور بذهول .. كان ما يسمعه الآن لم يحدث بالمشرحة من قبل .. كان قد أمضى عشرة أعوام بالمشرحة, رأى خلالها الكثير من الأشياء الغريبة, ولكن كانت هذه أول مرة يحدث فيها أن يهاجم شيء ما أو شخص ما أحداً بالمشرحة ليلاً ..

طال صمته وشروده, فقال عبدالدايم متوتراً, وهو يتطلع الى عينيه الجاحظتين, والتى انعكست عليهما الحيرة :

-ألا تصدقنى ياعم منصور .. أقسم بالله أننى لا أكذب, وأن ما قصصته قد ....

هنا قاطعه عم منصور بسرعة, وهو يلوح بكفه الضخم فى الهواء, مانعاً إياه من من إكمال قسمه :

-بالطبع أصدقك ياولد .. لو كنت متولى لظننت أنها تمثيلية يقصها لهدف ما .. ولو كان جمال لظننت أن هذا تأثير الحشيش الذى يتناوله, أما أنت فإنني أثق بك, وبما تقوله, وما دمت قد رأيت هذا, فلابد أنه قد حدث فعلاً, وهذا ما يحيرنى ويقلقنى.

وتنهد عبدالدايم بارتياح, فقد خشى ألايصدقه عم منصور, أو أن يتهمه باختلاق هذه الأحداث, أو توهمها على الأقل, ولهذا فقد أحجم أن يقص ماحدث له لجمال .. كان يريد أن يحكى لعم منصور أولاً؛ لأنه توقع أن يصدقه, وقد صدق تخمينه فلم يكذبه الرجل .. ولأنه يرغب فى رأيه.

وانتبه إلى عم منصور الذى قال له, وهو يشعل سيجارة بعصبية:

-إن ماتقوله خطير ومحيّر ..أنت بقولك هذا تعنى أن أحداً ما قد هاجمك بداخل المشرحه .. وأنت أيضاً تجزم أنك قد فتشت المشرحة , ولم تجد بها أحد ما قبل أن تنام .. إذاً فمن الذى هاجمك ؟..وكيف دخل إلى المشرحة المغلقة ؟.. وماذا كان يريد منك ؟.. إن ما حدث لك بالأمس لم يحدوث هاهنا من قبل !..

غمغم عبدالدايم بحيرة وقلق:

-أنا لا أعلم ما الذى واجهته بالضبط .. لقد بدا ظله من خلف الباب بشرياً تماماً .. لكننى فتشت المشرحة بأكملها فلم أجد أحداً بها .. لقد كدت أموت فزعاً, حين هاجم ذلك الشيء حجرتنا في منتصف الليل .. إنه لم يتكلم, وظل يصدر تلك الأصوات المخيفة, التى أرعبتنى حتى الموت, وهو يحاول اقتحام الحجرة .. لقد انتظرتك؛ لأننى ظننت أنك ربما تملك تفسيراً ما لما حدث معى.

ضحك عم منصور ضحكةً متوترةً, وهز يده الممسكة بالسيجارة المشتعلة لينفض منها بعض الرماد وأجاب :

-ولماذا تظن أننى أملك تفسيراً ما .. إننى لاأرغب فى إخافتك, لكن ماتقوله يوحى بأفعال (بسم الله الرحمن الرحيم) الجان والعفاريت .

ارتجف عبدالدايم على الفور، حين ذكر الجان, فقام هو الآخر بالبسملة, وهمس بخفوت, ودقات قلبه تدق بعنف, وبلا إنقطاع:

-هل تظن حقاً أن من هاجمنى بالأمس قد يكون جاناً أو عفريتاً .. رحماك ياالله .. لقد بدأت أشعر بالرعب من المشرحة .. علينا أن نفعل شيئاً ما, لنعرف مايحدث هاهنا .. ألن نفعل ياعم منصور ؟..

-وماذا تقترح أن نفعل ؟!.. لاشيء يمكننا أن نفعله الأن, فلو قصصنا الامر على أحد ما فلن يصدقنا .. لذا عليك أن تلزم الصمت, ولا تخبر جمال أو متولى بما شاهدته .. فى الغالب قد تأتى هذه الأشياء وتنتهى فجأة .. فقط لا داعى لأن تثير الفزع بإخبار الجميع .. فطالما لم يقع أى ضرر أو مكروة لك, فمن الأفضل أن نحتفظ بماحدث داخل صدورنا, وأن ندعو الله ألايتكرر الأمر ثانية.

ثم ألقى بعقب سيجارته التى أنهاها على الأرض وسحقها بحذائه العتيق بقوة, كأنما يسحق معها هواجسه, ثم رفع رأسه نحو عبدالدايم, ووضع كفه الضخم على كتفه ,وقال باشفاق :

- أرى أن عليك أن تستريح اليوم من العمل .. عد للبيت وأخلد للنوم فوراً, وحاول أن تنسى ماحدث, وفى الصباح سيكون كل شيء على مايرام إن شاء الله .

شعر عبدالدايم بالامتنان له مرة أخرى .. كان عم منصور فى عمر أبيه الراحل تقريباً, ومنذ عمل عبدالدايم بالمشرحة, راح يعامل عم منصور كأب له, والأخير يعامله كابن له .. ومع توالى الأيام نمت تلك العاطفة بينهما وتأججت .. وكل مرة يختبر فيها تلك العاطفة يتأكد من وجودها.

وهاهو الأن يشعر بتلك العاطفة الأبوية المريحة, وهو يرى النظرات المشفقة فى عينى عم منصور, التى يرمقه بها .. تمنى أن يحتضنه, وأن يخبره بما فى قلبه .. لكنه لم يفعل .. فقط اكتفى بنظرات الامتنان وشكره, ثم انصرف, تاركاً عم منصور يقلب أفكاره, مفكراً فى ماحدث .

(8)

وفى المساء اتجه جمال للمشرحة كى يبيت فيها .. كان هذا من أيام الأسبوع الممتعة له .. اليوم لن يكون مضطراً لأن يمكث طوال الليل بجوار جمالات زوجته ..

ويا لها من ليلة سعيدة إذا تستحق الإحتفال بها!

كان أحمقاً غبيا حين تزوجها, هكذا إعتاد أن يتحدث عن نفسه .. وهاهو يدفع فى كل يوم ثمن حماقته تلك طوال ثمانية أعوام؛ هى عمر زواجه بها ..

قبل زواجه سمع الكثير عن الزواج ومتاعبه ومشاكله, وتبارى رفاقة الذين صارت المقهى ملجأهم الدائم بعد العمل. هرباً من الزوجة والعيال فى قص الحكاياتوالأهوال التى لاقوها فى زواجهم .. كانوا يتحدثون إليه عن الحجيم الذى بانتظارهم دوماً بالبيت, لكنه لم يصدقهم حينها أبداً, ليس لأنه أريب .. لكن لأنه حمار, وبإذنين طويلتين .. فهكذا كان يرى نفسه.

كان يرى أنهم يبالغون فى قصصهم هذا حتماً .. وكان يعجب من قولهم أن الزواج لاتستمر حلاوته أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر , إلى أن تبدأ بطن الزوجة فى الاستدارة, معلنةً عمن ينمو بداخلها .. حينها تنتهى حلاوته ولذته, لتبدأ متاعبه ومعاناته ..

فهناك الحمل, وما أدراك كيف تتعامل النساء معه كأعجوبة تستحق الكثير من الاهتمام والرعاية من الزوج .. ستبدأ زيارات لاتنتهى للأطباء, حيث تضطر فيها لانتظار دورك أحياناً لساعات طويلة .. وهناك أتعاب الطبيب, والوصفة الطبيبة التى تلتهم فى

كل مرة جزءاً لابأس به من راتبك .. عليك أيها الرجل الصغير أن تحتمل كل هذا صابراً آملاً , أن ينتهى كل هذا الهراء بعد الولادة ..

كانوا يبالغون بلاشك ويهزلون .. هكذا كان يحدث نفسه, ومازالوا يحدثونه عن متاعبهم بعد ولادة الأطفال .. كانوا يقولون له بعد أن تسبح عقولهم فى كون آخر, بفعل الحشيش والدخان والبيرة أحيانا ..

-ستدرك يا جمال كم كنت مغفلاً حين ظننت أن الولادة ستكون هى النهاية .. فبعد الولادة صار عليك أن تتوارى .. فقد جاء من سيصير جل اهتمام زوجتك للأبد .. وستتحول أنت بعدها لأبي العيال, وهذا ليس تشريفاً لو كنت حصيفاً .. بل يعنى أن تعمل وتعمل كالحمار بلاتوقف؛ كى توفر لهم مايحتاجونه .. ومايحتاجونه لاينتهى أبداً.

عليك أن تتنازل عن رفاهيات كثيرة اعتدت عليها؛ لأن البيت صار أولى بكل قرش في جيبك .. ولا تنتظر فى المقابل أن توليك زوجتك اهتماماً خاصاً؛ تقديرا لما تقدمه, وماتنازلت عنه .. فالإسطوانة موجودة تجيد أبجدياتها كل النساء .. ستنكد عليك حياتك, وستندب حظها لزواجها ممن لايرحم .. ستصرخ دوماً فى وجهك:(إنت عليّ والعيال) .. طبعاً مع الوقت ستتعود على كل هذا, وستتعلم الهروب .. ولن تعدم حينها مقهى ما, تجلس فيها كغيرك هرباً من هذا الجحيم ..

صورة قاتمة بها الكثير من السوداوية .. هكذا كان جمال يفكر قبل أن يتزوج في ما يسمعه ممن سبقوه بالزواج .. لم يذكر أحدهم أبداً الزوجة التى تجيد الطهى ..

الطعام !!.. العشق الأول والأخير لقلبه! ..

فقط أريدها تجيد الطهى .. وحينها ستكون الحياة مبهجةً بحق ..

وحين خطب جمالات كان الكثيرون يتحدثون عن براعتها فى الطهى .. كانت أكذوبة استطاعت أمها نشرها فى محيطها لإقناع أحد المغفلين, بأن يدق باب بيتها لخطبة ابنتها جمالات .. وكان جمال ذلك المغفل كما يحلو له أن يقول عن نفسه .. بالطبع وبعد الزواج اكتشف أن أطنان الطعام الشهى, التى التهمها أثناء الخطوبة ؛والتى زعمت حماته أن جمالات هى من قامت بإعدادها, كانت حماته هى التى تطهوه فى الواقع..

إكتشف أن جمالات لاتجيد الطهى على الإطلاق, ولانفس لها فى الطعام .. والأكثر إبهاجاً أنها كانت من هواة النكد طوال الوقت, وكانت كذلك سليطة اللسان, ولاتتورع عن سبه أمام الجميع .. كانت زوجة تفوح بالبهجة بحق !.. ويالها من بهجة !..

وكان من الممكن أن يطلقها لولا الأولاد .. فقد كانت كالعاده قد أجادت اللعبة الأزلية لجميع السيدات, فقيدته بها بأن أنجبت منه أربعة أطفال فى أربعة أعوام متتالية .. هكذا صار الانفصال عنها مستحيلاً ، وتحول أضحى المقعد الذى اتخذه فى أحد زوايا المقهى بأول الشارع الذى يقطن فيه, حلاً لا بأس به للهروب منها, ومن سلاطة لسانها ..

كان يظل بالمقهى كل يوم حتى بعد منتصف الليل, إلى أن يطمئن أنها قد نامت, فيعود الى البيت, ليرقد بجوارها فى صمت؛ سائلا الله ألا يوقظها شيء .. ويظل يرقب شخيرها وتنفسها الثقيل مفكرا إن كان عليه أن يضع على وجها وسادة ما, ويجلس

فوقهاليرتاح منها .. كانت أفكاراً , لكنها ممتعة .. وتمنى لو كان أقل جبنا ليتمكن من تنفذيها.

لهذا كانت الأيام التى يبيت فيها بالمشرحة من الأيام التى يحبها .. إنها بضع ساعات من الليل, لايفعل فيها غير النوموالأكل, ليتسلم فى المقابل أجراً لابأس به آخر الشهر .. كان هذا مريحاً.

وكان يعد نفسه لهذا اليوم .. يحضر معه الكثير من الطعام, وكذلك الراديو الصغير الذى يجلبه من البيت ليؤنسه .. ولابأس أحيانا بقرش حشيش أو زجاجة من البيرة .. أشياء لن يعلم بها أحد, لأنه يخفى آثارها فى الصباح قبل أن يأتى الجميع,لكنها تؤنس وحدته ..

فى هذه الليلة تناول عشاءه, وأعد بعدها كوباً من الشاى, ولف سيجارة محشوة بالحشيش, ثم خرج بعدها الى الباحة الخلفية للمشرحة حيث الحديقة الصغيرة .. وحرص قبل خروجه على رفع صوت المذياع حتى يصل إلى مسامعه .. جلس على الكرسى الخشبى , وراح يرشف الشاى, والسيجارة معا باستمتاع, وهو يتأمل السماء المظلمة من فوقه بنجومها اللامعة, شاعراً برضا شديد عن نفسه ..

وتعالى صوت أم كلثوم فى المذياع :

"ياحبيبى ..الليل وسماه ونجومه وقمر..قمره وسهره ..وأنت وأنا ..ياحبيبى أنا ..ياحياتى أنا ..كلنا فى الحب سوا ..والهوا ..آه منه الهوا ..سهران الهوا ..يسقينا الهنا"

شعر بانتشاء يدغدغ مشاعره؛ كأنما تغنى الست الآن من أجله هو , وصاح بجذل :

-الله .. الله عليك ياست ..

الحياة أحياناً تكون جميلةً بحق .. من قال غير هذا ؟! .. هكذا فكر.

وحانت منه بعد حين التفاتة نحو باب المشرحة, فرأى أن هناك من يقف خلفه متواريا خلف الزجاج الملون ..

ظل بشرى واضح من خلف الباب الزجاجى !..

تدلى فكه الأسفل فى بلاهة, واختلج قلبه .. أغمض عينيه للحظة , ودعكهما بشدة, ولما فتحهما اختفى ذلك الظل الغريب .. ومرت دقائق ثقيلة من الترقب قبل أن يسكن اضطرابه, وراح يفكر .. إنه تأثير الحشيش الذى شربه الأن .. لاشك فى هذا .. إنه الحشيش بلاريب !..

وأخذ يختلس النظرات إلى الباب بشك من حين لآخر, لكنه لم يلحظ أى شيء غير طبيعى .. وبعد قليل تناسى الأمر باعتباره أوهام اختلقها عقله بتأثير الحشيش .. ومرة أخرى تعالى صوته مردداً خلف أم كلثوم:

"ياحبيبى .. يلا نعيش فى عيون الليل .. ونقول للشمس .. تعالى تعالى .. بعد سنة .. مش قبل سنة .. دى ليلة حب حلوة .. بألف ليلة وليلة.."

هنا شعر بالحاجة لقضاء الحاجة, فقام بتثاقل متجهاً للحمام.

وحين دخل المشرحة لاحظ أن قاعة التشريح صارت مضاءة .. لا يذكر أنه دخل هناك, أو أنه أضاء مصابيحها .. لكنه طرح هذا

جانباً, ودلف إلى الحمام حيث قضي حاجته .. وعندما خرج اتجة إلى القاعة ليغلق النور .. لكنه قبل أن يفعل تطلع لحظة إلى الجثث الراقدة على مناضدها ..

كانت إحدى هذه الجثث دون غطاء .. واتجه إليها ببطء دون أن يعير الأمر اهتماماً .. ربما عمل أحد الأطباء عليها, ونسى تغطيتها .. وحين وصل إلى الجثة وجدها جثة الفتاة وهي ترمقه بعينين, متسعتين براقتين, ورأى بسمة ما ترتسم على شفتيها, بدت وكأن الحياة قد عادت لها, وإنها قد تصرخ فى وجهه بعد قليل ..

اضطرب قلبه بشدة, وغامت الدنيا فى عينيه , وترنحت قدماه, حتى كاد أن يسقط, فأمسك بسرعة بقائم حديدى, بجواره كى لايقع ..

لايجب أن يفقد الوعى الآن .. هكذا حدّث نفسه .. يجب ان اخرج من هنا ..

وغادر المشرحة مترنحاً, دون أن يلتفت إلي جثة الفتاة مرة أخرى, أو يغطيها .. وما إن وصل إلى حجرته حتى غير مؤشر الراديو الصغير إلى إذاعة القرآن الكريم, وتعالى صوت الشيخ المنشاوى بآيات كان يتلوها من صورة البقرة, وبعد حين هدأ روعه قليلاً..

استلقى بعدها على الفراش, دون أن يفارقه اضطرابه, ودون أن تختفى من خياله عينا الفتاة البراقتين وبسمتها المخيفه .. إنها ميتة ولابد أنه يتوهم ما رآه .. وراح يحاول أن يقنع عقله بهذا.

دوما تشعره هذه الجثة منذ رآها أول مرة بالتوتر .. وكان يشعر بخوف مبهم حين ينظر إليها, أو يسير بجوارها .. لم يدر سر هذا, وإن لم يبح بهذا لأحد .. حاول أن يتشاغل بشيءآخر , كى لا يفكر بالعينين اللتين كانتا تحدقان فيه بثبات, لكنه فشل ..

لكنه بعد حين شعر بخدر لذيذ يغزو عقله تدريجياً , ورويداً رويداً غلبه النعاس, فنام وتعالى شخيره صاخباً.و

فى الثالثة صباحاً وجد نفسه مستيقظاً منتبهاً, ونيران هائلة تستعر في أحشائه .. كان العرق الغزير يحتشد الأن على جسده, حتى كاد أن يغرقه, وكانت أنفاسه مضطربة لاهثة ..

وكان هناك من يطرق الباب !

كان أبلهاً بالتاكيد .. لأنه فعل أشياءً كثيرةً شديدة الحماقة فى الواقع.

أولها- أنه نسى حذره .. فحين تكون بمفردك فى المشرحة, وتعلم أنه لا أحد غيرك بها, ثم تسمع طرقات بعد منتصف الليل بباب حجرتك الداخلى, فعليك حينها أن تتوتر أو تفزع, أو حتى تتريث قبل أن تقدم على فعل أى شيء .. لكنه لم يفعل أى من تلك الخيارات ..

ثانيا -عندما تشم هذه الرائحة العطرية المثيرة, تفوح بشدة من خلال الباب, وتملأ فتحتى أنفك متسللة بيسر نحو عقلك لتخدره, فعليك أن تنتبه .. إن هذا عطر أنثوي مثير, لو كان يفهم فى الروائح الأنثوية ..

لكنه لم يكن يفهم فيها كثيراً, فزوجته جمالات حين ترغب فى التعطر من أجله, كانت تصب على جسدها الكيروسين أو الخل .. فمن أين له أن يميّز الفارق ..

ثالثا -وحين تسأل عن من يطرق الباب, دون أن يكون الجواب أكثر من همهمات الغامضة, وأصوات خافتة غير مفهومة, فعليك أن تكون أكثر حيطةً وتعقلاً, ولاتفتح الباب أبداً, إلا بعد أن تطمئن وتعلم من الطارق ..

لكنه لم يفعل شيء مما سبق, وكان أرعنا, ففتح الباب بلاتفكير ..

وبالتأكيد لم يدر ماحدث له بعد ذلك .. وآخر ماشعر به كان العطر الأنثوى القوى .. وبعدها لا شيء ..

(9)

بالطبع ماحدث بعدها كان عجيباً .. فى الصباح كان عبدالدايم أول من وصل, ليجد أن باب المشرحة مغلقاً من الداخل .. نادى جمال فلم يرد عليه .. تذكر ماحدث له بالأمس فتداعت آلاف الأفكار السوداء أمام عينيه, فأخذ يطرق باب المشرحة بعنف وتوتر .. لكن دون مجيب .. تسمر بمكانه , ولم يدر ماذا يفعل ؟.. هل يكسر الباب ؟!..

لكنه خشى أن يكون نوم جمال الثقيل, والذى اشتهر به, هو مايمنعه من فتح الباب, حينها سيكون كسر الباب ضربا من الحماقة, ولن تجدى تبريراته حينها ..

لكن الاحتمال الآخر المخيف, أن يكون مكروهاً ما قد حدث لجمال بالداخل .. وربما كان فى حاجة للمساعدة الآن ..

كان عليه أن يفعل شيئاً ما .. عليه ان يفكر بسرعة, ويقرر ما ينبغى عليه فعله ..

لم يصل عقله لقرار .. لذا استمر فى طرق الباب بضربات قوية للغاية , وارتفع صوته عالياً منادياً جمال عسى أن يجيبه ويستيقظ لو كان نائماً .. وما من مجيب لندائه ..

ومضى بعض الوقت وأتى متولى, الذى بادر بتعجب وصوت الطرقات تدوى صاخبة فى ممرات الكلية الفارغة من الطلاب فى تلك الساعات المبكرة من الصباح :

-لماذا تصرخ وتطرق الباب هكذا ؟.. إننى أسمع طرقاتك وصراخك هذا منذ دخلت من باب الكلية حتى هنا .. ماذا حدث يا رجل؟..

- جمال بالداخل ولا يرد .. أخشى أن يكون مكروهاً ما قد أصابه.

-وماذا في هذا ؟.. ربما كان يغط فى نومه العميق كعادته, وربما شرب الكثير من الحشيش بالأمس .. أنت تعلم أنه يتناول هذه الأشياء اللعينة, وربما أسكرته وسلبته وعيه .. إنه خرتيت لن يؤذيه أى شيء فلا تقلق .. هيا إبتعد عن الباب, ودعنى أجرب حظى ..

قالها, والتفت إلى الباب بعد أن تنحى عبدالدايم جانبا, وأخذ يطرقه بقوة, ويصيح بأعلى صوته على جمال منادياً, لكنه لم يكن أكثر حظا من رفيقه, فلم يجيبه غير الصمت, وقال عبدالدايم متوتراً بعد دقائق:

-أرى أن نكسر الباب الأن .. إن هذا كثير , ولابد أن مكروهاً ما قد أصابه بالداخل .. مستحيل أن يظل نائماً بعد كل هذه الضوضاء التى قمنا بها ..

ورفض متولى إقتراحه بلا تفكير, و قال معترضاً على الفور :

-إياك أن تفعل .. ربما سبب لنا هذا بعض المشاكل مع رئيس القسم , أنت تدرى كم هو عنيف وعصبى, ولسنا بحاجة لمواجهته .. أرى أن ننتظر قليلاً, ونفكر فى حل آخر .

ولم يكد يقولها, حتى ظهر عم منصور قادماً من بعيد, يسبقه دخان سيجارته .. حياهم, وهو يرمقهم بدهشة, وقال متعجبا:

-لماذا تقفون هكذا ؟..هل حدث شئ ما؟..

وأجابه متولى بسرعة, وهو يشير لباب المشرحة:

-إن جمال بالداخل, و لايستجيب لندائنا ولا لطرقنا على الباب .. يبدو أنه قد أفرط فى شرب الحشيش بالأمس .. لابد أنه قد فعل هذا.

هنا تبادل عم منصور مع عبدالدايم نظرة قلقة ذات معنى, وقد تبادر إلى ذهنه ماحدث لعبدالدايم بالأمس, فأخذ يطرق هو الآخر الباب بشدة, منادياً على جمال فى نفس الوقت, ولكن مرة أخرى أجابه الصمت ..

فى النهاية توقف يائساً, والتفت إليهما, وقال بتوتر:

-إنه بالفعل لايرد, أيكون مكروهاً ما قد أصابه ؟.. ماذا تقترحون أن نفعل ؟.. هيا أخبرونى !.

-أرى أن نحطم الباب .. هذا هو الحل الوحيد.

أجابه عبدالدايم .. وفكر للحظة ثم وافقه مغمغاً:

-يبدو أنه لامفر من القيام بهذا ..دعونا نفعل.

إلا أن متولى أسرع مرة أخرى يقول معترضاً:

-أرى ألّا نتسرع فى فعل ما, وأن ننتظر قدوم أحد الأطباء من القسم ليقرر هو ماعلينا أن نقوم به, حتى لاتكون هناك مشكلة ما مع الدكتور نعيم.

-يا أحمق إن جمال بالداخل لا يرد, ولا ندرى ما أصابه, وأنت تطالبنا ألا نفعل شيئا, فقط لأنك تخشى الدكتور نعيم .. اصمت بالله عليك وإبتلع لسانك, وإلا حطمت رأسك قبل الباب, سوف نفتح هذا الباب اللعين مهما كانت العواقب.

قالها عم منصور بحزم وتوتر وبصره معلق بالباب المغلق .. وفجأة قال عبدالدايم, وحل ما يرتسم فى مخيلته:

-نافذة الحمام الخلفية.

التفت إليه الاثنان, فأكمل بحماس:

-يمكننى أن أدخل خلالها .. إنها صغيرة, ولكنى أستطيع أن أحشر جسدى خلالها .

كانت فكرة جيدة, فقال له عم منصور بأمل:

-إذاً أسرع يارجل وافعلها يا ولد .. الرجل لايرد ولاندرى ما اصابه بالداخل.

اختفى عبدالدايم من أمامهم, فانتظر الاثنان بترقب أن يفتح الباب , ولم يمض أكثر من ثلاث دقائق حتى كان عبدالدايم يفتح لهما الباب من الداخل, فدلفوا المشرحة مسرعين .. لم يجدوا جمال بالغرفه .. كان بابها مفتوحاً, لكن لا أثر له ..

اتجهوا إلى قاعة التشريح, لكنه لم يكن هناك أيضا .. وقال عم منصور بتوتر, وهو يتلفت حوله , وعيناه تجوبان المكان:

-أين تراه قد ذهب ذلك الأحمق .. لا أثر له فى كل مكان, وهو لم يتبخر بالتأكيد, إذا أين يكون ؟!..

وانتبه متولى لشيء ما, وهو ينظر إلى المناضد التى ترقد عليها الجثث, فقال ببطء وحذر:

-كم عدد الجثث بالمشرحة ؟

أجابه عم منصور , وهو ينظر إليه بدهشة:

-إنها خمس .. لماذا تسأل؟!..

أشار متولى بيد مرتعشة إلى المناضد التى رقدت عليها الجثث, وقال بصوت مخنوق :

-لكن الجثث ها هنا ست ..

وتحولت أبصارهم على الفور إلى المناضد التى تحوى جثثا مغطاة لتحصيها .. كانت ستاً بالفعل .. اضطربت قلوبهم بشدة, وشعر عم منصور بالحمض الحارق يتصاعد إلى فمه, ليملأ أنفة برائحته النفاذة, وهاجس مخيف يلح على عقله ..

أيكون جثمان جمال هو الجثة الجديدة السادسة ؟..

تجمدوا فى أماكنهم للحظة ,دون أن يفعلوا أى شيء, إلا أن عم منصور أخرج نفسه بسرعة من جموده, وهتف فيهم, وهو يتجه إلى أقرب منضدة منه ليفحصها :

-لا تقفوا هكذا كالأصنام .. تحركوا وافحصوا كل منضدة, لنرى من أين أتت الجثة السادسة.

واندفع كل منهم إلى أقرب منضدة منه, وكشف غطاءها, ولم يكن بها غير الجثث القديمة ,فاتجهوا الى الصف الثانى ...

كان جمال راقداً بالمنضدة الآخيرة, وكان متولى من وجده, فأخذ يصرخ برعب حين كشف الغطاء, لتصطدم عيناه بوجه جمال الشاحب..

أسرع نحوه الاثنان, وكشفوا باقى الغطاء عن زميلهم, وصاح عبد الدايم بهلع :

-يا إلهى.. هل مات ؟!

لاحظ عم منصور أن صدره يعلو ويهبط ببطء ,فقال وهو يحيط جسده بذراعه ليحمله :

-إنه مازال يتنفس .. لا تتسمروا هكذا .. هيا ساعدونى لنخرجه من هنا.

أسرعوا بحمله, وإتجهوا الى حجرتهم, فأرقدوه على الفراش, وأخذ عم منصور يضربه ضربات قوية على جبهته وخديه ليفيق ,وهو ينادى عليه .. إلا أنه لم يستجب .. كان أسيراً لغيبوبة عميقة تقاوم بإصرار محاولاتهم لإخراجه من سيطرتها .. فهتف عبدالدايم بقلق :

-ألا يجب أن نذهب به إلى طوارئ المستشفى ليسعفوه؟.

كاد عم منصور أن يجيبه بالموافقة ,لولا أن ارتفع صوت من خلفهم متسائلاً:

-من الذى تريدون أن تذهبوا به إلى المستشفى ؟.. هل هناك مصاب ما هاهنا ؟..

كان الدكتور حاتم أحد المعيدين بالقسم هو الذى يسأل .. وأجابه عم منصور بلهفة, وهو يشير بيده نجو جسد جمال الساكن أمامهم:

-أنجدنا يا دكتور .. لقد وجدنا جمال فاقدا لوعيه هاهنا, وهو لا يستجيب لمحاولتنا لإفاقته ..

واندفع الدكتور حاتم نحو الجسد الهامد, وبدأ على الفور فى إفاقتة .. تحسس أوردته فلاحظ نبضه السريع الضعيف وتنفسه الثقيل .. فتح مقلتيه ,متأملا بؤبؤ العين للحظة.. بدا متسعاً , فقال بحيرة:

-ليأتنى أحدكم بجهاز الضغط والسماعه من الحجرة الآخرى.

خرج عبدالدايم ليجلب ما طلبه, وعاد بهما فى أقل من الدقيقة .. فتناولهما الدكتور حاتم منه, وأكمل فحصه,وعيونهم معلقة به بترقب وقلق ..

كانت نتيجة فحصة سلبية .. لم يجد خللاً عضوياً يفسر تلك الغيبوبه .. لذا فقد أخذ يضغط على جبهته ,وصدغيه ضغطات مؤلمة حاثّاً مراكز الألم فى مخه على تنشيط جهازه العصبى كى يفيق, وهو يردد قائلا:

-هيا يارجل ..كفى دلعاً, واستيقظ .. إن كل شئ بك على مايرام.

ومضت لحظات من الترقب قبل أن يسعل جمال .. فتح عينيه بوهن , وراح ينظر إليهم بتوتر وحيرة, محاولاً استيعاب ما يجرى حوله, ثم قال بدهشة حقيقية:

-ماذا يحدث هاهنا ؟!.. ولماذا ترمقوننى هكذا ؟!!..

ماذا هناك ياعم منصور؟!..

لكن أحداً منهم لم يجبه .. فقد ألجمهم القلق وأخرسهم.

(10)

وبعد أقل من الساعه علم كل من بالمشرحه ماحدث لجمال, فأرسل إليه الدكتور نعيم ليخبره الحقيقة .. ذهب إليه ومعه عم منصور , هناك أخبره جمال ماحدث له بالأمس .. لم يخف شيئاً, لأن حيرته وخوفه كانا هائلين ..

حكى له عن الظل الذى ظن أنه شاهده , وأخبره بجثة الفتاة المفتوحة العنين, والتى ثبتت نظراتها عليه, وكانت تبتسم له .. وأخيراً تلك الطرقات التي سمعها بعد أن نام, وكان آخر ما يتذكره هو فتح الباب .. أما بعد ذلك فهذا ما لا يذكره ..

رمقه الدكتور نعيم بشي من الشك والريبه, قبل أن يعود بمقعده للخلف, وراح يمج سيجارته ببطء وصمت, قبل أن يقول بلهجة هادئة, بطيئة, حملت الكثير من الاتهام :

-هل حدث أن سرت أثناء النوم من قبل ؟!..

وأدرك جمال أن الدكتور نعيم لا يصدقه, فارتبك .. وتكاثف العرق على جبهته, وأجاب مطرقاً رأسه لأسفل, بارتباك:

-لا يادكتور .. لم يحدث هذا لى أبداً .. إننى أنام على فراشى كالجحر.

-إذاً فأنت تتعاطى شيئاً ما حتما ؟.

-شئ ما مثل ماذا يادكتور ؟.. لست أفهم ما تقصده ..

سأله جمال بحذر, وهو يخشى أن يضطر للاعتراف بأنه يتناول الحشيش أو البيرة حين يبيت بالمشرحة .. خشى أن يكلفه هذا وظيفته.

وأجابه الدكتور نعيم ببطء, وهو يميل بجزعه نحوه من فوق مكتبه :

-أتحدث عن المخدرات أو الكحوليات .. تلك الممنوعات التى تعرفها جيدا .. أى شيىء من هذا القبيل .. هل تفعل يا رجل ؟..

مرة أخرى أطرق جمال برأسه للأسفل, متحاشياً أن تتلاقى عيناه بعيني الدكتور نعيم الحادتين, وهو يغمغم:

-الشيشة فقط يادكتور .. أنا لا أشرب غيرها .

هنا هز الدكتور نعيم كتفية بنفاذ صبر , وصاح بعصبية:

-إذن كيف بالله عليك وجدوك بغرفة التشريح, راقدا على منضدة أحد الجثث ؟.. أخبرنى لماذا فعلت هذا ؟.. هل كنت تتسلى مثلا ؟.. أم أنه خاطر أحمق طرأ برأسك الغليظ هذا فجأة, ودفعك لفعل هذا ؟.

ازداد جمال توتراً, وهو يشعر باتهام مباشر يُوجه له بين طيات كلام الدكتور نعيم, فقال ضارعاً:

-أقسم بالله أننى لا أدرى كيف حدث هذا .. أنا لم أشعر بأى شيء إلا حين أفقت فى الصباح .. أنا حتى لم أكن أدرى أنهم وجدونى نائما على تلك المنضدة بجوار الجثث .. لو أفقت حينها ووجدت نفسي هكذا لمت هلعا.

ثم التفت إلى عم منصور مستنجداً به, فاكتفى الأخير بهز رأسه مؤكداً ماقاله ..

صمت الدكتور نعيم, وراح يتفحصه بنظرات نافذة كسهام تتخلل جسده؛ لتستكشف إن كان صادقاً فيما يدعيه, أم أن وراءه شيء ما يخفيه, بعدها أخذ يدخن الجزء الباقى من سيجارته, وهو يطلق سحابات كثيفة من الدخان نحو سقف الحجرة, بينما راحت أنامله تعبث بقلم أنيق, يحمل شعار إحدى شركات الأدوية, مصدرا صوتا معدنيا رتيبا .

حطم هذا الصمت مقاومة جمال, فبدا مضطرباً وخائفاً بصورة لا ادعاء فيها .. لقد كان مذعوراً بحق؛ وكان وجهه شاحبا فى تلك اللحظة كالموتى .. لذا قال الدكتور نعيم فى النهاية ليصرفه :

-حسناً ..يمكنك الانصراف يا جمال, عد لبيتك الأن لتنال قسطا من الراحة, وفيما بعد سنحاول أن نفهم ماحدث.

وشكره جمال, وهو ينصرف, واستدار عم منصور الذى تابع كل ماحدث صامتاً ليرافقه, إلا أن دكتور نعيم استبقاه قائلاً:

-انتظر يا منصور .. هناك ما أرغب فى التحدث فيه إليك .

-تحت أمرك يادكتور.

قالها عم منصور ,وهو يعود متقدماً نحو المكتب ,بينما انتظر الدكتور نعيم للحظات حتى غادر جمال الغرفة, فقال لعم منصور:

-هل هناك ما أخفاه عنى جمال .. ربما أخبرك بشيء ما, ولم يشأ أن يخبرنى به .. لا أظن أنك أنت الآخر تصدق ما قاله.

وهز عم منصور رأسه نافياً. وأجاب بهدوء:

-لقد أخبرني بما ذكره لسيادتك .. إن روايته التى حكاها لكلينا واحدة دون أى تغيير .. ولا أظن أنه كان يدعى الغيبوبة التى وجدناه عليها .. لقد فحصه الدكتور حاتم, ويمكنك أن تسأله كيف كان .

-ألا تظن أنه قد يكون قد نام من تلقاء نفسه بقاعة المشرحة دون أن يدرى .. ربما كان يعانى من مرض نفسي ما .. وربما كان يسير أثناء نومه دون أن يعلم ذلك .. أشياء كهذه تحدث أحيانا .

-ربما كان هذا ماحدث, من يدري؟! .. الأمر كله عجيب, ولم يحدث من قبل .. أخشى أن أقول أن هناك أحداثاً غريبةً تدور فى المشرحة فى الآونة الأخيره لم يكن جمال شاهدها الوحيد ..

- أحداث غريبة هاهنا بالمشرحة ؟.. هل حدث شيء ما بالمشرحة لا أدريه ؟!..

قالها الدكتور نعيم بدهشة واستنكار .. لم يجب عم منصور على الفور, بل صمت للحظة متردداً, لكنه أمام النظرات الصارمة للدكتور نعيم تكلم, وقص عليه ماحدث لعبد الدايم من قبل..

وضاقت عينا الدكتور نعيم, وعاد يعبث بالقلم الذى يمسكه مرة أخرى مصدراً طرقاتٍ خافتةً على سطح مكتبه, وعيناه تنتقلان بين وجه عم منصور المضطرب وفراغ الغرفة, قبل أن يقول مستنكراً بلهجة حادة:

-أتتكلم عن عفاريت, و أشباح جثث تلهو بالمشرحة ؟.. هل هذا ما تقصده يارجل ؟.. وهل تعتقد أن مثل هذه الخزعبلات التى

تحكونها فى قراكم حين يحل المساء, ليخيف بعضكم البعض قد تحدث هاهنا فى كلية الطب ؟.. لو شئت رأيى فى مايحدث, لأخبرتك أن رجالك حمقى , واهمون بالتأكيد, وربما يتعاطون شيئاً ما لست أدريه .. عليك أن تبحث عن هذا, لكننى لن أقبل أن أستمع الى هذا الهراء مرة أخرى .. أخبرهم بكلامى هذا كى لا يتمادوا فى أوهامهم, فينشروا هذه الترُهات فى كل مكان.

لاذ عم منصور بالصمت ولم يعقب, كان يعلم أن الدكتور نعيم لن يقبل مناقشة هذا الأمر مادام قد رفض تصديق ماحدث من البداية .. لذا فلاطائل من مجادلته, كان هو شخصياً يؤمن بالعفاريت والجان .. ألم يقل الله فى كتابة الحكيم "ويخلق ما لاتعلمون"

إذاً فلابد أن لله خلق كثير لا نعلم عنهم شيئاً, بالرغم من أنهم قد يتواجدون حولنا دون أن نشعر بهم أو نراهم ..

لذا اكتفى بهز رأسه, وقال باستسلام:

-كما تشاء يادكتور .

-منصور .. لا يجب أن يعلم أحد بما حدث .. فمع بداية الأسبوع القادم سوف يبدأ الطلاب دروسهم العملية مع الجثث, ولا أريد أن تكون هناك بلبلة ما حول المشرحة.

هز عم منصور رأسه موافقاً , وأكمل الدكتور نعيم آمراً:

-هناك شيء أخير .. لا أريد لأحد منكم أن يبيت بالمشرحة بمفرده بعد الآن .. ليتواجد اثنان منكم كل ليلة بالمشرحة .. سيكون هذا مؤقتاً حتى أتأكد أن تلك الأوهام لم تعد تحدث .. أخبر الآخرين بذلك, وابدءوا فى تنفيذ هذا الأمر من الليلة.

وتركه عم منصور ليخبر الباقيين بما جرى, وتناهى إلى مسامعه وهو يخرج من الباب ضحكة عصبية أطلقها الدكتور نعيم, هو يقول ساخراً :

-عفاريت هاهنا بالمشرحة .. فى المرة القادمه سيحدثوننى ربما عن لعنة الفراعنة, أو مصاصى دماء يتحركون فى الليل .. يالهم من رجال !.

(11)

بدأ نظام المبيت الجديد فى نفس الليلة .. واتفقوا أن يكون عم منصور ومتولى فى الليلة الأولى ..

لم يتذمر أحد منهم من الأيام الإضافية التى سوف يبيتونها فى المشرحة .. فأمام ما يحدث خاف كل منهم مما جرى, وأخذ يبحث عن الصحبة فى مواجهة أمر مبهم كهذا .

وفى المساء جاء عم منصور مبكراً, لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة حين كان بها, أخبره متولى أنه سيتأخر قليلاً؛ لينهى بعض أموره فلم يعترض .. وظل بمفرده بالحجرة راقداً على الفراش يدخن ويجرع أكواباً كثيرةً من الشاى كعادتة, ويسمع الراديو , حتى جاء متولى حين قاربت الساعة العاشرة..

كان قد جلب معه من بيته بعض الأوانى التى تحوى أرزا و "كوسة" مطبوخة ولحم .. شعر عم منصور بالدهشة الحقيقية, وهو يرى هذا الكرم الغير معتاد من متولى, وقد عهده بخيلاً .. وقال متولى بمرح ,وهو يفرغ ما تحويه الآنية فى بعض الأطباق الموجودة بالحجرة :

-لا أظن أنك تناولت طعاماً منزلياً منذ زمن طويل .. لذا قررت أن أذكرك به هذا اليوم ثانية .. أتمنى أن يعجبك.

وابتسم عم منصور بامتنان, وهو يجلس على الأرض المكسوة بحصيرة قديمة .. كان ما قاله متولى صحيحاً تماماً .. فنادراً ما عاد يتمتع بمثل هذ الوجبات المعدة فى المنزل, منذ انتقل للعيش بالقاهرة .. كما أنه ليس بالطباخ الماهر, فكان يلجأ للوجبات

الجاهزة الرخيصة؛ كى يسد رمقه .. وإكتفى بتناول الطعام المنزلى فى الأجازات التى يعود فيها لبلدته.

ففى كل عام, وبعد انتهاء الدراسة كان يغادر القاهرة لشهر كامل عائداً لبلدته بالمنيا .. فهناك أخوته البنات المتزوجات, اللاتى يتفنن حينها في إعداد كل ما يعلمن أنه يشتهيه من طعام, بل ويزودونه بالكثير منه قٍبل عودته للقاهرة, ليكفيه لبضعة أيام أخرى, قبل أن يعود ثانيةً للطعام الردئ الذى يشتريه.

وقال وهو يلوك بفمه الطعام الشهى, وقد راقت له رائحته الذكية وطعمه الحلو:

-يمكنك أن تشكر زوجتك من أجلى .. إنها بارعة فى طهيها كثيراً .. أنت محظوظ فى كل شئ يارجل .

-بالهناء والشفاء ياعم منصور ..لكن أخبرنى أيها الكهل .. لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟.. ألم تحاول أن تقترن بواحدة من قبل ؟..

سؤال تكرر كثيراً على مسامعه, فضحك ببساطة, وأجاب بعد أن مضغ قطعة لحم كان يأكلها :

-لأنه لاتوجد من تقبل أن تتزوج غولاً مثلى .. ألا ترى كيف أبدو يارجل .. إننى أبدو كالغول والعمالقة, والنساء يخشين من هو مثلى حتما ,إلا لو كان بها عيب ما؛ لتقبلنى من أجله, وهذا ما لن يروقنى..إذاً فلا حاجة لى بهن ولاحظ لهن معى ..معادلة بسيطة ومريحه كما ترى..

وضحك متولى بصورة صاخبة, وقال وهو يزدرد ملعقة من الأرز مخلوطة بصلصة الكوسة :

-لو كانت هذه مشكلتك فلا مشكلة إذن .. اترك الأمر لى, وسأزوجك من ترضى بك هكذا .. انت تبالغ فى النفور من نفسك كثيرا, والأمر لا يسير هكذا أبدا.

-امرأة من طرفك أنت .. الله الغنى يارجل .. لن يكون هذا أبداً.

-إذا فأنت الذى لا يريد .. فكر فى الأمر .. إن أمامى عروساً تناسك, و أنا أجزم أنها سوف تروق لك كثيرا. إنها كاللوز المقشور.

- ومن قال لك أني أريد الزواج. أو أفكر فيه .. إننى أحب حياتى هكذا , ولا أرغب فى تغييرها .. كما أننى لا أحب اللوز .

-صدقنى ياعم منصور, أنت مخطئ فى تفكيرك هذا, وستندم حتما حين يتقدم العمر بك, ولا تجد من يكون بجانبك حينها ليرعاك .. إننا نتزوج كى نجد من يؤنس وحدتنا, ثم ننجب الأبناء, كى ندخرهم إلى أن نحتاج اليهم فى شيخوختنا وعجزنا .

-حينها لن أعدم من يساعدنى من أولاد الحلال .. إنهم فى كل مكان فلا تقلق بشأنى .

وانتهيا من العشاء, فأشعل عم منصور سيجارةً جديدةً, بينما قام متولى بجمع الأطباق ليغسلها .. وتولى عم منصور إعداد الشاى ..ثم إتجها بعدها للحديقة الخلفية ..

حملا معهما الشيشة, وطبق فخارى مليء بالفحم المشتعل, وأكواب الشاى الأسود الشبيه بالحبر .

ظلا يدخنان, ويثرثران حتى انتصف الليل ..فجمعا أغراضهما ,وعادا ثانية للمشرحة استعدادا للنوم .. وقال عم منصور مقترحاً:

-مارأيك لو فتشنا المكان قبل أن ننام؟..لا أريد أن نفاجأ بشئ ما.

رحب متولى بالفكرة ,ففتشا المشرحة بأكملها ,لكنهما لم يعثرا على ماقد يريبهما ..أغلقا بعدها الباب الخارجى للمشرحة بإحكام, وكذلك باب حجرتيهما..ثم رقد عم منصور على الفراش الذى كان صغيراً لايتسع لكليهما معا , بينما رقد متولى على حصيرة فرشها على الأرض .

بعد ساعتين,شعر متولى بمثانته ممتلئة, فنهض بآلية, واتجه إلى الحمام مترنحاً شبه نائم .. انتهى ,فعاد بعيون ناعسة شبه مغلقة ؛ليكتشف أن باب الحجرة مغلقاً.. أمسك مقبضه وأداره ,ودفعه بقوة لكنه لم يتحرك ..

هنا طار النوم من عينيه تماماً ,وهو يحاول دون جدوى فتح الباب الذى صمد أمام محاولاته ,ولم يهتز..وبينما راح يدفعه بعصبية, شعر بأن هناك من يراقبه من الخلف..

كان إحساساً مبهماً لكنه استجاب له, والتفت بتوتر نحو البقعة المظلمة فى نهاية رواق المشرحة ,كان هناك بالفعل من يقبع فى الظلام منتصباً, ساكناً دون حراك..

كان هذا نهاية التوتر والتعقل ,وبداية الجنون عنده, فأطلق صرخات توقظ الموتى, وهو يستغيث وينادى عم منصور بهستريا ,ويداه تطرقان الباب , وتحاولان فتحه بفزع وعنف, دون أن يفارق عينيه ذلك الشيء المتدثر بالظلام ..

استيقظ عم منصور على صرخاته ,وكاد أن يتعثر ,وهو يندفع نحو الباب المغلق ليرى ما هنالك..فوجئ هو الآخر بالباب المغلق.. وحاول أن يفتحه فلم يفلح ,فتصلب أمامه يرمقه بحيرة ..

كان المزلاج غير مغلق ..فكيف يقاوم ذلك الباب اللعين فتحه إذاً؟..

بالخارج ارتفع عويل متولى وصرخاته , وهو يتضرع إلى عم منصور ,ويرجوه أن يفتح له الباب ,فزاد عم منصور من محاولاته الشرسة كى يفتح الباب, وقد قرر أن يفتحه بأى طريقة حتى لو حطمه ..

تراجع للخلف قبل أن يندفع نحو الباب بكتفه ليحطمه ..لم يتأثر الباب بمحاولته فتراجع ثانية ليعيد الكرة, وهو يصيح فى متولى:

- ماذا هناك يامتولى .. ما الذى يجرى عندك ..لماذا تصرخ هكذا؟..

بصعوبة فهم مايقوله متولى من بين صراخه الذى استمر صاخباً ليوقظ الموتى.

-أنجدنى ياعم منصور.. إنه هناك فى الظلام..إنه ينظر إلى ..افتح الباب أرجوك ,وانجدنى..

-من هذا يا متولى؟ ..لاتصمت يارجل ,وأجبنى..تحدث,وأخبرنى من هذا؟

لكن متولى أخذ يصرخ دون أن يجيبه هذه المرة .. تحرك ذلك الشيء المخيف مغادراً ظلمته, وإتجه نحوه ..فانهار متولى برعب بجوار الباب يائساً من محاولة فتحه , لكنه استمر يصرخ منادياً عم منصور سائلاً نجدته بيأس حقيقى ..

توترت عضلات عم منصور أكثر وصرخات متولى الفزعة تصله عبر الباب المغلق دون أن يستطيع نجدته, ظل الباب صامداً كوتد مثبت بالصخر دون أن يتحرك قيد أنملة بالرغم من محاولاته الجدية لتحطيمه ,بدا كأن قوة شيطانية تتلبسه فتزيده صلابه ..

فى النهايه تحول صراخ متولى لنحيب مكتوم ..أخذ يرتعد, وهو يلاحظ شبح ذلك الكائن يتقدم نحوه بإصرار وهدوء .. بدأت الدنيا فى الإظلام أمام عينيه ..و دخل ذلك الشيء دائرة الضوء ,فعرف من يكون ..

كانت فتاة .. الفتاة التى جلب جثتها منذ أيام ..لابد أن هذا شبحها وقد أتى لينتقم منه ..إنه وقت الحساب والإنتقام إذا ,فمرحبا بالفزع .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ,ومخيفة على شفتيها, وبدت عيناها متوهجتين مشتعلتين كجمرتين ,بينما تطاير من خلفها شعرها الأسود الطويل كأنما يحركه تيار خفى من الهواء للخلف ..وكانت تتحرك بانسيبابية غريبة كأنما تسبح فى الهواء.

أراد أن يصرخ فيها أن تبتعد عنه وتتركه ,لكن صوته خذله , فلم يخرج من فمه إلا عواء غير مفهوم..وطمس الرعب حاسة الشم فى أنفه, فلم يشم رائحة العطر الأنثوى الذى عبق شذاه الفراغ حوله..

ظلت تقترب بتؤدة ورتابه حتى صارت أمامه تماماً ,وألجمه الرعب ,فأصابه شلل مؤقت فلم يتحرك ..هنا امتدت يدها نحوه ,وابتسامتها الساخرة المرتسمة على وجهها تزداد اتساعا , فلم تعد مراكز وعيه قادرة على إبقاءه يقظاً أطول من هذا الوقت , ففقد الوعى ..

فى نفس اللحظة زالت مقاومة الباب فجأة أمام محاولات عم منصور المستميتة ,ففتح مرة واحدة كاد معها عم منصور أن يسقط أرضاً..

رأى حينها متولى راقداً أمام الباب شاحباً, وفاقداً لوعيه.. فحصه بتوتر , وهو يناديه, ويهز جسده بعنف ليفيق .. كانت أنفاس متولى ضعيفة مضطربة,وجبهته تتصبب عرقاً بارداً ,وجسده متخشباً .

بعد لحظات استجاب متولى لمحاولات عم منصور الحثيثة لإفاقته , ففتح عينيه ببطء .. ثم هز رأسه بعنف متلفتاً حوله كأنما يتيقن أن الخطر قد زال .. نظر بعدها إلى عم منصور ,ثم انهار مرة واحدة باكياً وهو يحتضنه..

ساعده عم منصور كى ينهض ,ثم أرقده على الفراش ..وراقبه وهو يبكى, ويرتعد من الفزع الذى لاقاه منذ قليل .

حاول عم منصور أن يخمن ما الذى شاهده متولى ,وأرعبه هكذا؟..ولم يرغب فى أن يسأله الأن ,وهو يراه منهاراً أمامه هكذا, فانتظر إلى أن يهدأ قليلاً من اضطرابه وبكائه .

بعد فترة ليست بالقصيرة هدأ روعه..وبكلمات مضطربة متقطعه, حكى ماحدث ..

أقسم بعدها ألا يكمل ليلته فى هذا المكان, حتى لو كان فى الأمر طرده من عمله و إقالته ..

لذا فقد قررا أن يتركا المشرحة سوياً الأن ,ولتذهب كل الجثث التى بها إلى الجحيم ..

قرر عم منصور أن يذهب فى الصباح إلى الدكتور نعيم ليخبره ماحدث..ولو أراد حراسة المشرحه ؛فليبحثٍ عن آخرين غيرهم ,فلن يجسر أيهم بعد الآن على المبيت ثانيةً بها مهما كان الوعيد أو الترغيب ..

غادرا المشرحة لكنهما تركا الباب الخارجى دون أن يهتموا بغلقه.

كان خطأً كبيراً , أدركاه فيما بعد..

(12)

فى الصباح كانت هناك أسماء ..فتاة ذكية ..رقيقة.. وحالمة.

كانت تحلم أن تغير فى يوم من الأيام التاريخ الطبى , حيناً باكتشاف عشرات الأمراض الجديدة ,وأحيانا أخرى باختراع عشرات العقاقير التى تشفى كل الأمراض, وخاصة البلهارسيا التى كانت تنهش أكباد المصرين وأبدانهم بوحشية فى ذلك الوقت ..

عشرات الأحلام التى تولد وتموت فى كل لحظة, والكثير من النشاط غير المحدود ,وحماس بلاسقف يردعه ..كل هذا كان أسماء..

تفوقت فى دراستها ,وكان ترتيبها الأولى دائماً .. علمت أن هذا ما كان عليها أن تفعله كى تصير فى يوم من الأيام, الدكتورة أسماء كما تتمنى ..

رقيقة دون ادعاء ..ملاك لايرى فى الدنيا إلا الجمال فقط ..لاتفكر إلا فى الحياة, ولاتعلم شيئاً عن الشيء المخيف الآخر المدعو الموت ..

رقتها جعلتها فى قلق دائم من أن تفشل أحلامها أمام خشيتها من الجثث ومن المشرحة ..هى التى لم تعتد أبداً أن تتعامل مع

أى شيء يمت بصلة للموت ,صار عليها لو أردات أن تنجح ,وأن تتعلم كيف تتعامل مع الموتى بجرأة وشجاعة .

كانت تموت هلعاً لو ألقى أخوها الصغير نحوها بصرصار ميت ..بل وكاد قلبها أن يتوقف يوماً ,حين اتجهت فى منتصف الليل فى أحد الأيام إلى الحمام لتطأ بقدميها العاريتين شيئاً ما.. نظرت إليه حينها,ولم تتبين ماهو فى الضوء الشاحب ..وحين أضاءت مصباح الردهة ..اكتشفت ماهو ,فأطلقت صرخة مريعة قبل أن تفقد وعيها..

لقد كان فأراً ميت ..

كانت أمها قد وضعت من أجل اصطياده السم فى بعض بواقى وجبة الدجاج التى التهموها ذلك اليوم, ولا بد أنه لم يدرك الشرك الذى نصب له فالتهم الطعام المسمم ؛ليموت على الفور..المشكلة أنه قد اختار المكان الخطأ ليموت فيه, فكادت أسماء أن ترقد بجواره ميتة من الرعب ..

أيضاً لم تنس كيف فارقها النوم لأيام عدة, حين ماتت جدتها ودخلت إلى حجرتها لتلقى عليها النظرة الأخيرة ..أصابها الهلع حين رأت كيف شحب وجه جدتها ,وتغضن وكساه لون أزرق مخيف ..ظل هذا الوجه يطاردها فى أحلامها ,ولايفارق مخيلتها لزمن طويل بعدها..

كانت طبيعتها تتصادم مع رغبتها فى دراسة الطب ..حتى أن والدها حاول أن يثنيها برفق عن دراسة الطب ,ملوحاً لإمكانية أن تتجه لدراسة شيءآخر لا مكان فيه للدماء أو الموتى ..لكنها أصرت على دخول كلية الطب , مؤكدةً لنفسها ,ولكل من حولها أنها قوية ولن يرهبها شيء من هذا ..

اليوم جاءت مبكرة ..وكان هذا هو يومها الثالث فى الكلية ..فى اليوم الأول لم يكن هناك شيء إلا محاضرة تعريفية بنظام الدراسة فى الكلية ,وبالمواد المطلوبة منها ..يوم خفيف وهدوء ماقبل العاصفة.

في اليوم الثانى كانت البداية المرعبة.. ثلاث محاضرات تمهيدية وثقيلة بحق للمواد الدراسية وباللغة الإنجليزية ..كانت هناك عشرات المصطلحات الغامضة التى لم تفهم منها شيئاً ..لكنها كانت متحمسةً بالرغم من إحباط الكثيرين من حولها فى نهاية اليوم ..

كل شيء صعب فى بدايته ,وسأعتاد هذا مع الوقت ..هكذا طمأنت نفسها..

كانت الساعة الآن السابعة والنصف,ومازال الوقت مبكراً للغاية, فمحاضراتها لن تبدأ قبل التاسعة ..فبدت الكلية فى حينها هادئة ومريحة بلاصخب أو زحام.

كانت فى قرارة نفسها قد قررت أن تواجه مخاوفها اليوم .. واتخذت قرار خطيرا..ستذهب اليوم إلى المشرحة !

أخبرها بعض زملائها الأقدم سناً أن الجثث موجودة بها الآن بالفعل .. فقررت أن تكون مواجهتها الأولى مع الجثث بالمشرحة بمفردها..كانت ترغب فى أن تختبر نفسها..هل سترتعد من مرآها؟.. أم ستحتمل الأمر , ولن تخشاها؟..

لم تكن ترغب فى أن يكون أحد ما معها فى مواجهتها الأولى هذه.. خشيت أن يصدر منها شيء ما, كأن تصرخ مثلاً أو تفقد وعيها فتصير أضحوكة بين زملائها ..

لهذا لتكن مواجهتها الأولى بمفردها ,وليكن حينها ما يكون ..

لهذا جاءت اليوم مبكرةً ,واتجهت بخطوات مرتبكة إلى المكان الذى أخبروها أنه المشرحة ..

من بعيد ,وقبل أن تصل اليها ,وصل لأنفها رائحة الفورمالين النفاذة .. فاضطرت أن تخرج منديلها وتغطى أنفها به.. بلغت الباب, ورمقت ببصرها اليافطة الخشبية المكتوب عليها (المشرحة) بانفعال وإثارة وتردد, قبل أن تمد يدها الرقيقة نحو الباب الزجاجى لتطرقه .. انتظرت للحظات أن يجيبها أحد ما.. وحين شعرت أن وقتاً طويلاً قد مر بعدما طرقت الباب , دون أن يجيبها أحد, طرقت الباب مرة أخرى بقوة أكبر,وقد خشيت أن لايكون بها أحد ليدخلها ,فتنتهى مغامرتها قبل أن تبدأ..

لاحظت أن الباب استجاب لطرقاتها هذه المرة فانزاح للداخل قليلاً ..دفعته برفق ففتح باتساعه أمامها كأنما يرحب بها ويدعوها لأن تدخل ..أدخلى يافتاة ..لأشئ بالداخل لتفزعى منه ..

مدت رأسها للداخل فلم تر أحداً فى الرواق الطويل .. استرقت السمع لبرهة فلم تسمع شيء.. هل لايوجد أحد هنا ؟..

دلفت بعدها المكان بتردد ورهبة فلم يقابلها أحد, لاحظت أن رائحة الفورمالين قد صارت أقوى الآن ,ومثيرة لأنفها ومقلتيها بعنف ,حتى أن عينيها أخذت تحرقانها بشدة ,وبدأت دمعات ساخنة فى التسرب من محجريها.. انتهت الردهة التى تسير بداخلها إلى قاعة المشرحة ..كانت مضاءة بأضواء شاحبة لمصابيح نيون كساها الغبار ,ولاحظت أن نوافذها المرتفعة مغلقة ..تطلعت الى المناضد التى ترقد فوقها الجثث المغطاة

أمامها, فارتجف قلبها للحظة ,وفكرت فى التراجع ,وقد زاد السكون الذى يحيط بها فى رفع توترها ..

حاولت التماسك, فهمست لنفسها مشجعةً ,ومغالبةً رغبةً هادرةً بداخلها تدفعها للتراجع:

-إما الآن وإما لا للأبد ..تقدمى يا أسماء ,ولاتكونى جبانة ..ستندمين للأبد لو تراجعت الآن.

شعرت أن عبارتها لم تزدها شجاعةً ,وأن قدميها قد التصقتا بالأرض أكثر الأن, دون أن تطاوعاها على التحرك للأمام خطوة واحدة..مرة أخرى حدثتها نفسها, وألحت عليها أن تعود أدراجها ,وأن تعاود الكرّة فى وقت آخر ..ربما كان الأفضل لها أن تاتى بإحدى زميلاتها لتكون معها أول مرة ..إلا أن صوت عنادها اندفع من أعماقها صائحاً فيها بغضب :

-مما تخافين يابلهاء إنها مجرد جثث ..ماهم إلا بشر نائمون كما يقول بابا..تقدمى الآن أو اعترفى لنفسك أنك جبانة وضعيفة .

استجمعت شجاعتها ,ودفعت قدميها الملتصقتين بالأرض بإصرار للأمام دفعاً ..واتجهت بخطوات مترددة إلي أقرب الجثث إليها ,ثم توقفت أمامها لأكثر من دقيقة محبوسة الأنفاس من الإثارة والترقب, وبأصابع رقيقة متوترة ومرتجفة, مدت يدها إلى الغطاء الذى يغطى الجثة, ثم ببطء شديد بدأت ترفعة وتزيحه عن الجسد المسجى أمامها..

كانت متوترة للغاية, وراح قلبها ينتفض بعنف, وشغف فى قفصه الصدرى , وهى تنظر الى الجثة ..لدهشتها كانت جثة فتاة شابة..بل وكانت فتاة جميلة للغاية ..لاحظت أن لونها لم يكن

يشبه كثيراً لون جدتها القاتم الذى رأته على وجهها حين ماتت..كان وجه الفتاة أمامها مازال محتفظا بنضارته , وإن شابه بعض الشحوب ..

كان وجه فتاة نائمة لا أكثر ..أهكذا نصير حين نموت؟ ..

تأملت جمالها المبهر فشعرت بالأسى من أجلها ..كان وجه هذه الفتاة يشي بأنها لا تكبرها إلا بأعوام قليلة ..لابد أنها امتلكت فى يوم من الأيام أحلاما كأحلامها ,هل ياترى حققت بعض أحلامها ,أم أن الموت قد فاجأها قبل أن تفعل ..شعرت بالشفقة عليها ؛لأنها أتت إلى هنا لينتهى بها الحال ممزقة مشوهة تتناقلها عشرات الأيدى, وتعبث بجسدها مئات الشفرات الحادة .. تخيلت نفسها مكانها ..بالتأكيد لم تتمن أن يصير هذا مصير جسدها لو ماتت فجأة ..كان مصيراً مؤلماً..ما الذى أتى بهذه الفتاة إلى هنا ياترى ؟!..تمنت لو تعرف .

تذكرت فجأة ما أخبرها زملاؤها القدامى أن الجثث تكتسب لونا بنيّاً باهتاً كأوراق الصناديق الكارتونية, نظراً لحفظها بالفورمالين ..لم يشبه وجه هذه الفتاة الصور التى تخيلتها للجثث المحفوظة ..ربما لم يُعِدّوها بعد؟ .. وجدت نفسها تتحمس أكثر ,فمدت يدها إلى وجه الفتاة لتلمسه ..

كانت ترغب فى أن تقتل الخوف بداخلها من مرأى وملمس الجثث .. وجدت نفسها تغمض عينيها بقوة, ويدها تمتد نحو وجه الفتاة الميتة لتلمسه..شعرت يداها بملمس الجلد الناعم ..كان لايخلتف كثيراً فى ملمسه عن ملمس بشرتها ..وكان الجلد دافئا ..

وحين فتحت عينيها ,وجدت أن العالم قد تغير تماماً عما قبل ..كانت الجثة التى أمامها قد فتحت عينيها ,وراحت ترمقها بثبات وابتسامة ساخرة تتلاعب على شفتيها ..

كانت أسماء فتاة رقيقة ..وكان من الصعب أن يحتمل قلبها الصغير شيئاً كهذا أبدا ؛فتوقف لأول مرة عن القيام بواجبه الأزلى ولم يعد يدق , ولم تشعر بعدها بأى شيء ..

وكان هذا من حسن حظها !

(13)

فتح عبدالدايم المشرحة في الصباح ,وبينما كان يبحث بقلق عن زملائه بها اكتشف جثة أسماء ..وفي أقل من الساعة امتلأت المشرحة بالعشرات من رجال الشرطة بأزيائهم المميزة ,وخبراء المعمل الجنائى بحثاً عن دليل ما يرشدهم للفاعل..

كان هناك عميد الكلية ووكيلاه, وبالطبع كان معهم الدكتور نعيم ,وبعض أساتذة القسم, وبعض أساتذة الأقسام الأخرى وقد ألهب الحادث فضولهم..

طالبة بالفرقة الأولى تُقتَل بالمشرحة ..

كانت التفاصيل محيرة ومبهمة ومثيرة ..وجد عبدالدايم جثتها على أحد مناضد المشرحة, وكانت بكامل ثيابها ..لكن المخيف هاهنا أن جلدها قد اكتسب اللون البني المميز للجثث المحفوظة ,وقد تصاعدت منها رائحة الفورمالين قويةً طازجةً تماماً..

انهمك رئيس المباحث فى حوار جانبى فى أحد الأركان مع عبدالدايم وجمال , بينما انهمك خبراء البحث الجنائى فى رفع البصمات ,والبحث عن أى أدلة قد تكون مفيدة لكشف غموض القضية ..وحول الجثة انهمك الطبيب الشرعى هو الآخر فى فحص الجثة ,ويشاركه في هذا الدكتور محمود عبدالفتاح رئيس قسم الطب الشرعى بالكلية ..

بدأ الاثنان فى إجراءات الفحص الظاهرى المبدئى على الجثة قبل أن يقول الطبيب الشرعى -الدكتور هشام -للدكتور محمود بتوتر وهو ينتصب قائماً ليعدّل من وضع نظارته:

-لا أفهم أى شيء فى هذه الجثة .. إنها محيرة بحق.

أجابه الدكتور محمود بتؤدة , ووقار وهو يفحص بمثابرة يدى الفتاة وذراعيها :

-أرى ألا نتعجل فى إبداء آرائنا الآن..مازال أمامنا وقت طويل قبل أن يطالبنا أحد بتفسير ما حدث مع هذه المسكينة..الأمر لم ينته بعد

تنهد الدكتور هشام بحيرة ,وغمغم, وهو يشبك أصابعه أمامه :

-إنها مسكينة بالفعل ..مسكينة ومحيرة ..لا آثار عنف أو مقاومة ظاهرة على جسدها ..لا إصابات ظاهرة ..لا كدمات بأى مكان .. كافة الأوردة والشرايين الظاهرية سليمة ,إذن كيف تم حقنها بكل هذا الفورمالين ,ومتى وجد القاتل الوقت الكافى ليفعل ذلك؟..

هنا أعاد الدكتور محمود ذراعى الفتاة إلى مكانهما برفق, ثم نهض ,وقال :

-أظن أن اكتشاف سر تلك الألغاز التى طرحتها الأن يحتاج منا إجراءات دقيقة أثناء التشريح ..ولهذا أرجو ألايضايقك أن أتقدم بطلب رسمى للمشاركة فى إجراءات تشريحها.

أجابه الطبيب الشرعى على الفور :

- ولماذا يضايقى مشاركتك يا دكتور محمود ..إن معاونتك لى فى قضية كهذه مفيد للغاية ..أنت أحد العلماء القليلين فى مجالنا هذا ,ويشرفنى دوما أن أعمل معك .

ارتسمت ابتسامة مريحة ,ممتنة على وجه الدكتور محمود وغمغم بتواضع :

-أرجو ألا تعد الأمر تشكيكاً فى قدراتك - حاشا لله - إنه الفضول العلمى لا أكثر, بالإضافة لكون الفقيدة إحدى طالباتنا. إننى أريد أن أعلم كيف, ومتى ,ولماذا تم حقن هذه الفتاة بالفورمالين ؟..هناك هاجس بداخلى يصر أن مقتل هذه الفتاة ليس جريمة قتل بسيطة..أشعر أن هناك شيئاً أكبر يختفى خلف قتل هذه الفتاة .

حينئذ اقترب الدكتور نعيم منهما ,كان منزعجا بشدة ,وقال وهو ينفث دخان سيجارة بعصبية واضحة لم يستطع كتمانها:

- هل توصلتم لشيء ما ؟

أجابه الدكتور محمود :

-ليس بعد.. فكما ترى لا آثار عنف ظاهرة, ولاسبب مباشر للوفاة..مازال علينا أن نقوم بالتشريح ,لنرى إن كان هناك تلف داخلى أم لا ..كما أن علينا ألا ننسى المخدرات والسموم وغيرها .. ولهذا أخشى أننا لن نصل لشيء ما, قبل أن نتنهى من عملية تشريحها ,وفحص أنسجتها وتحليل مكوناتها ودمائها..الامر ليس واضحا او بسيطا أبدا هذه المره.

- وماذا عن الفورمالين ..هل عرفتم كيف تم حقنها به هكذا؟

-ليس لدى إجابه لسؤالك هذا فى هذه اللحظة ,لكننا حتماً سنعرف.. اطمئن يا دكتور نعيم..إنها مسألة وقت لاأكثر .

زادت تلك الإجابات المبهمة من توتره ,فابتعد دون أن يعقب وظل ينفث دخانه بعصبية, وهو يتمتم بحنق وصوت خافت:

-طالبة تُقتَل فى المشرحة ..كأن هذا ماكان ينقصنا !..ياله من عام !

فوجئ بعميد الكلية يتجه نحوه مع مفتش المباحث ,ووكيل النيابة الشاب الذى وصل لتوه هو الآخر ,وقال العميد بعد أن قدمهم لبعضهم البعض :

-لقد اتفقنا جميعاً على كتمان الأمر عن الجميع ,وبخاصة الطلاب والصحافة ..لانريد أن نثير الذعر فى نفوس الطلاب أو أهاليهم..كما لانريد أن تصيب الكلية تلك الفرقعات الإعلامية للصحفيين..

هز الدكتور نعيم رأسه متفهماً, وهو يقول:

-إن هذا أفضل حتماً..حسنا فعلتم.

هنا قال وكيل النيابة الشاب موجها سؤاله للدكتور نعيم وعيناه الضيقتان النافذتان لاتكفان عن التنقل, والبحث فى كل مكان بالمشرحة :

-أخبرنى يادكتور نعيم ..من كان أول من اكتشف الجثة ؟

أجاب الدكتور نعيم ,وهو يشير بيده نحو عبدالدايم الذى انكمش فى أحد الأركان مذهولاً قلقاً ,بصحبة جمال وهما يراقبان مايجرى حولهما بتوجس وترقب:

- إنه عبدالدايم أحد عمال المشرحة هاهنا ..لقد وجدها فى الصباح .

-وكيف علمتم أن الجثة لإحدى طالبات الكلية ؟..

-لقد وجدنا حقيبتها بجوارها ,وحين فتشناها عثرنا على بطاقتها الشخصيه , وبطاقة التحاقها بالكلية ..كانت هناك بعد الصور الفوتوغرافية لها .. أترغب فى التحدث إلى عبدالدايم؛ ليقص عليك بنفسه ماحدث؟

-لا داعى لهذا الآن..سيتم التحقيق مع الجميع فى النيابة فيما بعد..

قالها باقتضاب, ثم التفت إلى رئيس المباحث, وسأله :

-هل انتهى رجال المعمل الجنائى من عملهم هاهنا .

لاحظ رئيس المباحث بعض التراخي فى رجال البحث الجنائى مما يوحى بأنهم قد إنتهوا من عملهم ,فغمغم وهو يهز رأسه الضخم:

-أظن أنهم قد انتهوا الآن ؟..

-وماذا عن سبب الوفاة ..هل علمتم كيف قتلت تلك الفتاة ؟..

-لقد تحدث إلىّ الدكتور هشام –طبيبنا الشرعى – فى هذا منذ لحظات , وقد أخبرنى أنه لايعلم سبب الوفاة حتى الآن ..أظن أنه سيؤجل إجابته لحين انتهائه من تشريح الجثة.

هز وكيل النيابة رأسه بحركات مبهمة قبل أن يلتفت نحو الدكتور نعيم الذى كان يراقب مايحدث بضيق وعصبية ,وقال له:

-أخبرنى يادكتور نعيم ..لماذا برأيك تم حقن هذه الجثة بالفورمالين ..هل تظن أن القاتل قد رغب فى إخفاء أدلة ما بفعله هذا .

أجاب الدكتور نعيم, وهو يهز كتفيه بحيرة :

-وما أدرانى ؟.. إننى لم أقابل شيئاً كهذا فى حياتى كلها ..ربما كان مختلاً ولهذا فعل ذلك ..لكن كيف فعلها ,ومتى وجد الوقت المناسب لذلك فهذا مايحيرنى للغاية..إن حقن الجثث بالفورمالين أمر ليس بالهين ويحتاج للجهد والوقت.

-وهل يمكن لشخص واحد أن يقوم بالامر بمفرده دون معاونة ما؟..

-هذا ممكن بالطبع ,لكن سيتطلب هذا منه الكثير من الوقت..هناك إجراءات لابد أن تتبع وهناك الجهد وهناك الوقت ..إنه أمر صعب لو شئت رأيى.

رمقه وكيل النيابهة الشاب محاولا استيعاب الإجابة ,وخيم الصمت بينهم , وساد سكون غريب فى أرجاء المشرحة كلها, كأنما اتفق الجميع على السكوت ,وكل منهم يسبح فى خواطره..قبل أن يعاود وكيل النيابة حديثه إلى رئيس المباحث الضخم الجثة :

-هل بعثتم يامحمد بك من يخبر أهلها ويأتى بهم ؟

-لقد أرسلنا إليهم بالفعل أحد أمناء الشرطة بإحدى سياراتنا لجلبهم إلى هنا..مازال علينا ان نعرف منهم الكثير من الأشياء

الغامضة أهمها متى أتت الى الكلية ,هل أتت هذا الصباح ,أم كانت هاهنا منذ الأمس؟..

- حسناً ..أرى أن تجرى تحرياتك لتعلم إن كان لتلك الطالبة أصدقاء هاهنا أم لا؟..ومن هم لو وجدوا؟ ..وهل كان بصحبتها أحد ما حين أتت إلي هنا أم كانت بمفردها ..ولاتنس أن تتحرى عن عمال المشرحة جميعهم, ولتنظر إن كان هناك مايريب فى أحدهم أم لا؟.

أومأ رئيس المباحث محمد وهدان برأسه ,وهو يغمغم:

-سأتأكد من تنفيذ هذا يا وائل بك.

تحرك وكيل النيابة بعدها فى أرجاء المشرحة مرة أخرى, وأخذ يطالع الجثث الراقدة على مناضدها, وهو يغالب الغثيان الذى يسببه له رائحة الفورمالين , وحاول بعقله رسم تصور مقبول لما جرى ..لكنه فشل ..فالمكان بالرغم من كل الأشخاص الموجودين به, يبدو بريئاً تماماً ولا شيء فى غير موضعه ..

وجد نفسة يتساءل إن كانت الفتاة قد قتلت في مكان آخر ,ثم قام القاتل بجلبها للمشرحة بعد ذلك ,كان احتمالاً قائماً ..خطر بباله شيء ما ,فعاد إلى الدكتور نعيم وسأله:

-هل تدرى يادكتور ,لماذا جاءت تلك الفتاة بمفردها إلى المشرحة؟

-لا أدرى..أنت تعلم الطلاب ,وشططهم وإندفاعهم..لا أحد يعلم أبداً ما الذى يدور برءوسهم..ربما أردات أن ترى الجثث ..أو ربما

راهنت شخص ما على أن تدخل المشرحة بمفردها إثباتاً لشجاعتها ..إننا دوما نقابل من الطلاب أشياءً مثل هذه.

-وهل اعتدتم ترك المشرحة مفتوحة دون أحد ما يحرسها ليدلفها من يشاء.

- كلا بالطبع ..ففى كل ليلة على أحد العمال المبيت بها,

انتبه وكيل النيابة بشدة لما ذكره الدكتور نعيم ,فقال باهتمام:

-ومَنْ مِنْ العمال كان هاهنا بالأمس ؟

شعر الدكتور نعيم بالتوتر يتصاعد فى جوفه, فتنهد بقوة وأجاب ببطء:

-المفترض أن كبير العمال, ويدعى منصور, وعامل آخر يدعى متولى ,هما من كانا بالمشرحة بالأمس.

-وأين هم الآن..إننى لم أرى أى منهما هاهنا.

-لست أدرى .. فحين جئنا إلى هنا لم يكونا بالمشرحة..لقد ذكر عبد الدايم أنه وجد باب المشرحة مفتوحاً ,ولم يعثر علي أيهما حين أتى فى الصباح.

التمعت عينا وكيل النيابة الشاب , وغمغم لنفسه ببطء:

-إن هذا يغير الأمر تماماً ..يجب أن نعلم أين هما الآن ؟

(14)

شعر عبدالدايم أن ساقيه عاجزتان عن حمله ,فاستند بيده على الحائط المجاور له كى لا يسقط, كان يخشى دائماً كل ما يمت للسلطة بصلة , وكان يهاب الشرطة بشدة.. خشى أن يتم توريطه بصورة ما فى جريمة القتل هذه ..وظلت الأفكار السوداء تراوده ,بينما كان يقف فى الردهة الطويلة لمبنى النيابة فى انتظار الإدلاء بأقوله فى جريمة قتل الطالبة ..

انتبه إلى صوت يناديه باسمه ..كان الجندى الواقف على باب وكيل النيابة يدعوه للدخول , فتحرك بأ قدام لينة كأعواد المكرونة نحو الحجرة..

لم يدعوه وكيل النيابة للجلوس ,بل تركه واقفاً, وعيناه الضيقتان الحادتان ترمقانه بنظرات نافذة حادة, لدقيقة أو أكثر ,ثم التقط سيجارة من علبة كانت أمامه على المكتب ,وأشعلها بولاعة أنيقة ,ثم بدأ ينفث دخانها ببطء دون أن يرفع عينيه عنه ..

تصاعد التوتر بداخل عبدالدايم حتى أن حبات من العرق البارد بدأت فى الاحتشاد على جبينه..هل يقصد وكيل النيابة أن يحطم أعصابه بصمته الطويل هذا ,ونظراته المليئة بالاتهام ؟ ..لو أن هذا مأربه, فقد نجح.

فى النهايه بدأ وكيل النيابة فى توجيه الأسئلة ..بدأ بأسئلة روتينية عن اسمه, ومحل إقامته وعن عمله بالمشرحه وغيرها ..أخذ عبدالدايم يجيب عليه بثبات محاولاً ألا يتلعثم , أو يرتبك..

لايجب أن يبدو مضطرباً أو مريباً فى إجاباته .. وإلا شكوا فيه وارتابوا فى أمره...

بعد ذلك سألة وكيل النيابة :

-حسناً ؟ أخبرنى الآن كيف اكتشفت الجثة ومتى ؟

ابتلع عبدالدايم ريقه بسرعة ,وقد شعر أن مرحلة الأسئلة الصعبة قد حانت؛ فأجاب محاولاً أن يكون دقيقاً ومحدداً :

- لقد حدث هذا فى الصباح ..كانت الساعة الثامنة تقريباً ..وصلت للمشرحة ,ووجدت بابها مفتوحاً ..اتجهت فى البداية إلى حجرتنا ,فلم أجد بها عم منصور أو متولى , توقعت أن يكونا بالداخل لشأن ما, فاتجهت لقاعة التشريح , وهناك رأيت جثة الفتاة راقدة على إحدى طاولات التشريح..كانت على أول طاولة فى قاعة التشريح ولم يكن فوقها ملاءة أو غطاء ما ..لقد كانت واضحة تماما ولم يكن من العسير ألا ألحظها.

-ألم تشك أنها إحدى جثث المشرحة وخاصة انها كانت محفوظة بالفورمالين ولاتختلف كثيرا عن باقى الجثث التى حولها؟

-لم يكن هذا ممكنا ..أنا اعرف الجثث الخمس الموجودة بالمشرحة ..كما ان هذه الجثة كانت مازالت بكامل ملابسها والجثث الأخرى عارية تماما ..كان من العسير أن أخطأها,وألا أدرك أنها لاتنتمى للمكان.

-وهل لاحظت حينها أى شيء غير طبيعى فى المشرحة, شيئ ما في غير مكانه مثلا..أشياء مبعثرة بجوار الجثة..أتذكر شئ من هذا

-لا ..لقد كان كل شئ فى مكانه ..الشئ الوحيد الغريب هو تلك الفتاة .. أقصد جثتها..كانت على طاولة المفترض أنها كانت فارغة .

-وماذا عن جثة الفتاة محفوظة بالفورمالين ,هل وجدت بجوار الجثة أى شيء يدل على حقنها بالفورمالين..محاقن مثلا ..آنية ..سوائل ..أشياء كهذه.

حاول عبدالتواب أن يتذكر..كانت ذاكرته قويةمنظمة طالما إفتخر بها..كان من اليسير عليه ان يتذكر أى شئ حدث له ,حتى لو كان هذا منذ زمن بعيد ,ولهذا استطاع أن يستحضر بسهولة من ذاكرته, كيف وجد الفتاة ..لم يكن بجوارها أى شيء فقال بعدها واثقاً:

-كلا ..لم يكن هناك شئ من هذا..كانت تلك الجثة راقدةً على المنضدة ..ولاشيء بجوارها على الإطلاق.

-وماذا فعلت حين وجدت الجثة ؟

-أسرعت حينها إلى أمن الكلية لأخبره ,كى يتصل بالشرطة,واتصلت بالدكتور نعيم لأخبره .

هز وكيل النيابة رأسه بتفهم, وصمت للحظات أخذ خلالها يعبث فى ولاعة سجائره دون أن يخفض عينيه عن عبدالتواب الذى أخذ يتحاشى نظراته .. بعد هنيهة عاد وكيل النيابة لأسئلتهوهو يقرأ اسمين من ورقه أمامه :

-لقد ذكرت أن منصور ,ومتولي لم يكونا بالمشرحة حين أتيت ..أكان طبيعياً أن يغادرا المشرحة, ويتركانها مفتوحة هكذا ؟

-الطبيعى ألا نغادر المشرحة قبل أن نتأكد من إحكام إغلاقها .. وكان من المفترض أن يكونا بالداخل حين ذهبت ..لقد قضيا ليلتهما بها ليحرسانها , لكنى لم أجدهما حيت جئتها..

-إذا فقد تركا المشرحة قبل أن تأتى ,ولابد أن سبباً ما قد دفعهم لذلك .. برأيك ماذا قد يكون قد حدث؟.

-لست أدرى ..

صمت وكيل النيابة مرة أخرى ,واستمر بالعبث بالولاعة الحديدية لفترة ,ثم نظر إلى عينى عبدالدايم مباشرة ,وقال ببطء:

-فى الآونة الأخيرة هل حدث شيء ما غير طبيعى بالمشرحة, لك أو لأحد زملائك ..هل لاحظت أمرا ما غير طبيعى فى المشرحة ,أو رأيت غريبا ما يحوم حول المشرحة.

هنا ارتفعت نبضات قلبه أكثر ..تردد عبدالدايم للحظة, وفكر ..هل يخبره ماحدث له بالمشرحة, أم يكتمه فى نفسه.. لكنه فى النهاية حسم أمره، وقص عليه ماحدث له.

ارتسمت ابتسامة استخفاف على وجه وكيل النيابة ,وقال ساخراً:

- لقد أفدتنا كثيرا ياعبدالدايم بقصتك هذه ..على العموم إننا نتوقع منك أن تبادر بإبلاغنا بأى شيء تراه أو تسمعه ,وتظن أنه قد يفيدنا فى هذه القضية ..أليس كذلك؟

وعده أن يفعل ,ولأنه لم يكن هناك مايدينه فقد أمر وكيل النيابة ,بإخلاء سبيله..

بعدها تم التحقيق مع حارسى أمن البوابة ..لم يضيفا الكثير ,فقط ذكر الأول أنها قد أتت فى الصباح بعد السابعة بقليل وذكر الآخر, وكان هو المسئول عن الباب الخلفى للكلية, أشار إلى أن عم منصور ومتولى قد غادرا الكلية بعد صلاة الفجر مباشرة ,ولم يرهما يعودان مرة أخرى..وأضاف الحارس أنهما بديا فى عجلة من أمرهما, وكانا مرتبكين للغاية ؛بدت المعلومة مهمة وخطيرة , فوجد نفسه يفكر إن كان منصور ومتولى قد فعلاها..أم أن هناك أمر اً آخر قد دفعهما إلى ترك المشرحة فى وقت مبكر كهذا ..

انتبه للرائد محمد وهدان الذى دخل عليه فى تلك اللحظة .. رحب به, و أشار إليه بالجلوس ,وهو يقول له:

-أتمنى أن يكون الحظ قد حالفك, وتوصلت إلى شيء ما .

أجاب الرائد محمد بإجهاد وغبتسامة باهته تزين شفتيه:

-لا شيء على الاطلاق..لا أصدقاء لها بالكليه ..وقد تعرف عليها حارس الأمن بالكلية حين عرضت عليه صورتها ,وأخبرنى أنها كانت أول من أتى فى الصباح من الطلاب ..كان هذا بين السابعة والسابعة والنصف صباحاً تقريباً.

-لقد اخبرنى بهذا بالفعل ,والجريمة قد اكتشفت فى حوالى الثامنة ..إذن فقد تمت الجريمة فى مدة لاتتجاوز النصف ساعة ..ألاتجد أن هذا عسير التصديق.

-إنه كذلك بالفعل..إننا نتحدث عن جريمة قتل ,يقوم فيها القاتل بحفظ الجثة بالفورمالين بعد قتلها ,ويقوم بعدها بإزالة آثار الجريمة, ثم يعيد كل شيء كما كان فى المكان.. من المستحيل أن تتم جريمة كهذا مهما كانت مهارة القاتل, أو حتى عددهم لو

كانوا عدة أشخاص فى نصف الساعة..أمر كهذا بحاجة لعدة ساعات على الأقل كى يتم بهذه الصورة التى رأيناها.

-إنه أمر محير بالفعل..وواجبنا ان نكشف سر كل هذا الغموض.

قالها وكيل النيابة بإحباط,وخيم الصمت للحظات بينهما,بعدها عاد ليقول :

-وماذا عن أهل الفتاة ؟..هل أخبروك بشئ ما قد يفيدنا ؟..

-حالهم فى منتهى السوء ..الأم منهارة للغاية ,والأب كذلك , إلا إننى استطعت التحدث إليه.

رمقه وكيل النيابة الشاب باهتمام وانتظر أن يكمل,فاستطرد الرائد محمد:

-هو يؤكد أن ابنته قد غادرت المنزل فى السادسة والنصف بصحبته , حيث يقوم بتوصيلها بسيارته إلى الكلية كل يوم , وقد وصلوا إلى الكلية قبل السابعة بدقائق ,فتركها أمام باب الكلية قبل أن ينصرف.

-إن هذا يؤكد رواية الشهود ,ويؤكد توقيتنا المحدد للجريمة ..لكن ألم يخبرك لماذا جاءت مبكرةً هذا اليوم؟.

-يظن أنها ربما أرادت حجز مقعد فى الصفوف الأمامية فى مدرج المحاضرات.. لقد أخبرته قبلها أن المدرج يكون مزدحماً للغاية ويجب أن يأتى الطالب الذى يبغى مقعداً متقدماً مبكراً قليلاً.

-هذا محتمل .. لكن علينا أن نعلم هل ذهبت إلى المشرحة من تلقاء نفسها أم أن هناك من دفعها لذلك ..ألم تعلم منه غن كان

يشك فى احد ما قد يفعل هذا ..أو اعداء له قد يقومون بأمر كهذا ؟..

-إنه لايصدق أن هذا قد حدث لإبنته..إنه لايتهم أحدا وذكر مرارا أنه لا أعداء له ..

- وماذا عن عاملا المشرحة اللذين غادراها دون سبب مقنع تلك الليلة .. ألم تصلوا إليهما بعد؟

-هناك من ذهب لإحضارهما ..لكن هل تعتقد أنهما قد يكونا الفاعلين؟

-لقد غادرا المشرحة قبل حدوث الجريمة بوقت طويل, وهذا يبعد الشبهة عنهما..لكنى أظن أن لديهما ما قد يفيدنا فى قضيتنا هذه ..عليهما أن يفسرا لنا لماذا غادرا المشرحة هكذا وكأنهما يفران من شئ ما بهما ..ربما رأيا شيئا ما قد يفيدنا أن نعلمه فى قضيتنا تلك ..

(15)

"هذا عجيب .."

هتف بها الدكتور هشام , وهو يتطلع إلى جثة الطالبة التى يقوم بتشريحها بمعاونة الدكتور محمود , ثم أشار إلى الجثة بتوتر ,وهو يقول:

-هذه أول مرة أرى شيئاً كهذا فى حياتى..لا نقطة دم واحدة فى العروق.. كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا ..هذا مستحيل تماماً.

كانا يدركان أنه من المستحيل أن تخلو جثة ما تماماً من الدماء .. فلابد أن تتبقى كمية ما من الدماء فى الجثة مهما كان ماتعرضت له من أذى ..فحتى لو قمت بتمزيق الجثة إربا فهناك دوماً دماء باقية فى نسيج أو تجويف أو عرق ما..

عقد الدكتور محمود كلتا يديه خلف ظهره, وهو يقول :

-السؤال الذى يجب أن نجيب عليه هو أين ذهبت دماء الفتاة؟! ..لاثقوب خارجية ..لا إصابات أو كدمات بأى مكان بجسدها..جميع الأوردة والشرايين السطحية سليمة ..إذن كيف فقدت دماءها؟.

غمغم الدكتور هشام بصوت خفيض ؛ربما خشية أن يبدو رأيه سطحياً أمام أستاذه:

-ربما كان هناك نزيف داخلي بداخل أحشائها ؟..

تطلع إليه الدكتور محمود للحظة قبل أن يهز رأسه نافياً:

-لايوجد نزيف داخلى يفعل شيئاً كهذا .. أى نزيف داخلى هذا الذى لم يترك قطرة دم واحدة فى عروق الفتاة؟..فحتى لو انفجر الشريان الأورطى ,وتمزق تماماً, وأفرغ كل دمائة بأحشائها, سيبقى بعض الدماء بالأنسجة والشرايين ..الأمر يبدو هاهنا, وكأنما امتصت دماءها تماماً.

تطلع إليه د.هشام بفضول وحيرة,وغمغم بحذر:

-ألاتوجد سابقة لشيء كهذا؟

-لوكانت هناك سابقة لجثة تخلو من الدماء, فإننى أجزم أننى لم أسمع عنها ..أن يفقد الإنسان كل دمائه ,أمر لم نسمع عنها إلا فى قصص مصاصى الدماء الخرافية..وأرجو ألانضطر فى النهاية لإتهام مصاص دماء بفعل هذا معها.

ابتسم الدكتور هشام لطرافة التعليق ,وقد تخيل أن يكتب تقريراً رسمياً يجعل فيه القاتل مصاص دماء , فقال مازحاً محاولاً تبديد بعض التوتر الذى يعصف بهما:

-ربما نلجأ لهذا التفسير فى النهاية, لو عجزنا عن الإجابة عن الألغاز التى تتعلق بهذه الفتاة.

هز الدكتور محمود كتفيه ,وهو يقول برصانة دون أن يلتفت لما فى الأمر من دعابة:

-حتى لو كان من أحدث هذا مصاص دماء، فأين آثار أنيابه على جلدها ..إن عملنا قائم على العلم والأدلة والبراهين ,ولو قدمت لهم احتمالا كهذا, عليك قبلها أن تخبرهم من أى وعاء دموى امتُصت دماؤها ,كما أن عليك أن تجيب عن سؤال آخر مهم للغاية..

رمقه الدكتور هشام بترقب, واهتمام ,وهو يعدل من وضع نظارته الطبية فأكمل :

-كيف تم حقن أوردتها بالفورماليين دون أن نجد أثراً واحداً لذلك المحقن.

جالت عينا الدكتور هشام على الجثة صامتاً ..لم يكن يملك إجابة لتساؤلاته, وإن كان قد شعر بالارتياح لوجود الدكتور محمود معه ..تخيل كل هذه الأسئلة التى عليه أن يجيب عليها , وماذا سيفعل لو لم يكن الدكتور محمود معه ..

أخرجه الدكتور محمود من خواطره, وهو يلتقط أحد أدوات الجراحة بيده ,وينحنى نحو جثة الفتاة قائلاً:

-إذن هيا بنا نكمل عملنا ,فربما وصلنا إلى إجابات لحيرتنا هذه..

(15)

في اليوم التالى جلس الدكتور نعيم على مكتبه شارداً مكتئباً .هل يتحول عامه الأول كرئيس لقسم التشريح بالكلية إلى كابوس وفشل ..فى البدايه كان عدد غير كافي من الجثث ..بعدها أحداث غريبة تجرى فى المشرحة لأول مرة ..والآن هناك طالبة تُقتَل بصورة غامضة بالمشرحة ,ومازالت عجلة الألغاز تدور وتمرح بلانهاية ..

ترى ماذا يخبأ لة الغد؟..

كان بحجرته الدكتور مصطفى صديقه الحميم ,وإن كان يكبره بأعوام ..كان الرئيس السابق للقسم ,قبل أن يصل للسن القانونى للمعاش, فانتقلت رئاسة القسم له بعدها..

قال الدكتور مصطفي ,وهو يتابع الدكتور نعيم الذى اشعل سيجارته -ربما- المائة فى هذا اليوم:

- أشعر أن هناك أمراً غامضاً يجرى فى الخفاء بالمشرحة .. لست أظن أن حادثة قتل تلك الطالبة جنائي تماماً..إن خلف مقتلها لغزاً ما..

هز الدكتور نعيم كفه التى تقبض على سيجارة بإعياء, وقال متسائلاً:

-وهل تعتقد أن الأمر بحاجة للمزيد من الألغاز ..لقد ماتت الفتاة وهذا يكفى لأن يصير الأمر كابوسيا لي.

-لكنى لا أجد أى مبرر لقتل تلك الطالبة ,كما أننى لا أفهم ماهدف القاتل من حفظها بالفورمالين ؟.. إننى أتساءل ,هل نواجه هاهنا مختلاً عقلياً قاتلاً ويعيش بيننا؟..وإن كان الأمر كذلك ,فمن تراه يكون ؟

-إن كل هذا لايهمنى,كل ما حنقنى هو أمر واحد.. فمهما كان مايصبو إليه ذلك القاتل الحقير ,فقد نجح فى إفساد العام الدراسى برمته ..

هنا قال الدكتور مصطفى بحزم محاولاً انتزاعه من كآبتة :

-أنت تبالغ كثيرا فى هذا يانعيم..إنها مجرد أحداث عابرة وستمر ,وسيعود كل شيء بعدها كما كان وأفضل..كل عام وله مشاكله ..لقد واجهت مشاكل مماثلة من قبل كنت شاهدا عليها حينها ,وجميعها انتهت كما تعلم ..هل تذكر مشكلة المعدات التى سرقت منذ عامين..لقد كاد الأمر أن يصل للنيابه ,وفى النهاية انتهى الأمر ومر ..

تطلع إليه الدكتور نعيم بشك ,وكأنه لايثق فيما يقوله الدكتور مصطفى, واستمر بتدخين سيجارته ,ثم غمغم بصوت خافت لم يسمعه هو نفسة تقريباً:

-أتمنى هذا !

ارتفع صوت طرقات على الباب فرفع رأسه نحو الباب وصاح:

-ادخل..

كان القادم هو عم منصور..كان يحمل وجهاً شاحباً مكدوداً ومرهقاً , احتشدت تجاعيده, وتكاثفت فأضفت عشرات الأعوام فوق عمره ..بدا كأنما لم ينم منذ أعوام ..

بادره الدكتور مصطفى مرحباً, ومشفقاً مما حدث له :

-إذاً فقد عدت يارجل ..متى أطلقوا سراحك؟..

ارتسمت ابتسامة باهتة على فمه قبل أن يجيب:

- منذ قليل ..لقد أخرجونى بعد التحقيق معى, ومتولى كذلك.

أشار إليه الدكتور نعيم بالجلوس قائلاً:

-اجلس يامنصور ..وقل لى أولاً ..لماذا تركتم المشرحة أول أمس قبل الفجر كما علمت؟

جلس عم منصور بإعياء , وابتلع ريقه بصعوبة ,قبل أن يقول بإرهاق:

-لا أدرى هل ستصدقونى,أم تتهمونى فى عقلى,كما فعلوا معى فى النيابة ؟

قال الدكتور مصطفى مطمئناً إياه باهتمام حقيقى:

-لن يحدث هذا منا نحوك ..ومهما كان ماسوف تخبرنا بع غريبا فلن نكذبك..إن رجال الشرطة والنيابة لايعرفونك,ولهذا قد يشككون فيماتقوله؛ لكننا هاهنا نعرفك جيداً, وكلنا يعلم مدى صدقك وأمانتك.

أطرق رأسه للحظة متردداً, قبل أن يقص لهم ماحدث له ,ولمتولى بالمشرحة ..استمع إليه الاثنان بتعجب ودهشة ..لكنه ما إن انتهى حتى فوجئ بالدكتور نعيم يصيح فيه بعصبية:

-وهل تطلب من عاقل أن يصدق قصة مثل هذه .؟ أنت تتحدث مرة أخرى عن الجان والعفاريت ,وتلك الخزعبلات التى لا أول لها ولا آخر ..هذه أشياء؛ كما قلت لك تصلح أن تقصها فى قريتك في ليالى الصيف لتخيف الصغار والبلهاء..ربما توهمتم ماحدث لأنكم تناولتم شيئاً ما ,أو ربما كان هناك من يريد إفزاعكم ؟..

فوجئ عم منصور بعصبية وسخرية الدكتور نعيم ,فلاذ بالصمت إلا أن الدكتور مصطفى مال نحوه ,وقد عدل من جلسته ,وقال باهتمام:

-هل قلت أن من هاجم متولى كان فتاة؟..

التفت إليه عم منصور ,ورد بحذر:

-هذا ماقاله متولى..لقد كنت بداخل الغرفة ,ولم أر أى شيء مما حدث له.

-وهل رآها جيداً؟ ..أعنى هل يستطيع أن يصفها مثلا؟

صمت عم منصور ,فقد خشى أن يسخر الدكتور نعيم من إجابته؛ إلا أنه حين وجد أن كليهما ينظران إليه بترقب فى انتظار إجابته ,طرح تردده جانباً, وأجاب ببساطة:

-يقول إنها جثة الفتاة التى جلبها للمشرحة.

تطلع الاثنان إليه بدهشة قبل أن يطلق الدكتور نعيم ضحكةً ساخرةً, ويقول:

-جثة الفتاة هي من هاجمته؟..أي مخدر رديء تناوله هذا الأحمق ..إنها جثة..جثة يارجال انتهى أمرها للأبد ..هل رأيت جثة من قبل تهاجم أحداً ما؟..هل ردت إليها الروح من أجل أن تخيفه, ثم عادت لموتها ثانية ؟ ..إنكم تهزلون يارجل وتمزحون...

وجم عم منصور ,وأطرق برأسه أرضاً, بينما غرق الدكتور مصطفى فى التفكير .. فأكمل الدكتور نعيم بضجر :

- من الأفضل أن تحتفظوا بقصصكم وأوهامكم هذه بصدروكم ..وإياكم أن تحدثوا أحداً ما عنها ..لا أريد المزيد من البلبلة هنا ..كفانا هاهنا حادث مقتل الفتاة ..

كان عم منصور قد توقع ألايصدقة, وأعد نفسه لهذا ,فلم يضايقه عدم تصديق الدكتور نعيم لما يقوله .. كما أنه لم يأتى الأن من أجل هذا, بل جاء من أجل غرض آخر ,لذا قال بهدوء :

-أريد أن أخبرك يادكتور أن جميعنا صار يشعر بالفزع من المشرحة ,ولا أحد منا يرغب فى المبيت فى المشرحة بعد الآن..لقد طالبنى كل العمال بإبلاغك بهذا .

هنا أجابه الدكتور نعيم بلا مبالاة:

-لابأس بهذا ..أنا أيضاً أرى أنه من الأفضل ألا يتواجد أحد ما بالمشرحة هذه الأيام ,بعد انتهاء اليوم الدراسى ..لكن عليكم أن تتأكدوا من إغلاق المشرحة بإحكام, قبل أن تغادروها كل يوم .

شعر عم منصور بالارتياح لهذا القرار فشكره وانصرف ..

وقال الدكتور نعيم بعدها محدثاً الدكتور مصطفى بعد أن اختفى عم منصور:

-هل سمعت مايقوله ؟.. إنه يتحدث عن جثة عادت للحياة كى تعبث معهم .. إنني بالكاد أصدق أننى أسمع هذا الهراء ,هل تتخيل ماذا سيحدث لو سمع الطلاب مثل هذا الهراء ..ستعج المشرحة بالفوضى التامة.

-إننى أوافقك بالتأكيد في ضرورة أن نكتم مثل هذه الأخبار عن مسمع الطلاب منعاً للبلبة..لكننى أعلم منصور هذا جيداً,ولا أعتقد أنه يكذب ..هناك أمر ما غير مفهوم يدور هاهنا ,ولهذا أرى أن نتحقق من الأمر , وألا نكتفى برفضه,وتجنب التفكير فيه ,إن جريمة القتل التي تمت هاهنا مازالت أسبابها غامضة , وأخشى أن أقول إننى أتوقع ألا تكون الأخيرة .

(17)

ابتسم الدكتور محمود ,حين رأى الدكتور هشام يدلف باب حجرة مكتبه, وقال الأخير محرجاً:

-أرجو ألا أكون قد أزعجتك أو عطلتك عن عملك حين أتيت بغير ميعاد.

أجابه الدكتور محمود علي الفور ,وهو يدعوه للجلوس مرحباً وابتسامة عريضة ,ومرحبة ترتسم على وجهه:

-بل لقد اسعدتنى زيارتك هذه يادكتور هشام,بل وقد كنت أنتظرها فى الواقع.. لكن أخبرنى فى البداية ,ماذا تحب أن تشرب؟

- لو كنت مصراً فهى القهوة السادة.

استدعى الدكتور محمود عامل البوفيه, وأمره بإحضار فنجانين من القهوة السادة ,وما إن انصرف ,حتى سأل الدكتور هشام باهتمام:

-ماهى آخر أخبار التحقيقات بشأن مقتل طالبتنا..هل هناك من جديد.

أجابة الدكتور هشام بسرعة ,وكأنه ينتظر هذا السؤال :

-لقد أتيت اليوم من أجل هذا ..إنهم يطالبوننى بتقرير عن سبب الوفاة .. وبالطبع من المفترض أن نشترك فى إعداده معا ..فأنت مثلى صرت مكلفاً بإعداده بصورة رسمية.

هز الدكتور محمود رأسه متفهماً قبل أن يقول:

-فى الواقع سبب الوفاة هو سبب تأخيرى فى تقديم تقريرى بنتيجة التشريح ..فما زلت لاأعلم كيف ماتت تلك الفتاة ,كما أننى افتقد لإجابات الألغاز الأخرى التي واجهتنا معا حين قمنا بتشريح جثة الفتاة ..فجثتها كانت خالية من الدماء بلاسبب..ولاندرى كيف تم حقنها بالفورمالين ..وكيف تم هذا فى تلك الفترة القصيرة التى لاتتجاوز النصف ساعة ..لاحظ أننا لم نستفد كثيراً من تشريح الجثة ..فباستثناء الأنسجة المتشبعة بالفورمالين لا شيءآخر ذو بال وجدناه .غير القلب الضامر الفارغ تماما من الدماء هو الأخر..

It was completely collapsed-

-هذا صحيح ..إننى لم أرى شئ كهذا من قبل ..بدا وكانه بالون تم تفريغه من الهواء تماما..تمنيت لو إحتفظت بالقلب لتتم دراسة كيف صار هكذا ..أعتقد أننا لو فعلنا لإكتشفنا ظاهرة جديدة .

-الجثة كلها تصلح للدراسة كظاهرة جديدة وليس القلب فقط يادكتور محمود ..إنها كنز حقيقى لعلماء الطب الشرعى والتشريح.

-لا أعتقد أن أهلها سيوافقون ابدا على أمر كهذا ..إن العبث بالجثث أمر مرفوض تماما فى مصر كما تعلم .

مط الدكتور هشام شفتية بتوتر وغمغم:

-هذا صحيح للأسف ..لكن دعنا من هذا وأخبرنى.. ماذا تقترح أن نكتب فى تقريرنا ؟!

-لا أدرى يابنى ..حقاً إننى مستاء ؛لأننى لم أقدم لك الدعم الذى كنت تتوقعه منى ..لكن القضية غامضة بالفعل بصورة لم أعهدها من قبل ..

صمتا لبعض الوقت قبل أن يقول الدكتور هشام بتردد:

-أرجو ألاتسخر مني فيما سأقوله لك ..إننى أشك أننا نواجه أمراً غير مألوف في قضيتنا هذه ..أمراً أشبه باللعنات الغامضة والأمور الخارقة .فلا يوجد أى شيء منطقى فى هذه القضية على الإطلاق.. والكيفيه التى ماتت بها الفتاة من المستحيل علميا أن تكون فعلاً بشرياً ..ألست توافقنى فى هذا ؟.

رمقة الدكتور محمود بدهشة, وصمت مفكراً فى كلماته ,وهو يهز رأسه ببط ثم قال بهدوء:

-لا أرحب في الواقع بهذه التفسيرات الخوارقية ..ودائماً أنفر منها ..لكن للأسف هذه أول مرة لا أرى البديل المنطقى عنها .

دخل عامل البوفيه في هذة اللحظة ,ووضع القهوة أمامهما ثم انصرف بصمت, فاستطرد الدكتور محمود متسائلاً, وهو يشير بيده نحو القهوة داعياً الدكتور هشام لتناول فنجانه:

-وماذا عن البصمات والأدلة الأخرى؟..هل قادتكم إلى شيء؟

تناول الدكتور هشام فنجان قهوته, وارتشف رشفةً منه ثم أجاب :

-لم تضف شيئاً.. فلا بصمات غريبة وجدوها ,غير بصمات العمال , والأطباء بالقسم..إنها قضية الألغاز الكثيرة للجميع.

تناول الدكتور محمود فنجانه هو الآخر, وارتشف منه رشفةً صغيرةً, وسأله:

-وماذا عن المشتبه فيهم ..سمعت أنهم في البداية اشتبهوا في عاملين بالمشرحة قبل أن يطلقوا سراحهما..

-لم يصلوا معهما لشيء ..والفتاة كذلك لا أعداء لها أو لأهلها .. ولم يتهم والدها أحد ما ..

صمت بعدها للحظة؛ ليشرب بعض قهوته, وأكمل::

-رجال المباحث أيضاً يتخبطون في الظلام,فلاخيط أمامهم ليمسكوا به في هذه القضية..إنها أغرب قضية رأيتها في حياتي!..

أنهى الدكتور محمود قهوته ,فوضع الفنجان أمامه ,وقال وهو يمسح فمه بمنديل ليزيل آثار القهوة عنه:

-إذاً فعلينا أن نتمهل قليلاً قبل تقديم تقريرنا..لقد نويت أن أرسل نتائج التشريح ,وبعض الصور إلى بعض أصدقائى بالخارج لآخذ مشورتهم..فربما صادفوا فى عملهم شيئاً كهذالم نصادفه فى عملنا هنا..وربما كانوا أكثر حظا منا وعلموا كيف تم الأمر.

كانت فكرة جيدة ,راقت للدكتور هشام كثيرا , فقال بحماس:

-اقتراح ممتاز..فعقول عدة تفكر فى القضية خير من عقل واحد بالتأكيد , وربما مانراه هنا للمرة الأولى ,قد صادفه غيرنا من قبل ..سوف أنتظر نتيجة مراسلاتك,وسوف أتابع التحقيقات فى القضيه,فربما قادتنا جميعا لشيء ما.

نهض بعدها لينصرف, وقال مودعاً, وهو يمد يده مسلماً على الدكتور محمود وعلى شفتيه ابتسامة مرهقة:

-لو اكتشفت شيئاً سأخبرك على الفور ..وسوف أنتظر نتائج مراسلاتك ..

نهض الدكتور محمود مودعاً, وراقبه حتى غادر الحجرة ..ثم عاد لمقعده ثانية ,وظل صامتاً لفترة قبل أن يقول بشرود:

-أتكون حقا لعنة ما ؟..

(18)

مر أسبوع كامل, و لم يحدث خلاله أى شيء غير طبيعي بالمشرحة .. قرر مجلس القسم لمادة التشريح خلالها , مد فترة الدراسة النظرية للطلاب, قبل السماح لهم ببدء الدراسة العملية على الجثث بالمشرحة ..

راح الجميع خلال هذا الأسبوع يترقبون أن يحدث شيء ما بالمشرحة .. لكن بعد أن انتهى هذا الأسبوع بهدوء دون أن يعكر صفوه شئ ما , قرر الدكتور نعيم رئيس القسم بدء إعداد الجثث للدراسة ..

كان الأمر يقتضى تشريح أجزاء بسيطة من الجثث في البداية , وليس كما يتخيل البعض بأنه يتم تشريح الجثة بأكملها مرةً واحدةً..

فمثلاً ,يدرس طلاب الفرقة الثانية الرأس والعنق ؛لذا يقتضى الأمر فى البداية إظهار بعض الأعصاب والأوردة والعضلات لهم مع عدم المساس بمساراتها الأصلية ؛كى يرى الطالب بعينيه وضع ومسارات هذه الأنسجة الصحيح بالجسم ..كما يدرس طلاب الفرقة الأولى فى البداية الطرفان العلويان .. وهذا يقتضى تشريح هذه الأجزاء فقط..

كان من يقوم بعملية التشريح هم المعيدون القدامى بالقسم وليس الطلاب بالطبع..الجثث قليلة للغاية ومن العسير تعويضها لو أتلف طالب ما جزء منها,لذا لايقوم الطلاب بالتشريح إلا فيما ندر .

بداخل قاعة المشرحة التف ثلاثة معيدين حول الجثث من أجل تشريحها ..كانت عملية شاقة شاقة لاتحتمل أى خطأ..فالقاعدة هنا صارمة للغاية ؛إياك أن تمزق أو تغير من مسار أى عضلة أو عصب أو وعاء دموى ..عليك أن تكشفه, وتظهر مساره بحرص ثم تتوقف ..

كان الثلاثة هم ,الدكتور شريف ,والدكتور حاتم ,والدكتورة زينب ,وراح كل منهم يعمل بمفرده على إحدى الجثث.

قال حاتم مازحاً بطريقته الساخرة التى اعتادها زملاؤه, وهو يمسح بكُم البالطو الأبيض الخاص به حبات من العرق تفصدت على جبهته بسبب الحر ورائحة الفورمالين الخانقة التى تحيط بهم:

-لم أتخيل حين دخلت الكلية أن ينتهى الأمر بى هكذا..كنت دوما أرى نفسى طبيبا منهكما بإنقاذ عشرات الأرواح فى وقت واحد وحوله عشرات الممرضات ينتظرن أوامره ..والأن إنتهى بى الأمر بالعمل كصبى جزار فى هذه المشرحة.

ابتسمت زينب لدعابته, وقالت دون أن تنظر اليه, وهى تبحث بعينيها عن أفضل نقطة يظهر من خلالها أحد أوردة الرأس فى الجثة التى تعمل عليها:

-ومن الجزارون إذا ,مادمت أنت الصبى ؟..

-أطباؤنا العظام بالقسم بالطبع..أبناء أبى الهول ياعزيزتى..هل ترين جزارين حولك غيرهم ..كلنا هاهنا ياصغيرة جزارين ,لكننا نختلف عن الآخرين بأننا ببدلة أنيقة ,ورباطة عنق لطيفة.

أطلقت زينب ضحكةً خافتةً ,فى حين قطب شريف حاجبيه بضيق, وقال له جاداً, وهو يتوقف عن عمله ويلتفت نحوه :

-ألا تكف مرةً واحدةً عن السخرية من الأساتذة الأجلّاء هاهنا..أنت تتصرف دائماً كطالب خائب ,لايجيد إلا السخرية من معلميه ,كى يدارى فشله وبلادته.

رد علية حاتم بلهجة ساخرة على الفور :

-لن أفعل ,قبل أن تكف أنت عن لعب دور الطالب المتملق لأساتذته ؛كى يصل الى مآربه..

رمقه شريف بعصبية ,وقد احتقن وجهه ,وقال بغضب, وهو يلقى بأدواته الحادة التى يعمل بها فوق المنضدة الرخامية التى أمامه :

-أنت تعلم أننى لا أتملقهم ولا مآرب لى عندهم ..إننى أحترمهم, وأقدر علمهم ,وإذا كنت تفسر الاحترام تملقاً؛ فأنت مريض وفى مشكلة حقيقية.

- أحقا لاتفعل ولاتتملقهم؟!..يبدو أننى قد اخطأت الحكم عليك يارجل , وهذا يعنى أن علي أن أعتذر إليك, أرجوك لا تخبرنى أن علي أن أفعل.

هنا اشتعلت شياطين الغضب كلها فى وجه شريف..ورمق حاتم بنظرات نارية ,وفكر للحظة أن يتشاجر معه قبل أن يتمالك نفسه, وينهض بغضب, ثم ركل مقعده بقدمه ؛فسقط بصوت مدوى ,وغادر المشرحة ,وهو يهتف بحنق:

ـ أنت بالفعل إنسان لايطاق ..ويوماً ما سوف ترى أيّنا سيعلو شأنه ,ومن سيظل كما هو دائماً ولن يتغير.

كان يكره جداً أن يصف أحد ما أسلوب تعامله واحترامه الشديد لأساتذته بالقسم بالتملق والنفاق..إنهم أساتذته ومعلموه..ألم يمدحهم الله فى كتابه حين قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء), أفلا نعطيهم نحن حقهم فى الاحترام والتقدير لمكانتهم ..كان دوماً يبوح لزملائه بهذا الكلام المنمق الرائع .. لكن هل كان حقاً يؤمن بما يدعيه؟..

كان فى أعماقه يدرك أنه بالفعل يتملقهم ,ويتودد إليهم لأسباب آخرها هو احترام مكانتهم العلمية كما يزعم..كان يتطلع لأن يصل إلى أعلى درجة ممكنة له فى أقصر وقت ..وكان يرى أن طريق النفاق هو أقصر الطرق جميعاً ..

إنه الطريق المباشر للارتقاء منذ بداية الحياة, وحتى نهايتها ..إن تاريخنا يعج بالمنافقين منذ الفراعنة ..ألم ينافق الشعب فراعينه فعبدهم ؟..أن النفاق ليس مذموما دائما مادام لن يضير احد ما به ..

كان يرى أن أمثال حاتم هؤلاء حمقى يئدون مستقبلهم المهنى بأيديهم .. من المستحيل أن ترتفع مكانتهم, بسخريتهم ومزاحهم هذا ..

لكنه كان يكره من يشعره أنه يعى مايجول بنفسه ..وكان حاتم أحد هؤلاء.. كان يحنقه تفوقه الدائم عليه ..فترتيبه فى الكلية دوماً كان يسبقه ,وسرعة استيعابه كانت مثيرةً لحنقه..

كان يشعر بالتعرى أمامه مهما حاول أن يتسلح بأقنعة مزيفة..كان هذا سبباً حقيقاً لكراهيته له, و كان هناك سبب آخر يحاول جاهداً ألا يدركة أحد ..

كانت بينهما زينب..الدكتورة زينب الوكيل..

الفتاة التى يحلم بها ويتمناها, ويشعر أنها تنتمى لعالم حاتم ..

كان يثير جنونه أن يسخر منه حاتم أمامها .. ويود أن يمزقه بأسنانه لو لمح ابتسامة ترتسم على محياها من سخريته منه.. لذا كان دوماً ,إما أن يتشاجر معه ,أو يحدثه بأسلوب عنيف,محاولاً تسخيف دعاباته وأفكاره ..هذه المرة لم يرغب فى أن يتطور الأمر إلى شجار, لذا اختار أن يغادر المشرحة, ولينتظر حتى ينتهيا من عملهما, ليعود ويكمل عمله هو الآخر..

بالداخل توقفت زينب عن عملها, واعتدلت على كرسيها, ورمقت حاتم بإعجاب, وهو منهمك فى عمله ..كانت تحب سخريتة ,وتهيم بلامبالاته وتعشق وسامته..

كانت مثل هذه الأشياء, تذكرها بأبطال الروايات الرومانسيين, فرسان الأزمنة البعيدة..أما شريف فكان يذكرها دوماً بالموظفين الحكومين, ذلك الصنف الذى يشعرها بالرتابة والملل,كان حاتم هو التجديد والمغامرة, وكان شريف هو الجمود والثبات ..كانا مختلفين ,ولم يكن صعباً على قلبها أن يختار بينهما ..كان فارسها هو حاتم ..

وبالرغم من هذا قالت له معاتبةً فور انصراف شريف غاضباً:

-لقد كنت قاسياً معه ياحاتم ..لم يكن هناك حاجة لأن تنعته بالنفاق وتسخر منه هكذا..كان من الممكن أن تتغاضى عما قاله لك.

هز حاتم كتفيه باستخفاف ,وهو ينتهى من فصل طبقة من الجلد تغطى وريداً صغيراً , وقال:

-لكنه ينافق ويتملق بالفعل ,فلماذا التجمل إذن؟!..

-لكنه زميلنا ..وبعض اللباقة فى التعامل معه لن تضير.

أطلق ضحكةً ساخرةً دون أن يتوقف عن عمله, وهو يجيب:

-إنك محقة فى هذا..أنا سأعامله بفظاظتى, و عامليه أنت بلباقتك..وهكذا يتحقق التوازن فى المعاملة.

ابتسمت, وهى تدرك أنه لافائدة من محاولة إثنائه عما يفعله, فعادت لتواصل عملها ..أخدت تقطع بيديها الأنسجة بمهارة, لكن عقلها كان فى كون آخر يمرح فيه فى عوالم من الجِنان .. عوالم يرسم حدودها حاتم فقط ولا أحد غيره..

وتنهدت بصوت خافت كى لا يلحظ ما يجول بخاطرها

(19)

اطمئن شريف إلى خلو المشرحة من حاتم وزينب, قبل أن يعود إليها ثانية ..كان يشعر حينها بضيق شديد ,وتمنى لو غادر المكان بأكمله ..لكنه لم يكن قد أنهى عمله بعد ,فلم يكن أمامه إلا أن يعود ثانيةً ..

اتجه إلى جثة الفتاة..كانت هى التالية بعد أن أنهى العمل بجثة رجل مشنوق..جمع حاجياته وأدواته من حول تلك الجثة التى أنهاها, واتجه بتؤدة إلى جثة الفتاة ..

سمع خطوات أقدام خلفه, فالتفت إلى صاحبها ..كان جمال عامل المشرحة أو البرميل المتحرك ؛كما يحب أن يدعوه بين زملائه ..قال له بشيء من الحزم والتعالى, كما اعتاد أن يعامل كل العمال:

-لماذا تقف خلفى هكذا ..هل تريد شيئاً ما ؟!

أجابه جمال بسرعة, وهو يمسح عن جبهته عرقاً احتشد عليها:

-إنها الثالثة والنصف يادكتور..

أخد شريف فى ترتيب أدواته على المنضدة التى أمامه بجوار الجثة, وهو يقول ببرود:

-وهل يعنى هذا أمرا ما مهما ؟

-إنه موعد انصرافنا ,ولم يبق إلا حضرتك ,وأنا هنا بالمشرحة.

-لتنتظر قليلاً ..إنها نصف ساعة فقط, وسأنتهى بعدها لنغادر سويا.

رد عليه جمال بإحراج بعد سبه فى سره :

-إن أتوبيس الساعة الرابعة الذى يقل الموظفين من الكلية , سوف يتحرك بعد قليل ,وأرغب فى أن أستقله .فجئت لأستئذنك أن أنصرف لألحق به.

لم يجبه شريف على الفور ,كما اعتاد أن يفعل حين يطالبه أحد العمال أو الطلاب بشيء ما ...كان يعجبه دوماً أن يشعرهم أنه الرجل المهم صاحب القرارات ,حتى لو كان الأمر تافهاً ..كأن يأتيه أحد الطلاب مثلاً راغباً فى تغيير مجموعته لمجموعة أخرى..حينها كان يتأخر فى اتخاذ قراره ؛كى يوحى لمن أمامه أن مايطلبه منه أمر جلل يستحق التأمل والتفكير, قبل أن يقرر.

لذا قال بعد فترة جاوزت الدقائق الثلاث, متشاغلاً خلالها بتجهيز أدواته, وجمال يراقبه بضيق وتململ, ولايكف عن سبابه فى أعماقه:

-حسنا يمكنك أن تنصرف ,وسأتولى أنا إغلاق الباب خلفى بعد أن أنتهى من هذه الجثة.

-ولكن الدكتور نعيم أمر ألا يمكث أحد بالمشرحة بمفرده أبداً.

-لا شأن لك بما أمر به الدكتور نعيم..اذهب الآن ولاتضيع وقتى.

قالها بصرامة فانصرف جمال محرجاً حانقاً عليه, متسائلاً فى نفسه عن السبب الذى يجعل البشر يتعالون على بعضهم البعض

..إنها وضاعة الأصل, والغرور ..من المستحيل أن يتصرف بتلك الطريقة الخشنة أحد من أصل طيب ..هكذا كان يرى السبب ..

لكنه بعد ثوان كان قد نسى كل شيء ..فما كان يهمه حينها هو أن يلحق بأتوبيس الكلية, وأن يجد به مقعداً شاغراً ,كى لايضطر للوقوف فيه حتى يصل إلى بيته.

أما شريف فقد واصل عمله, كشف الغطاء البلاستيكى عن الجثة التى أمامه, فطالعه وجه الفتاة بملاحة لم يطمسها الموت, ولاحجبها الفورمالين ..جميلة للغاية و فاتنة صاحبة تلك الجثة..

تطلع إلى ملامحها الدقيقة وتنهد..كانت تمثل الجمال الذى يحلم بأن يقتنيه يوماً ما حين يتزوج ..ويخشى دائماً ألا يظفر به لدمامته التى لاتخفى عليه ..

لكنه سرعان مانفض تلك الأفكار التى راودته عن عقله ,وامتدت يده إلى كفها الأيسر ليبدأ عمله, وبلاتردد مزق الجلد الداكن قليلاً بتأثير الفورمالين, كاشفاً عن أنسجته وأوردته بمهارة حقيقية.. اقترب من الوريد الأزرق الداكن ,وحاول أن يحدد مساره بعينيه,ثم أخذ يفصل طبقة الشحوم الخفيفة من حوله محاولاً ألّا يصيبه.

لكنه دون أن يشعر فوجئ بالمشرط الحاد الذى يعمل به يخترق الوريد فيمزقه ..كان خطأ معتاداً وكثيراً ما يحدث , وإن لم يتمن أن يحدث معه ..

اخترق المشرط الوريد؛ فاندفعت منه على الفور الدماء الحمراءالقانية .. دافئة ,سائلة ولزجة.. لوثت يده التى يعمل بها, وتسرب بعضها إلى الأرضية مكوناً بقعة من الدماء راحت تتسع

ببطء ..تطلع إلى الوريد بذهول, وهو يغمغم متراجعاً بظهره للخلف:

-دماء طازجة..أى عبث هذا؟!...

كان من المستحيل أن تتواجد دماء طازجة فى أى جثة بالمشرحة..فالدماء سريعاً ما تتجلط فور الوفاة ..هذا ماتعلمه ,ورآه دوماً ..

فمن أين جاءت هذه الدماء الطازجة الدافئة التى تنساب بغزارة الآن؟..

حانت منه التفاتة إلى وجه الجثة فارتعد..

كان وجهها حيئذ مربدا وممتلأً بالغضب ..كانت ترمقه بعينين براقتين انقعدت حواجبهما المرسومة بدقة فى غضب, وتقلصت العضلات حول فمها بصورة ذكرته بوجه أمه حين كانت تقسو عليه وتعاقبه .

دقات قلبه تحولت لطبول إفريقية تقرع صدره بلارقيب وضاقت أنفاسه فشعر بالإختناق..تراجع بظهره للخلف, وحاول أن ينهض من مقعده مبتعداً, فخذلته قدميه فهوى مع المقعد أرضاً ..شعر حينها بألم حاد بذراعه الأيسر؛ حيث اخترقه المشرط الذى كان يحمله بيده الأخرى ..

لم يبال بإصابته, ولا بدمائه التى انهمرت بغزارة من ساعده , وهو يحدق بعيون جاحظة مذعورة للجثة التى دبت فيها الحياة فجأة, لم تعد جثة الآن, وزال من جسدها كل أثر للموت .. نهضت من رقدتها وأخذت ترمقه بابتسامة ساخرة..لاحظ برعب أن ذلك

اللون الداكن المميز للجثث المحنطة قد زال عن بشرتها الآن.. لاحظ صدرها العارى الذى اختفى عنه تغضنه , فاستدار وصار مثيراً بصورة لاتقاوم ..

طالما حلم فى يقظته من قبل بامرأة تمتلك صدراً مثله ..لكن مثل تلك الأفكار لم تراوده فى هذه اللحظه ,لقد أذهب الهلع عقله, وذكرياته, وأحلام يقظته ..صرخ وهو يرتطم بمنضدة اعترضت طريقه, وهو يتراجع بظهره, فسقط أرضاً مرة أخرى ..

أراد أن يتلو آية الكرسي, فلم يتذكرها,كأنما تبخرت فجأة من عقله .. استمرت الفتاة فى التقدم نحوه ,وأخذ يتراجع بظهره زاحفاً , كأنما يخشى أن يوليها ظهره فتنقض عليه من الخلف ..حانت منه التفاتة إلى يدها التى قام بتشريحها منذ قليل فوجدها سليمة لا أثر لمبضعه فيها..

وفوجئ بها تقول بصوت رخيم, وهى تمد نحوه يدها كأنما تدعوه إليها:

-لا تخف أيها الصغير الجميل..اقترب منى ولاتخف..وأعدك ألّا تشعر بشيء..

هذه المرة انطلقت صرخاته المكتومة, فاستدار ,واندفع نحو باب المشرحة ليجده مغلقاً , ازداد رعبه ,وقد أيقن أنه قد صار حبيساً معها في المشرحة بمفردهما..فأخذ يطرق الباب بجنون عسى أن يسمعه أحد ما بالخارج فيأتى لنجدته ..ومن خلفه وصله صوتها قريبا من أذنه كثيرا ,قائلاً:

-كلكم حمقى.. هكذا أنتم أيها البشر..أنتم حمقى بالفعل.

شعر بأنفاسها الحارة تصطدم برقبته من الخلف..انتشر في الفراغ عبق أنثوى مثير..استدار بيأس ؛ ليجدها خلفه تماماً, ويديها تمتدان نحوه..حاول أن يدفعها بعيداً عنه بيديه, لكن يديه خانتاه فلم تستجيبا له..أحاطت وجهه بأنامل رقيقة حانية ,وهى تقول بصوت مخيف,وابتسامتها المخيفة تتسع فى وجهها كله:

-لقد صرت لى الآن ياصغير..توقف عن المقاومة ,ولاتخشى شيئا..سينتهى الأمر سريعا فلاتقلق.

هذه المرة قررت مراكز المخ العلوية, أن وقت الإغماء قد حان ..فهوى على الأرض مغشياً عليه .. للأبد.

(20)

لقد ولت الأيام الطيبة لتفسح للأيام التعيسة مكانها ..

هكذا فكر رئيس المباحث الرائد محمد وهدان ,وهو يرمق بحنق جثة الدكتور شريف الراقدة أمامه على أحد مناضد المشرحة ,وقد اكتسبت بشرتها لونا بنيا, لايختلف عن باقى الجثث المجاورة ,وتم حفظها بالفورمالين هى الاخرى .

راقب خبراء البحث الجنائى الذين انهمكوا مرة أخرى فى البحث عن أى دليل قد يقودهم إلى الفاعل ..شعر أنهم لن يصلوا لشيء هذه المرة أيضا, تطلع إلى ساعته؛ فأدرك أن الطبيب الشرعى ,ووكيل النيابة قد تأخرا كثيرا .. كان ينتظرهما منذ ساعة أو أكثر ,ولم يأت أيهما بعد..

أخرج سيجارة من علبة تبغه, وراح يحركها بين أنامله للحظات, ثم وضعها بفمه وأشعلها ,وأخذ ينفث دخانها بعصبية ,وأفكار كثيرة تتصارع فى عقله ؛ فشعر بالإجهاد ..

لقد اقترن به سوء الحظ هذه المرة, فألقى فى طريقه جريمتى قتل غامضتين فى مكان واحد, ويفصلهما أسبوع واحد..كان أمامه شهور قليلة قبل الترقية الجديدة التى حان موعدها, لم يكن ليحتمل الآن مفاجأة من أى نوع قد تعوقه عن الحصول عليها..عليه أن يزيح هذا الغموض, وأن يصل إلى القاتل ؛ وإلا صارت ترقيته فى مهب الريح ..

تكاثفت سحب الدخان الرمادية حول رأسه ,وهو يفكر, هل ولت الأيام المبهجة التى كانت قضايا القتل فيها نمطية بلا ألغاز حقيقيه..من قبل كان المتهم دائما موجوداً ,وكان يعلم كيف يوقعه, ويدفعه لأن يعترف بارتكاب الجريمة ..لو كان القتيل شاباً ابحث عن الزوجة والعشيق ,ولو كان رجل أعمال..فحتماً هناك عشيقة ما في الخفاء أو شريك أو منافس..إنها الجرائم التى اعتادها ويعرفها, ويعرف بحدسه كيف يصل إلى الفاعل فيها دون عناء حقيقى .

لكن الأمر هاهنا يختلف..إن جريمة مزدوجة كهذه تمت بهذه الصورة الغامضة لن يصلح لها أسلوب التلفيق ..كان من السهل أن يتهم أحد عمال المشرحة بفعلها ,وبالتأكيد سينجح فى إجباره على الاعتراف بفعلها ..لكن من يضمن له أن القاتل الحقيقى سيكف عن جرائمه بعدها مكتفياً بمن قتلهم..فلو لم يتوقف القاتل الحقيقى حينها, وارتكب جريمةً جديدةً , فسوف يبرئ هذا المتهم الذى لفق له التهمة ..وحتماً لن يكون موقفه أمام رؤسائه مقبولاً ..

وجد نفسه يلقى عقب السيجارة دون أن ينتهى منها تحت حذائه ,ويدهسها بعنف ,وهو يتمتم :

-اللعنة !

انتبه فى تلك اللحظة إلى وكيل النيابة الشاب, الذى اندفع بخطوات سريعة إلى داخل المشرحة ,وقد بدت علامات الترقب على خلجاته, ثم توقف لحظة فى منتصف القاعة الواسعة ,مسحت خلالها عيناه المكان المكتظ برجال الشرطة ,والمعمل الجنائى, ثم تلاقت عيناه بعيني الرائد محمد, فاتجه إليه ,وهو يقول بانفعال:

-قتيل آخر بالمشرحة؟! ..ما الذى يجرى هنا بالضبط؟!.

تنهد الرائد محمد ,وأومأ برأسه مؤكداً, ثم غمغم, وهو يشير بإصبعه, إلي جثة الدكتور شريف الراقدة على منضدة على يمينه :

- هذه المرة القتيل هو معيد بالقسم ..كان بالمشرحة بالأمس حيث كان يقوم بإعداد الجثث, ويبدو أنه لم ينه عمله فى موعده ,فاستمر بالمشرحة بعد انصراف الجميع ,إلى إن اكتشفوا جثته فى الصباح ..

اقترب الاثنان من الجثة محاذرين الاصطدام بأحد رجال البحث الجنائى الذى ركع على ركبتيه متفحصاً أرضية الحجرة بعدسة فى يده..

كشف وكيل النيابة الغطاء عن وجه الجثة ,فطالعه وجه التصقت به صرخة صامتة ,وعيون جاحظة مفزوعة..ولاحظ اللون البنى الذى اكتسبه, ورائحة الفورمالين القوية التى راحت تفوح منه ,فغمغم بشيء من عدم الراحة :

-ومن اكتشف الجثة هذه المرة ؟.

-أحد عمال المشرحة أيضا ,تماما كما حدث فى المرة السابقة, كان متولى هذه المرة ,إنه أحد الاثنين اللذين احتجزناهما فى المرة الماضية..

أومأ وكيل النيابة برأسه متذكراً ,ومال رأسه نحو الجثة ,وغمغم مغالباً رائحة الفومالين القوية التى تثير أغشية أنفه المخاطية وتحرقها:

- إنه محفوظ هو الآخر بالفورمالين..يبدو أن لدينا هنا قاتل يهوى التشريح؟

- أظن أن هذا يضيق دائرة البحث عن القاتل..إنه بالتأكيد أحد العاملين هنا بقسم التشريح..ربما يكون أحد الأطباء وربما أحد العمال..فحقن الجثتين بالفورمالين هكذا ,يشير أن القاتل له خبرة بطريقة حفظ الجثث ..

أشار وكيل النيابة بإصبعة نحو باطن يد القتيل اليسرى ,وهو يقرب إصبعه من جرح قطعى عميق دون أن يلمسه, وضاقت عيناه متفحصةً إياه وهتف :

-وهل لاحظت هذه الإصابة ,يبدو كجرح حديث, اعتقد أنه قد تم بفعل آلة حادة.

انحنى الرائد هشام بجواره, وهو يتطلع إلي الإصابة العميقة التى بدت حوافها غير منتظمة فى ساعد القتيل الأيسر ؛بالرغم من اكتسابها لوناً داكناً بفعل الفورمالين ,وقد برزت بعض أنسجتها المتهتكة , وقال :

-لقد رأيتها بالفعل ..لكننى لا أظنها تفسر وفاته..جرح كهذا لن يقتله أبداً.

هز وكيل النيابة رأسه موافقاً, وقال, وهو يعتدل :

-لكنها ربما تدل على مقاومة القتيل لقاتله ..إن الطبيب الشرعى هو من سيخبرنا كيف تم هذا الجرح.

وانتبه حينها إلى خلو المكان من الطبيب الشرعى ,فقال بدهشة:

-لكن أين الدكتور هشام؟.. ألم يستدعه أحد ؟!.

-لقد أرسلت بالفعل في طلبه..لقد حدثتهم في مصلحة الطب الشرعى , فأخبرونى أنه فى معاينة خارجية, لحادث طريق, فأرسلت إحدى سياراتنا إلى مكان الحادث لجلبه.

ضاقت عينا وكيل النيابة ,وهو يتفحص المكان متأملاً..لاحظ الكرسى المقلوب, وأدوات التشريح المبعثرة أسفل إحدى المناضد التى عليها جثة ما, والتى انهمك بعض خبراء البحث الجنائى فى تصويرها قبل أن يجمعوها بحرص محافظين على البصمات الموجودة بها ,ثم وضعوها بأكياس بلاستيكية للتحفظ عليها ..

أخرج علبة سجائره من جيبه, وتناول سيجارة منها قدمها للرائد محمد, فتناولها شاكراً, ثم أخرج واحدة أخرى, ووضعها فى فمه, وأشعلها ,وهو يقول للرائد محمد:

-مارأيك لو إنتظرنا بالخارج قليلاً..الرائحة هنا كريهة للغايه, وقد بدأت أشعر بالاختناق من هذا المكان .

رافقه الرائد محمد للخارج شارداً, وتوقفا أمام باب الحديقة الخلفي للمشرحة , فحمل إليهما بعض النسمات الباردة التى أنعشتهما, وبددت من أنفيهما رائحة الفورمالين الخانقة ..وراح كل منهما يتنفس بعمق, وارتياح لطرد الرائحة الخانقة للفورمالين من صدرهم , وغمغم وكيل النيابة:

-إننى أتعجب من قدرة الأطباء والعمال على الحياة وسط هذه الرائحة المريعة للفرومالين ,والجثث المتحللة ..إننى أشعر بالغثيان الشديد من هذه الدقائق القليلة التى قضيتها بالداخل.

-لابد أنهم قد تعودوا عليها ..وإن كنت لا أفهم كيف يتعود إنسان على رائحة كهذه..إنها سيئة بالفعل.

-أوافقك في رأيك هذا ..ومن الصعب أن يتعود أحدنا على شيء كهذا..لابد أن الأطباء يمتلكون أنوفا غير التى نمتلكها ليحتملوا هذا.

صمت بعدها لينتهى من سيجارته ,وعاد ليحدث الرائد محمد قائلاً:

-اعتقد أنك تتفق معى في أن قاتل هذا الطبيب والطالبة هو نفس الشخص..لا أعتقد أنه قاتل آخر.

أومأ الرائد محمد موافقاً :

-إنه حتماً نفس القاتل .. لقد كرر مافعله بالمرة الأولى حرفياً هنا..أتعجب من رباطة جأشه التى تجعله يفعل جريميتن في نفس المكان فى أسبوع واحد ..ألا يخشى هذا أن يفتضح أمره مثلا؟..

-أرى أن الأكثر عجباً أن يقوم ذلك القاتل بقتل ضحاياه, وبعد ذلك يحفظ جثهم بالفورمالين..لماذا يفعل شيئا كهذا؟ .. هذا مالا أفهمه؟!...

-أخشى أنه يفعل هذا ؛ليحيرنا, ويسخر منا ..وربما كان مجنوناً, ولهذا يقوم بتلك الأفعال الغير مبررة .

سطعت في عقل وكيل النيابة فكرة ملحة وغريبة فى الوقت نفسه.. ترك عقله يقلب فيها للحظات قبل أن يعرضها على مفتش المباحث قائلاً:

-أتعلم فيما أفكر فيه الآن يا محمد بك؟

تلاقت عيناهما للحظة ,وهز الرائد محمد رأسه منتظراً إجابته ؛ فأكمل وكيل النيابة ببطء,كأنما يختبر وقع استنتاجه عليه:

-قاتل متسلسل..

تصلب وجه الرائد محمد بدهشة ,وردد :

:قاتل متسلسل !..قاتل متسلسل فى مصر !.. لم يحدث شيء من هذا القبيل من قبل ,الحادثه الوحيدة التي نذكرها في هذا الشأن هى" رايا وسكينه ", وإن كنت لا أعدها قتلا متسلسلاً..كانت قتلا من أجل السرقة.

قالها ,وراح يتذكر ما درسه من قبل فى الكلية عن حوادث القتل المتسلسل ..كانت محاضرة مملة لم يشعر بأن لها أهمية ما, وخاصة أن عقله قد استبعد من البدايه أن يواجه فى يوم من الأيام قاتلاً كهذا ..

لكنه مازال يذكر ماقاله المحاضر عن انتشار تلك الجرائم فى أحياء, وأزقة المدن الأوربية, وبخاصة فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين..القاتل فيها إما أن يكون مهتزا نفسيا أو ساديا عنيفاً .. وضحاياه يكونون فى الغالب من المومسات ,أو أطفال الشوراع ,أو العجزة المرضى ,والمشردين ..وغالباً ما يميل القاتل إلي اتباع سلوك متكرر في جرائمه .. كان مازال يذكر أسماء عدة ذكرها المحاضر كأمثلة لهؤلاء القتلة؛ مثل جاك السفاح , وتيد بندى..لكنه نسى الآن تماماً ماذا فعلوا بالضبط ..

ومازال يرفض أن يتخيل أن تحدث جرائم كهذه فى مصر ..إنها جرائم يحلو لبعض كتاب الصحف المتأنقين التحدث عنها, وقصها

للقراء لإثارة دهشتهم..وزيادة توزيع جرائدهم..لكن الواقع يقول إنه لامكان لحوادث كهذه فى مصر.

لكن وكيل النيابة كان مصراً على فكرته, فأكمل بحماس :

-إن كل مانراه هنا يقودنا نحو هذه الفكرة بالرغم من غرابتها..لدينا قتيلان فى مكان واحد ,لارابط بينهما ..ولادافع واحد لقتلهما ..ثم يحدث عبث بالجثث بعد قتلها ..ألايوحى لك هذابأننا قد نكون إزاء قاتل مختل عقلياً أو قاتل متسلسل؟.. ألا يوحى لك حقن القتلى بالفورمالين بعد موتهم أن القاتل يتبع فى فعله الطقوس نفسها ..

بدت الفكرة بالرغم من غرابتها ,وعدم تقبل عقل الرائد محمد لها منطقية كثيراً ..فقال بتوتر:

-لو كان قاتلاً متسلسلا فعلاً فنحن فى ورطة .. إننا لم نواجه شيئا كهذا من قبل ,ولاخبرة لنا فى التعامل معه ..

-ستكون ورطة بالفعل ..فالقاتلهنا قد يكون أى واحد ممن حولك ..قد يكون عامل المشرحة ,وقد يكون رئيس القسم نفسه .. وغالباً من الصعب أن تتوقع من يكون أو أن توقعه ؛لأنهم غالبا ما يتميزون بثبات نفسى رهيب يبعد الشكوك عنهم تماماً , وعليك حينها أن تنتظر مصادفةً ما أو خطأ يرتكبونه كى توقعهم.. الحظ هنا هو سلاحك الأول فى مواجهة قاتل كهذا.

تنهد الرائد محمد بعمق ,وحمل وجهه تعبيراً مبهماً من الحيرة والقلق ..كان يتمنى بداخله ألا يكون استنتاج وكيل النيابة صائباً ..ليس هذا وقت القضايا المعقدة الصعبة..نريد القاتل الأحمق الذى يكاد وجهه يصرخ "أنا القاتل"

حاول أن يبعد الفكرة عن عقله ,لكنها كانت ملحة كذبابة صيف لعينة..قاتل متسلسل !..أيكون هذا ما يواجهه حقا؟!..

(21)

كان جميع عمال المشرحة في حال يرثى له, فجميعهم يدرك أن مايحدث ليس جرائم قتل عادية ..إن هناك شيئاً شيطانياً يدور فى المشرحة ..شر واجهوه جميعاً , لكن أحداً لا يصدقهم ..

المشكلة الحقيقية الآن أنهم صاروا المشتبه الأول فى جريمتى القتل ..إنهم أضعف أطراف الحلقة ,وبالتالى فهم المتهم الجاهز دائماً .وحتما لن يتهم الأمن أحد أطباء المشرحة طالما العمال المساكين موجودن.

كان العمال الأربعة فى النيابة فى انتظار مثولهم للتحقيق مرة أخرى أمام وكيل النيابة..أكثرهم جزعاً كان جمال..كان آخر من رأى القتيل ..وبالتالى كان يخشى أن يتهموه بقتلة ..

يعلم يقيناً أن الجانى الحقيقى ليس بشرياً, ولذا فمهما بحثوا عنه ؛فلن يستطيعوا أن يصلوا إليه ..لذا تداعت فى ذهنه عشرات الخيالات المرعبة ..لابد أنهم فى حاجة الآن لاتهام أحد ما بارتكاب الجريمتين ,ولأنه مجرد عامل بالمشرحة ,لا ظهر له أوسند ,فلن يعدموا حيلة ما كى يلفقوا التهمة له ...هذه أشياء سمع عنها من قبل فى الحارة والمقهى ..

هل ينسى محروس صبى المكوجى الذى اقتادوه من بيتة ذات مساء ,ولفقوا له تهمة سرقة المدرسة الإعدادية..علم جميع سكان الحارة أنه مظلوم ؛لأنه وقت ارتكاب الجريمة كان موجوداً فى المقهى ,وعشرات الرواد كانوا قد رأوه وشهدوا بذلك بالفعل..

لكن الضابط الذى قبض عليه ولفق له التهمة كان ذئباً .. فوضع بعض الأشياء التى تخص المدرسة بحنكة أسفل فراشه أثناء تفتيش حجرته ..وتكفل الضرب والتعذيب فى أن يعترف الولد بالتهمة ,ولم تشفع له شهادة الشهود, ليحكم عليه القاضى بالسجن لخمسة أعوام ..

لكن الأمر هنا ليس سرقة أو مشاجرة ..إنها جريمتا قتل ..مما يعنى أن العقوبة هذه المرة هى الإعدام حتماً..

ارتجف حين جالت الفكرة برأسه, فقال لعم منصور بصوت أقرب للبكاء :

-هل سيعذبوننا ياعم منصور كى نعترف ؟...

أجابه عم منصور بهمس, وهو يتلفت حوله بخوف كى لايسمعه أحد ما من العساكر أو المخبرين المنتشرين كالجراد حولهم:

-نعترف بأى شيء يا أبله؟!.

-بأننا من قتلنا الدكتور شريف ,وتلك الطالبة ...

هذه المرة همس متولى فيه بذعر ,وهو يتلفت هو الآخر حوله ليتأكد أن أحداً من حراس النيابة لم يسمع ماقاله جمال :

- اصمت أيها الغبى ..هل تريد أن تثبت علينا تهمة لم نرتكبها..

انتبة جمال إلى خطئه ؛فانكمش فى نفسه أكثر ليزداد ذعراً حتى شعر بأنه سيفقد وعيه قريباً من الهلع , بينما قال عم منصور محاولا تهدئته هامساً :

-نحن لم نفعل شيئاً ياجمال..ولا دليل واحد يدين أى منا .سوف يسألوننا كالمرة السابقة ,ثم يصرفونا بعدها إلى منازلنا..هذا ماسيحدث حتماً.

قالها, وهو يشعر أن ماسوف يحدث غير ذلك ..لكنه حاول أن يبدو أمام زملائه متماسكاً كى يطمئنهم ..إلا أن جمال لم يطمئنه هذا الرد ؛وعاد ليغمغم بصوت خافت:

-وهل هؤلاء فى حاجة لدليل؟..إنهم يفعلون مايرغبون فيه, وهم بحاجة الآن لمن يحمّلوه القضيه ,ولايوجد لديهم غيرنا ليتهموه .

تمنى متولى لو كان يتطيع أن يوسعه ضرباً لحماقة ما يقوله .. خاف أن يورطهم جميعاً فى الأمر بغبائه هذا لو تفوه بمثل ماقاله الآن فى التحقيق .. أراد أن يسبه ليصمت, لكن العسكرى القابع على باب وكيل النيابة نادى على جمال فى تلك اللحظة ؛فصمت الجميع والتفتوا اليه ..

دارت عيناه بين زملائه ببؤس, ثم أخذ يجر جسده البدين جراً نحو حجرة التحقيق ؛ وهو يرتعش بشدة, ويتلو المعوذتين فى سره.

حين دخل الحجرة لاحظ وكيل النيابة الشاب اضطرابه والارتجافة التى تعروه,فسأله ببطء عن بياناته,وعيناه معلقتان به..وعبثاً حاول جمال أن يبدو متماسكاً ,وهو يجيب أسئلته, لكنه ازداد ارتباكاً فلم يدرى ماذا أجاب..

لاحظ أن وكيل النيابة يسأله فى أشياء متناقضة لارابط بينها, ففطن إلى أنه يريد أن يوقعه فى خطأ ما ,فازداد اضطرابه, فصارت إجاباته مزيجا مبهماً لامعنى له ..وبنفاذ صبر صاح فيه

وكيل النيابة حين أيقن أنه لم يظفر منه بشيء ذي قيمة , وهو يضرب سطح مكتبه بكفه:

-اسمع ياجمال.. ربما تكون بريئاً, ولست أنت الجانى ,لكنك كنت لسوء حظك آخر من رأى القتيل..لهذا فأنت أمامى المشتبه الأول فى ارتكاب هذه الجريمه..وهذه ليست الجريمة الأولى كما تعلم ..إننا بحاجة إلى أن تخبرنا بكل ماتعلمه ,وكل ماسمعت به ,أو رأيته كى نستطيع القبض على القاتل الحقيقى, وإلا فالإدانة بانتظارك ,ولن أستطيع مساعدتك أبدأ مادمت صامتا ..حاول أن تساعد نفسك يارجل وتكلم.

تماسك جمال بصعوبة مجاهداً ألّا يبكى, وشعر بأنفاسه تختنق ,وهو يتخيل حبل المشنقة, وقد التف حول عنقه ؛فأجاب بصوت أقرب باكٍ للولولة:

-ولكنى لم أقتلة..أقسم بالله العظيم إننى لم أفعل..لقد أمرنى أن أتركه بمفرده ليكمل عمله؛ فتركته لألحق بأتوبيس الكلية ..إن هذا هو ماحدث..

- إذن من برأيك قد يكون القاتل؟

-لا أعلم ..لو كنت أعلم شيئاً لأخبرتك به على الفور ..لكننى لا أعلم ..

فى النهاية أصدر وكيل النيابة أمراً بحبسه أربعة أيام قيد التحقيق.. فأخذ يبكى, ويصرخ بأنه لم يفعل شيئاً,وأنه مظلوم ,والحارس يضع فى يديه القيود الحديدية ..قبل أن يخرج به .

دخل بعده عم منصور الذى أنكر هو الآخر أن يكون له صلة ما بالجريمة .. فهو قد انصرف في الثالثة مع عبدالدايم ,ومتولي تاركين جمال بمفرده بالمشرحة مع القتيل..إلا أن وكيل النيابة نهض من مكانه, وتوقف بجوار المكتب عن يساره ,وعقد يديه خلف ظهره وبدا صارماً للغاية, وهو يقول بصوت مخيف :

-المشكلة أننى لم أصدق حرفاً مما ذكرته فى التحقيق من قبل, فى حادث مقتل تلك الطالبة قبل أسبوع ..لقد ادعيت أنت والعامل الآخر أن هناك من هاجمكما فى المشرحة حينها, ولهذا غادرتم المشرحة ..ومن حسن حظكم أن حارس أمن الكلية قد ذكر أنكم قد غادرتم المكان قبل الحادث بوقت طويل..فتركتكم حينها..لكن هذه المرة الأمر مختلف..لن أذكر فى التحقيق أن الأشباح أو حتى الجن الأزرق هى الجانى..سأصير أضحوكة كافة وكلاء النيابة إن فعلت.

-لكن ماقلته هو ما حدث بالفعل, وأنا لم أكذب..

-ومن قال أننى أتهمك بالكذب..فقط أعطنى قصة معقولة يمكن تدوينها فى التحقيقات, وسوف أجعلك تغادر المكان على الفور..

-يا فندم أنا لا أعلم إلا القصه التى حدثت لي أنا وباقى العمال ..إننى وباقى العمال قد مررننا بأحداث غامضة فى المشرحة ,لكن الجميع يأبى أن يصدقنا بالرغم من أن مانقوله هو الحقيقة .

رمقه وكيل النيابة بنظرات نافذة كأنما يتقين من خلجاته مقدار صدقه فى ما يذكره, ثم تحرك نحوه, وتوقف بجواره تماماً ووضع ذراعه فوق كتفيه ,وقال له بهدوء :

-لنترك أمر أشباحك أو أى ما كانت الآن جانباً ..وأخبرنى , هل كان للقتيل عداء مع أحد ما أو تشاجر مثلاً مع أحد ما مؤخراً ؟.

-الدكتور شريف-رحمه الله- كان يتعامل معنا بشيء من التعالى والتكبر.. ولا أبالغ لو قلت أنه يعامل الجميع باحتقار ..لذا فقد كنا جميعا نتحشاه بقدر الاستطاعة . لكن لا أظن أن هذا التعالى قد يدفع أحد ما لقتله.

-وماذا عن الأطباء والأستاذة فى القسم..كيف كانت معاملته معهم ,وهل كان على خلاف مع أحد ما منهم ؟

-لم أسمع أنه تشاجر مع أحد منهم ..لكننا لاحظنا بعض المشاحنات الصغيرة بينه وبين الدكتور حاتم فى بعض الأحيان.

انتبه وكيل النيابة ,ودون الاسم فى ورقة صغيرة على مكتبه وقال باهتمام :

-مشاحنات ؟.. هذا مثير.. أى نوع من المشاحنات تقصده بقولك هذا؟

ابتلع عم منصور ريقه, وخشى أن يكون قد ورط الدكتور حاتم فى الأمر ,فقال متداركاً:

-لا أدرى يابيه ..فالدكتور حاتم كان على عكس الدكتور شريف محبوباً من الجميع ,ويعامل الجميع معاملةً طيبة ,ولهذا فجميعنا يحبه ..وهذا على النقيض من الدكتور شريف كما ذكرت لك..وأظن أن الدكتور حاتم لم يكن راضياً عن الطريقة التى يتعامل بها الدكتور شريف مع الجميع ,ولهذا كانا أحياناً يختلفان .

-وهل وصل الأمر حد العراك يوماً ما .

-لم يحدث هذا أبداً ..الأمر لم يتعدى أبداً مشاجرات لفظية...

استمر وكيل النيابة بعدها فى توجيه الأسئلة, وعم منصور يجيب عليها دون جديد يذكر..فى النهاية أمر بإخلاء سبيله كالمرة الماضية بضمان محل إقامته .

دخل عبدالدايم بعد ذلك ,ولم يختلف ما ذكره فى التحقيق عما ذكره عم منصور ,وخاصة حين حاول وكيل النيابة أن يعلم منة طبيعة العلاقة بين الدكتور حاتم والدكتور شريف والمشاحنات التى كانت تتم بينها .. فى النهاية تم إخلاء طرفه أيضا بضمان محل إقامته..

فى النهاية كان متولى ..لم تختلف أقواله هو الآخر كثيراً عن زملائه , إلا أنه أضاف شيئاً خطيراً ..فعندما سأله وكيل النيابة عن أعداء ما محتملين للقتيل صمت لحظة قبل أن يجيب مطرقاً برأسه لأسفل:

-الكل لاحظ أنه كان دائم التشاجر مع الدكتور حاتم.

هنا أراد وكيل النيابة أن يستزيد من معلوماته فسألة:

-لابد أن هناك سبباً ما لتلك المشاحنات؟.. أليس كذلك يامتولى؟

أدرك متولى مقصده, فأجاب وهو يطرق برأسه لأسفل كأنما يهم بإلقاء معلومة خطيرة :

-ربما لأن الدكتور حاتم كان دائم السخرية منه , وربما من أجل ...

صمت لحظة متردداً ,فمال نحوه وكيل النيابة باهتمام وقال:

-من أجل ماذا يامتولى ؟..

-ربما بسبب الدكتورة زينب.

قالها مرة واحدة, فنظر إليه وكيل النيابة بتساؤل وقال :

-لست أفهم ماذا تعنى بقولك هذا.

-أظن أن الدكتور شريف –رحمه الله- كان يميل قليلاً إلى الدكتورة زينب لكنى أعتقد أنها كانت تفضل الدكتور حاتم..وربما كان هذا الأمر يحنق الدكتور شريف ويغضبه.

لم يذكر بعدها متولى شيئاً مهماً آخر, وفى النهاية أمر وكيل النيابة بإخلاء سبيله الآخر بضمان محل إقامته ,واستدعاء الدكتور حاتم ،والدكتورة زينب للتحقيق معهما .

(22)

جلس الدكتور حاتم بهدوء ورباطة جأش أمام وكيل النيابة .. كان يبدو علي وجهه بعض الاضطراب..لكن نظراته الثابتة وشت بتماسكه..تأمله وكيل النيابة متفحصاً..لكن وجه الدكتور حاتم لم ينبئه بالكثير, لذا بدأ فى طرح أسئلته :

-علمت أنك لم تكن على وفاق مع القتيل..هل هناك سبب ما لهذا؟

كان سؤالاً مباشراً أراد به أن يربكه ,إلا أن الدكتور حاتم رد بصوت قوى ثابت:

-لقد كانت خلافات العمل الطبيعية..ربما لأننى كنت أعترض على أسلوب تعامله المتعالى مع الطلاب والعمال ..لكن من الصعب أن تسمى ما كان بيننا خلافات حقيقية.

-وماذا عن الدكتورة زينب ؟..

بان الانزعاج على ملامح الدكتور حاتم ,فهتف باستنكار:

-ماذا عنها؟..

-لاشيء.. فقط أتساءل هل كان القتيل يميل إليها.

-لم ألاحظ شيئاً كهذا ..ولم تخبرنى هى عن شيء كهذا.

واكتسب صوته رنة حزم ,وهو يكمل:

-ثم إننا مخطوبان تقريباً لبعضنا البعض..فقط قررنا أن نخفى الأمر قليلاً؛ حتى ننتهى من الماجستير.

هز وكيل النيابة رأسه بفهم ,وقال:

-متى كانت آخر مرة رأيت فيها القتيل ؟.

-قبل مقتله بيوم ..كنا نعمل سوياً لإعداد الجثث بالمشرحة أنا وهو والدكتورة زينب..

صمت بعدها للحظة, وهو يفكر إن كان عليهأن يخبره بتلك المشاجرة الصغيرة التى حدثت فى ذلك الوقت..خشى أن يكون وكيل النيابة على علم بها ؛فيشك فيه لو أخفاها عنه ..انتبه وكيل النيابة إلى صمته وتردده, وشعر أنه يريد أن يقول شيئاً ما فاكتفى بمتابعته فى انتظار أن يتكلم..بعد لحظات حسم حاتم أمره, فقال:

-فى هذا اليوم كانت هناك مشادة بسيطة بينى وبينه,غادر على إثرها المشرحة,ولم يعد ليكمل عمله إلا حين انتهينا أنا والدكتورة زينب من عملنا

-إذا فقد تشاجرتم حينها مرة أخرى..أيمكننى أن أعرف لماذا حدث هذا؟.

قص عليه الدكتور حاتم ماحدث..إلى أن غادر الدكتور شريف المشرحة غاضباً..وأخبره أنه لم يره بعدها..عاد وكيل النيابة ليسأله:

-ومتى غادرت الكلية فى ذلك اليوم..

-غادرتها فى الثانية والنصف عصراً بصحبة الدكتورة زينب والدكتور عبدالحميد محفوظ أحد زملائنا بالقسم ..إننى أمتلك سيارة صغيرة , واعتدت أن أقلهم للمنزل كل يوم.

رمق وكيل النيابة الكاتب الذى جلس بجواره ,وراح يدون كل كلمة يقولها حاتم ..ثم التفت إلى حاتم, وقال له:

-بالطبع تعلم أن هذه الجريمة هى الثانية بالمشرحة بعد مقتل تلك الطالبة الأسبوع الماضى ..من برأيك من الممكن أن يفعلها؟.. هل يكون أحد عمال المشرحة مثلاً؟

-كلا بالطبع ..إننى أعرفهم جميعاً جيداً..ومن الصعب أن أتخيل أن أحدهم بإمكانه ارتكاب جريمة كهذه.. إنهم إناس فى منتهى الوداعة والبساطة,ومن العسير أن يقوم احدهم بشئ كهذا ..أرى أنكم تظلمونهم بشدة بشككم هذا فيهم

انتهى بعدها التحقيق معه ..وجاءت بعده الدكتورة زينب التى أقرت ماذكره حاتم فأخلى سبيلها هى الأخرى.

أرسل بعدها فى طلب الرائد محمد وهدان ,الذى جاءه بعد أقل من نصف الساعة ,وجلس أمامه بإرهاق حقيقى, فسأله عن نتائج

التحريات التى قام حول القتيل وأهله, وهل اكتشف أعداءً له ,فأجابه الرائد محمد أنه لم يتوصل إلى شيء ذي بال ؛

فطلب منه وكيل النيابة أن يضع المشرحة تحت الحراسة الدائمة فى الفترة القادمة ,وأن يتم تسجيل خروج ودخول كل شخص يدلفها ,فوافقه الرائد محمد ,ثم انصرف.

(23)

تبادل الدكتور محمود رئيس قسم الطب الشرعى بكلية الطب والدكتور هشام كبير أطباء مصلحة الطب الشرعى النظرات الحيرى ..كانوا قد انتهوا من تشريح جثة الدكتور شريف .. وكما جرى فى المرة السابقة لم يضف التشريح إليهم جديداً غير الحيرة, والمزيد من الألغاز..

كانت جثة الدكتور حاتم كالجثة السابقة, بلا دماء على الإطلاق, كأنما امتُصت كل الدماء التى بها لآخر قطرة ,وكذلك تم حقن أوعيتها الدموية بالفورمالين دون أن يظهر عليها كيف تم هذا حقنها..وكان القلب أيضا فارغا من الدماء تماما ومضغوطا بشدة كما حدث لقلب الطالبة القتيلة.

كان هناك جرحاً عميقاً فى كف اليد اليسرى , إلا أنه لم يقدم لهم الكثير.. فاتجاه الجرح ,وأداة التشريح التى سببته ,والتى وُجدت بجوار الجثة تؤكد أنه جرح ذاتى أحدثه الطبيب بنفسه..وفى الغالب سقط القتيل أرضاً, وكان يحمل بيده تلك الأداة الحادة ؛فأخترقت أنسجته رغماً عنه,

أيضا لم يكن الجرح خطيراً, ولم يكن ليسبب للقتيل مشاكل حقيقية.

اغتسلا بعد انتهائهما من التشريح ,ثم ذهبا سوياً بعد ذلك لمكتب الدكتور هشام..جلب لهم الساعى كوبين من الشاى ,وتناول الدكتور هشام سيجارةً , وقال للدكتور محمود مستئذناً:

-أيضايقك أن أدخن؟

- كلا بالطبع ..خذ راحتك.

أشعل الدكتور هشام سيجارته قبل أن يقول :

-والأن مارأيك يادكتور محمود ..هاهى جثة أخرى لم تقدم لنا إلا الأحاجى مرة أخرى ..

-إن أكثر ما يحيرنى هو أين تذهب دماؤهم ,وكيف تمتص هكذا ..لقد راجعت طوال هذا الأسبوع معظم مراجع الطب الشرعى القديم والحديث كى أرى إن كان ممكناً تفريغ الجثث من دمائها تماماً كما نرى هاهنا فلم أجد مايفيدنى.

وصمت للحظة وتقلصت ملامحه بانزعاج حقيقى وقال :

-ليس من العدل أن تموت تلك الفتاة أو هذا الطبيب الشاب هكذا ..فتاة جميلة وصغيرة مفعمة بالأحلام والطموحات ,وطبيب فى مقتبل عمره يجتهد كى يرتقى بنفسه ,ثم تنتهى حياتهما فجأة بلا ذنب أو مبرر حقيقى على يد قاتل حقير مريض ..إننى أهتم بتلك القضية ,لأننى أبحث عن بعض العدالة لتتحقق..بعض العدالة فقط ..فحتى لو وجدنا القاتل وأعدمانه لما تحققت العدالة الكاملة ..فموته لن يعنى شيئا لمن ماتوا ..لكنه يضمن بالتأكيد ألا يكون هناك ضحايا آخريين لهذا المعتوه

سحب الدكتور هشام نفساً عميقاً ,موافقا على ماذكره الدكتور محمود ..قبل أن يقول بضيق:

-هل تعلم أن النائب العام بنفسه قد اتصل بى, وأخبرنى بانزعاجه من حوادث القتل هذه ..وأبدى اهتمامه بنتيجة التشريح.

-وماذا أخبرتة ؟

-أخبرته بالحقيقة..إن الأمر محير..ومازلنا نبحث عن حل يجلو ظلام الحيرة التى يعرونا.

ران الصمت للحظة قبل أن يقول الدكتور محمود بتردد بعد أن ارتشف بعض الشاى من كوبه:

-ستتعجب منى حين أخبرك بأننى عدت أفكر فى تفسيرك الذى أخبرتنى به فى مكتبى.

-أى تفسير ..لست أذكر أننى توصلت لتفسير ما.

صمت الدكتور محمود متردداً ..إلا أنه فى النهاية حسم أمره وقال بهدوء:

-لقد قلت من قبل أنك تخشى أن يكون بالقضية أمر ما خارق للطبيعة أو لعنة ما..لا أدرى لماذا بدأت أميل لتصديق أن هذه الأفعال غير بشرية .. أشعر أنها تماثل ما سمعنا عنه من أفعال الجان والأرواح ..

فى الواقع كان دكتور هشام من المؤمنين بهذه الأمور بشدة .. بل ويجزم أنه مر ببعض الحوادث الغريبة من قبل, إلا أنه لم يقصها لأحد؛ ربما لأنه يخشى أن يسخر منه البعض أو لا يصدقه؛ وربما لأنه يفضل أن يحتفظ بمثل هذه الخبرات لنفسة لذا قال:

-التصديق بالجان جزء من إيماننا .. فالجان كما نعلم جميعاً ونؤمن به مذكور فى القرآن بل, وفى الكتب السماوية الأخرى, وهم مخلوقات كما أخبرنا الله من نار تعيش بيننا دون أن نشعر

بها ,وإن كانت ترانا وتشعر بنا ,والبعض يزعم أنها قد تؤثر فينا فى بعض الأحيان, كما أن الأشباح بالرغم من عدم إيمان البعض بها ,إلا أن ذكرها موجود فى كل الثقافات.. لكن هل تعنى بقولك هذا أن نضع احتمالا كهذا فى بالنا.

صمت الدكتور محمود, وهو يزن كلماته ثم قال :

-إننى رجل علم ..ولهذا أرفض أن أنساق لمشاعرى دون دلائل واضحة .. لكن الغموض والتيه الذى نلاقيه فى هاتين الجريمتين الغامضتين يدفعنى للنظر فى هذه الناحية جديّاً..لاحظ أن نتائج عملنا وتشريحنا للجثتين لايخضعان لتفسير علمى واضح.

هرس الدكتور هشام عقب سيجارته فى منفضة السجائر قبل أن يقول:

-إذاً ماذا تقترح ؟..

ابتسم الدكتور محمود وقال:

-أرى أن علينا أن علينا أن نستعين بأحد ما يهتم بمثل تلك الأمور الخوارقية كالجان والأشباح وغيرها..

شعر الدكتور هشام أن الحوار قد أخذ منحنياً عملياً وجدياً ,فقال بترقب:

-وهل تعرف أحد ما بعينه؟

هز الدكتور محمود برأسه ,وقال بحسم:

-لا أثق هنا إلا بشخص واحد أعلم يقيناً أنه ليس نصاباً؛إنه الدكتور محمد شاهين..رئيس قسم الطب النفسى بالكلية سابقاً.. هل تعرفه؟...

(24)

بدت الكلية كلها فى حداد وتوتر,وفي قسم التشريح خاصة .. فى البداية كان مقتل الطالبة الشابة ,والآن معيد شاب بنفس القسم ..

وبالرغم من أن الدكتور شريف لم يكن الشاب اللطيف الذى يحبه أحد ما ,إلا أن للموت هيبة ,كما أن صغر عمره خلق حالة عامة من التعاطف معه..

المشكلة الأكبر أن حوادث القتل قد تسربت بصورة ما إلى الطلاب .. ولايدرى أحد كيف وصلت تفاصيل الجثث االمحنطة إلى أحد الطلبة, فلم يألو جهداً فى نشر الأمر بين أوساط الطلاب ,لينتاب الجميع حالة عامة من الفزع .. وانتشرت الكثير من الإشاعات كالنار فى الهشيم ..

كان على أستاذة الأقسام المختلفة أن يبحثوا عن إجابات مقنعة لأسئلة الطلاب المتكررة بإلحاح عن حقيقة ماحدث..ولأنة لا أحد كان يعلم الحقيقة تحديداً, ولغموض الأمر كلية, تضاربت إجابة الأساتذة فزادوا الطلاب اضطرابا ؛فانتشر بينهم أن هناك مايخفيه الأستاذة عنهم ..

بالطبع انتشرت الإشاعات عن السفاح الذى يقتل الأطباء والطلاب ,ثم يقوم بتحنيطهم ..وتطوع خيال بعض الطلبة بإطلاق الإشاعات عن شبح المشرحة الذى يقتل من يوجد بها وحيداً ..تحمس البعض, وأعلنوا لزملائهم أنهم سيقتحمون المشرحة سراً بعد انتهاء اليوم الدراسى لكشف غموض مايحدث بها ..إلا أن محاولتهم ذهبت هباءً لوجود بعض عساكر الأمن الذين تم تعينهم لمراقبة المشرحة وحراستها .. قرر بعض الطلبة برغبتهم

أو برغبة آبائهم التغيب لفترة عن الدراسة حتى يجلو الأمر أو ينتهى.

كان الدكتور نعيم فى أسوأ حال ممكن .. ماهذا الذى يحدث بالمشرحة؟.. كان يحنقه أنه لا يدرى كيف ومتى يستطيع بدء الدراسة بالمشرحة, ومامصير هذا العام الدراسى بها ..وبالطبع كان حزينا لمقتل أحد اطبائه.

ازداد معدل استهلاكه للسجائر بصورة مخيفة؛ حتى صار من النادر أن يراه أحد دون سيجارة مشتعلةٍ فى يدة يعقبها دوماً بأخرى قبل أن تخبو نارها .. ازداد عصبيةً بصورة مخيفة, وصار سهل الاستثارة والغضب لأتفه سبب..

جلس بمكتبه بصحبة الدكتور مصطفى, الذى جلس على مقعد جلدى بجانب الحجرة الأيمن واضعاً ساقاً فوق ساق واجما صامتا..وقال الدكتور نعيم بضيق, وهو ينفخ من فمه وأنفه سحباً لاتنتهى من الدخان الرمادى :

-لا أعتقد أن القسم واجه سوء طالعٍ مثل هذه الأيام الكئيبة .. يبدو أننى قد نحسته حين صرت رئيساً للقسم.

-لاتبالغ هكذا وكفى تطيراً..إنها مصادفة سيئة لا أكثر, ومع الوقت ستنتهى ,وسينساها الجميع..إننا شعب يعرف جيداً كيف ينسى أكثر مما يعرف كيف يتذكر ..وبعد أسبوع أو أسبوعين سيعتاد الجميع الأمر ولن يهتموا به.

-وماذا عن الدراسة بالمشرحة ..لقد توقفت تماماً..وزاد الأمر سوءاً عساكر الأمن الذين صاروا يحرسونها ليل نهار.

-إن هذا كله خطأ ,أنا أرفض وجود الأمن هكذا لأن هذا يفزع الطلاب؟..كما أننى لا أوافق مجلس الكلية فى رفض بدء الدراسة العملية بالمشرحة..فلايجب أن يتأثر الطلاب بتلك المشكلات ,وأسهل طريقة لتبديد خوفهم ,وإخماد إشاعاتهم هو شغلهم بالدراسة والمحاضرات.

صمت الدكتور مصطفى للحظة بعدها قبل أن يميل نحو الدكتور نعيم قائلاً:

-لقد فكرت فى حل , ربما يفيدنا مؤقتاً.

قال الدكتور نعيم بلهفة .

-أخبرنى به بالله عليك ؟

-أرى أن نستعين بمشرحة القصر العينى..من الممكن أن يذهب إليها طلابنا يومين كل أسبوع بالتنسيق مع إدارة الكلية هناك ..

كان حلاً مقبولاً ..فقال الدكتور نعيم مفكراً:

-وهل تظن أنهم سيوافقون؟

قال الدكتور مصطفى ببساطة :

-ولماذا يرفضون ..يمكنى أن أتحدث في هذا إلى عميد الكلية ورئيس القسم هناك , فهناك علاقة طيبة تربطنى بهما ,والأمر هنا يتعلق بحق الطلاب فى العلم ..

-ليكن ,سوف أعرض الأمر على العميد ؛لآخذ موافقته. وبعدها يمكنك أن تحدثهم .

ران الصمت مرة أخرى بينهما ..فأنهى الدكتور نعيم فنجان القهوة الذى يتناوله واجماً ,ثم قال الدكتور مصطفى بعدها:

-أتريد رأيى فى ما يحدث؟

أجابه الدكتور نعيم باهتمام:

-بالطبع يادكتور مصطفى ؟..

-أرى أن نأخذ رواية عمال المشرحة بشيء من الجدية , فبعد ماحدث لا أظن أنهم يتوهمون ماحدث لهم بداخل المشرحة أو يختلقونه ..هناك شيء غامض يحدث بالمشرحة ..هناك لمسة غير طبيعية , فى جريمتى القتل .. أعلم أنك تفهم ما أعنيه ؛وإن كنت ترفض تصديق ما تشير إليه الوقائع.

قال الدكتور نعيم معترضاً:

-يادكتور مصطفى نحن أساتذة جامعيون ..علماء كما يقال فى مجالنا.. ماتقوله يجرنا إلى تصديق الخرافات التى سمعناها, ونحن صغاراً..هل تطالبنى أن أصدق قصص العفاريت, والأشباح بعد أن صنع الإنسان الصاروخ ,وصعد إلى سطح القمر .. من الصعب أن أتخيل هذا..إن تلك الأشياء خرافات مبعثها الجهل والتخلف.

ابتسم الدكتور مصطفى, وهو يجيب:

-وما التعارض بين هذا وذاك ..هل تنكر وجود الجان ..هل تنكر قصة ذلك العفريت الذى جلب لسليمان عرش بلقيس ..لقد ذكرت فى القرآن ..وهل قرأت قصص الجان والعفاريت والمردة فى

العهد القديم ..أنا هنا أتكلم عن كتب سماوية ,ولا أتحدث عن عشرات الآلاف من المشاهدات والتجارب التى تحويها آلاف الكتب ..أنا شخصياً أرى أن لاتعارض بين الخوارق والعلم..ربما من العسير أن نُخضع تلك الأشياء للبحث والتجريب بقواعد العلم الحالية ..لكن هذا لاينفى وجودها ..ومن الممكن أن نكتشف القواعد الصحيحة لدراستها فى يوم من الأيام ..بل وربما تصير إحدى فروع العلم القابلة للخضوع لآلياته حينها .

أشعل الدكتور نعيم سيجارة جديدة محاولاًاستيعاب ما يقوله الدكتور مصطفى ..كان يحترم الدكتور مصطفى بشدة فهو أكبر سناً وأغزر علماً ..إنه عالم حقيقى يدرك قيمته الجميع .. لكنه الآن يتحدث عن أشياء ظل طوال عمره يرفضها ..كان يرى أنها أقرب للدجل والخرافة ..

لو كان شخصاً آخر هو من يتحدث إليه هكذا؛ لرد عليه بعنف ,فمن المستحيل أن يقتنع بشيءكهذا ..إلا أنه لا يستطيع أن يبوح برأيه هذا مسفهاً رأى الدكتور مصطفى ..فهذا لا يليق احتراماً لقيمة الرجل, واحتراما لصداقة دامت بينهما لأكثر من ثلاثين عاماً ..

لذا قال بهدوء:

-ربما كان هذا صحيحاً ..لكنى أعتقد أن حوادث القتل بالمشرحة لابد أن لها تفسيراً مادياً آخر..لايجب أن نخضع بسهولة لتلك التفسيرات العجيبة.

-وهل استطاع عقلك تقديم تفسير مقبول لما حدث ..كيف تم قتل تلك الطالبة وشريف؟ ..وكيف تم حقن أوردتهم بالفورمالين بهذه

الصورة دون إحداث ثقوب بأجسادهم , وفى هذه الفترة القصيرة التى لاحظناها فى حالة الفتاة ..

هل تتخيل أن يتم قتل الفتاة والتخلص من دمائها ثم حقنها بالفورمالين فى أقل من نصف ساعة؟! .. أخبرنى عن أقل فترة زمنية نحتاجها لإعداد وحفظ الجثث بالفورمالين هنا؟..أربع ساعات على الأقل .. فكيف حدث هذا مع الفتاة فى أقل من نصف ساعة إذاً ؟.. أعطنى تفسيراً مادياً معقولاً, وسأطرح حينها أفكارى كلها جانباً .

كان الأمر محيراً له ..هو نفسه فكر فى الأمر مراراً ,محاولاً إيجاد تفسيراً معقولاً ,لكنه فشل ..لكن هذا لا يعنى أن يطرح المنطق جانباً ليبحث عن شبح ما أو جثة كما ادعى عمال المشرحة لإلصاق التهمة بهم, لذا قال بعناد:

-ربما لا أملك تفسيراً بالفعل..لكن من العسير أن أقبل أن الجان أو الأشباح هم من فعل هذا ..ماهو الدافع لديهم فى القتل ..ولماذا لم يفعلوا هذا من قبل؟.

لم يرد عليه الدكتور مصطفى مباشرة ..فقد كان هذا وقت توجيه الاتهام لمتهم يجول بخاطره ..لذا قال بعد صمت طويل ,مرة واحدة:

- جثة الفتاة! ..تلك الجثة التى جلبها متولى..لو لاحظت فإن كافة الأحداث حدثت بعدما جلبها متولى إلي المشرحة..أرى أن سراً ما يحيط بها..هل لاحظت كيف كانت تبدو حين جلبها متولى..لم تبد أبداً كجثة .. ألم تتعجب من خلوها من أى من علامات التحلل؟ ..لقد كانت بالفعل عجيبة محيرة فى كل شيء.

ثم ابتلع ريقه للحظة دون أن يرفع عينيه من عينى الدكتور نعيم, قبل أن يكمل بحماس: :

-لن أخجل من أن أخبرك أننى ذهبت بالأمس إلى المشرحة ؛لألقى نظرة عليها ..لقد فزعت حين أزحت جفنيها لأرى عينيها ..لن تصدق كم البريق والحيوية الذى مازالت تحتفظ به..بريق فشل الموت و الفورمالين فى إطفائه..إن عينيها حيتان تماماً لو جاز لى التعبير.. إننى أعمل منذ أكثر من أربعين عاماً بالطب..كطبيب تشريح تعاملت خلالها مع مئات الجثث .. ولابد أنك تصدقنى حين أخبرك أنه فى حياتى كلها لم أر جثة كهذه.

تطلع إليه الدكتور نعيم فى حيرة ودهشة ..أيود الدكتور مصطفى أن يتهم جثة بافتعال كل هذا ..هذا يتنافى تماماً مع العقل ..إنه لاينفى أن تلك الجثة كانت غريبة ,لكنها جثة فى النهاية ..قال معترضاً:

-إنها جثة يادكتور مصطفى ..جثة !..فكيف يمكنها أن تفعل كل هذا ..الموتى سيظلون موتى إلى يوم القيامة ,ولن ينجح أحد فى إحيائهم مهما فعل ..هذا أساس عقائدى لامجال لإخلاله.

-أنا لم أقل إنها عادت للحياة..ربما كانت لعنة ما أو مس شيطانى يحيط بها ..شيء مثل لعنة الفراعنة فعلاً..

لم يقتنع الدكتور نعيم بتلك التبريرات ,إلا أنه غمغم مستسلماً :

-إذن ماذا تقترح لنتأكد من افتراضك هذا؟

-أرى أن علينا أن نقوم ببعض التحريات عن هذه الجثة ..من هى؟.. وكيف ماتت؟.. وماهى الظروف المحيطة بموتها ؟..إننى

أنوى أن أستعين فى هذا بمتولى ..فمن يدرى ربما وصلنا بعد هذا لشيء ما حينها...

(25)

يعيش عم منصور فى منشية الصدر .. منطقة فقيرة تنتشر فيها الأكواخ والعشش الخشبية والبيوت المصنوعة من الطمى كما ينتشر في أرجائها بعض محلات الأطعمة المتواضعة والقهاوى الرخيصة ..

اختارها عم منصور ؛لأنها كانت قريبة للغاية من الكلية ولايفصلها عنها إلا مسافة قصيرة.. يسيرها كل يوم ..

أحب المكان كثيراً, فقد بدا ببيوته وسكانه مألوفاً له ,وذكّره بقريتة بالمنيا حيث نشأ..ولا عجب فى هذا فأغلب القاطنين هنا ذوى أصول ريفية أو صعيدية بالفعل ..

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين غادر القهوة الوحيدة بالمكان ,حيث اعتاد أن يقضى سهراته فيها ..يشرب الشيشة ..يلعب الطاولة ..يتكلم عن الحرب مع إسرائيل التى لايكف الجميع عن الجدال إن كانت مصر جادة فى الدخول فيها أم أن إسرائيل قد فعلت فعلتها وظفرت بما اختطفته إلى الأبد ..

كانت القهوة وسيلة تساعده على إزاحة أوقات فراغه..حيث يظل بها حتى يشعر بالنعاس ؛فيغادرها متثاقلاً نحو داره ..

انتصف الليل؛ فقرر العودة إلى منزله الصغير الذى يستأجره .. منزل عتيق مكون من حجرة واحدة ومطبخ صغير وحمام صغير بلا باب يدخله بالكاد ..وبالرغم من ضيق المكان إلا أنه كان يشعر بالرضا عنه..على الأقل هناك مكان يستره آخر الليل ..وصل المنزل وفتح الباب ,وامتدت يدهإلى جانب الحائط الأيمن المجاور

للباب حيث مفتاح الإضاءة ..ضغط عليه فلم يضيء المصباح الكهربائى ..فتمتم بضيق:

-اللعنة ..هل أحترقت الأسلاك مرة أخرى؟

تطلع من النافذة إلى الخارج ليلاحظ أن المنازل المجاورة له مضاءة ..إذاً فالعطل فى بيته فقط ..كان من المستحيل أن يحاول معرفة مكان العطل الآن فى هذا الظلام ؛ لذا فقد قرر أن يبيت ليلته فى الظلام ,ولينتظر العطل للصباح ..اتجه إلى الحمام بعدها محاولاً ألا يتعثر فى أى شيء بطريقه ,ونجح فى هذا لحد ما ..وبعد أن قضى حاجته أشعل عود ثقاب ليبحث عن المصباح الزيتى ..

وجده على أحد الأرفف بالحائط ..نزع غطاءه الزجاجى, وقرّب عود الثقاب من فتيله ليشعله ,لكنه لم يستجب ..تطلع على ضوء عود الثقاب الآخذ فى الذبول إليه, فلاحظ أنه خال تماماً من الوقود..أعاده إلى مكانه, وقد تذكر أنه قد نسى جلب المزيد من الوقود ..

غمغم بموال شعبي صعيدي شهير, وهو يتجه الى فراشه حيث خلع عنه جلبابه, ورقد عليه .

كان من النوع الذى يرضى دائماً عن نفسه ,ولايؤنب نفسه أبداً .. هل كان هذا تأثير الحشيش الذى يدمنه؟ ..ربما..

لذا كان من الصعب أن يعكر صفوه أى شيء حين يعود من المقهى, وقد شرب حجرين أو ثلاثة من المعسل المخلوط بالحشيش ..ولهذا لم يضايقه الظلام ,ولا أسلاك الكهرباء التالفة ,ولا المصباح الخالى من وقوده, ولا حتى القنبلة الذرية التى

ألقتها أمريكا يوماً على اليابان أو مذابحها فى فيتنام بعد ذلك,ولم يمض وقت طويل إلا وقد راح فى نوم عميق و تعالى شخيره .

لم يدر هل نام طويلاً أم أن وقتاً قصيراً قد مضى على نومه حين شعر بحركة ما فى الحجرة..فتح عينيه باتساعهما محاولاً أن يخترق بهما الظلام الكثيف الذى يحيط به دون جدوى..هل هناك أحد ما غيره بالغرفة ؟ ..

أيكون لصاً ما؟..ولكن لو كان كذلك فماذا سيسرقه .. المنزل بأكمله لايوجد فيه ما يستحق أن يعير أتعس لص انتباهه له.. لهذا لن يقتحم لص بيته ليسرق بعض الهلاهيل والكراكيب التى لن تجد من يشتريها ..

إذن من هذا؟ ..أيكون فأراً؟ ..ربما ..لذا هتف بصوت مخنوق متوتر:

-من هناك ؟..

جاوبه الصمت قبل أن يشعر فجأة ببرد غربي ينتشر بالمكان كله .. شعر بقلبه يضطرب فجأة ,ورائحة عطرية قوية ومثيرة تتسلل نحو أنفه..

مرة أخرى هتف بتوتر أكبر, وهو يحاول أن يجعل نبرة صوتة قوية غير مرتعشة, إلا أنه اكتشف أنة فشل فى ذلك حين خرجت من فمه مرة أخرى مخنوقة أكثر :

-من هنا ؟!تحدث وأخبرنى من أنت

مرة أخرى كان الصمت والبرد والخوف, والرائحة المثيرة تزداد قوة ..هنا تذكر فجأة أين شم هذا العطر من قبل..كان هذا فى المشرحة..فى تلك الليلة التى هاجم فيه متولى شيء ما..فشعر بهلع شديد ..

إنه بمفرده مع هذا الشيء ..أتكون نهايته الآن مثلما حدث مع الدكتور شريف وتلك الطالبة؟..إندفع الأدرينالين في جسده وقد خشى الموت ولم يشعر إلا بنفسه, وقد انتفض فجأة من فراشه ,وقد عزم أن يهرب ..سيجرى نحو الباب ليفتحه, وينطلق إلى الشارع ,ولن يألوا جهداً حينها فى الصراخ طلباً للنجدة ..

لكنه ما أن تحرك حتى فوجئ بأنامل دقيقة باردة كالثلج ,وناعمة تحيط بذراعيه العاريتين, وتقبضان عليه بقوة وتصميم..

حاول التملص من هذه القبضات الرقيقة القوية فلم يستطع ..هنا صرخ بأقوى مايملك..صرخ وهو يشعر بقدميه واهنتين ترتعشان كأقدام طفل يتعلم الحبو ..

صرخ ..فترددت في المكان ضحكةٌ أنثويةٌ مثيرةٌ ..صرخ وصوت جميل يقترب من أذنه, ويهمس فيهما بنشوة:

-خائف أنت ومذعور ياصغيرى ..إن هذا يطربنى بشدة..

هنا لم يعد فى الإمكان أن يظل بوعيه كل هذا الوقت ,والهول بجواره ..لقد ظل محتفظاً بوعيه لفترة أطول من اللازم ,ففقد وعيه بين يديها.

بالخارج تعالت الدقات القوية على باب بيته منادية عليه ,وقد انتبه بعض جيرانه لصرخاته ؛فهبو إليه لنجدته..تحطم الباب تحت وطأة الأكتف القوية التى راحت تصطدم به بقوة وحماس ..

أضاء المصباح الكهربائى فجأة ,حين تحطم الباب ليجد المندفعون عم منصور راقداً على الأرض ومغشياً عليه بجوار الفراش ,والعطر الأنوثى المثير يملأ الفراغ..لم يكن هناك فى المكان أحد ما غيره ..انهكموا فى إفاقته , وراحوا يخمنون ماذا حدث له.

(26)

فى نفس الوقت كان هناك أمر مثير آخر يحدث مع جمال الذى أُطلق سراحه منذ أيام لعدم توافر الأدلة .. عاد من القهوة كعادته كل يوم بعد أن انتصف الليل ..

فلم يكن يغادر القهوة إلا حين يكون متأكداً من أن زوجته قد نامت ,وأنه لن يجدها بانتظاره حين يعود ..

كان يسكن في الطابق الثانى فى عمارة صغيرة من أربعة طوابق بحى المطرية..صعد الدرج المظلم بهدوء ,وفتح باب شقته محاذراً أن يصدر عنه صوت ما ..ثم دخل سائراً على أطراف أصابعه ..

وقف للحظة صامتاً ليتأكد من أنه لا أحد مازال متيقظاً بالبيت ..أرهف سمعه ,فلم يصل لأذنه إلا أصوات الأنفاس المنتظمة لأبنائه وزوجته النائمين ..ابتسم باطمئنان قبل أن يتجه إلى المطبخ..كان يبحث كعادته عن الطعام الذى تتركه له زوجته كى يأكله قبل أن ينام ..

أضاء المصباح وتطلع إلى المنضدة الخشبية التى تتوسط المطبخ ..كان هناك طبقان مغطيان بورق جرائد ,كشفهما ليجد طبقاً من الأرز وآخر به بامية مطبوخة تتوسطه قطعة صغيرة من اللحم ..

شعر بالسعادة لهذه الوجبة, وتحركت شهيته..فهناك لحم اليوم .. اتجه إلي الثلاجة ليحضر زجاجة مياه باردة تجرع منها جرعات كبيرة ,قبل أن يعود للمنضدة ؛ليجلس على أحد كراسيها ,ويبدأ فى التهام عشائه ببطء, وهو يدندن أغنية لعبد المطلب يحبها ..

-ياحاسدين الناس مالكم ,ومال الناس ..

كان ظهره للباب إلا أنه شعرفجأة أن هناك من يقف خلفه بجوار الباب ويراقبه ... ازدرد معلقة الأرز التى كان يهم بابتلاعها بصعوبة ,وقد أيقن أنها زوجته حتماً فمن غيرها يتحرك بمثل تلك الخفة التى تميز الزواحف؛ فلا تشعر بها أبداً ..هى ليلة سوداء بالتأكيد ..عبس وهو يلتفت برأسه مستعداً للعراك, لكنها لم تكن زوجتة ..

كان من المستحيل أن تكون هي.. زوجتة لاتختلف عن جوال من البصل يسير على قدميه ..أما هذه فهى حورية ..

تطلع إليها بذهول حتى أن فمه الممتلئ بالطعام قد فغر ,وسال على جانبه الأيسر بعض اللعاب..كانت تبتسم له ابتسامة شديدة العزوبة..

تساءل فى سره من تكون, وهو يتنفس بعمق تلك الرائحة الأنثوية المثيرة التى تفوح منها..أتكون إحدى قريبات زوجته؟! ظلت كما هى بمكانها بجوار الباب ترمقه بصمت ,وابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيها ,وظل يرمقها بانبهار قبل أن يقول:

-مرحباً ..أنت إحدى قريبات زوجتى ؟..

هزت رأسها ببطء نافية ,وأجابت بصوت ساحر:

-إننى ضيفتك هذه الليلة.

اتجهت إليه بخطوات لاصوت لها ,وعيناه معلقتان بها لاترمشان , وجلست بجواره, وأكملت بصوت ساحر أثمله:

-أكمل طعامك ...أحب أن أراك تأكل.

التفت إلى الطعام ,وبدأ فى التهامه بشهية, دون أن يرفع عينيه عنها ,وقد جلست أمامه ترمقه بعينين نجلاوين أسكرتاه..

كان كالمنوم مغناطيسياً ..

ظلت تبتسم حين تذكر فجأة أين رأها من قبل..هبط الجواب على رأسه فجأة كالمصائب التى تأتى بلا توقع..

إنها هى جثة الفتاة التى فى المشرحة..

هنا اتسعت ابتسامتها, وهى تلاحظ فكه السفلى الذى تدلى ببلاهة ورعب, ونظرة الهلع التى ارتسمت على قسمات وجهه ,وبقايا الطعام التى كان يلوكها ظاهرة خلال فمه الفتوح , فقالت ,وهى تشير بإصبعها نحو صدرها:

-نعم إننى هي..ألاترانى فاتنة ؟...

كان هذا وقت الذعر, وكان يجب للجنون الآن أن يمرح ,إلا أنه تيبس على مقعده ,ولم يقو على فعل أى شيء.. فقط أعلن قلبه عن تمرده فراح يدق بعنف واضطراب..

اقتربت منه فى هذه اللحظة بوجها وجسدها يميل نحوه, وغمزته بعينها اليسرى ,وقالت بمرح :

-فى المرة القادمة انتبه لما تأكل..

بعنف اتجهت نظراته إلى طعامه ...الأرز صار دوداً مقززاً ,والطبيخ كان دماءً ..هنا لم يستطع أن يكتم صرخاته أكثر من

ذلك , فانطلقت من حنجرته صاخبةً؛ لتٍمزق سكون البيت .. حينها اندفعت زوجتة من الحجرة صارخةً هى الأخرى على صوت صرخاته, لكن الفتاة حينها لم تعد بالشقه .

ظل يصرخ لفترة من هول ماحدث له وجزعاً مما أكله.. أخذت معدتة فى التقلص والتمرد على مادخلها ,فانتابته نوبة عنيفة من القيءفانحنى ليفرغ تحت الطاولة ماأكله, وزوجتة تراقبه بوجل ,وهي لاتكف عن سؤاله عما حدث له ..لكنه فى تلك اللحظة لم يكن قادراً على الإجابة ..وظل هكذا طوال الليل ...

(27)

فى نفس الوقت كان متولى هو الآخر يمر بلحظات لاتقل إثارة عما يمر به زميلاه .. كان قد استلقى على فراشه فى انتظار أن تأتيه زوجته التى كانت تحاول بشتى الطرق أن تجبر أبناءها الأربعة على النوم ..لعنت خلالها مراراً القاهرة أو مصر كما كانت تسميها ..

فحين عاشوا فى قريتهم بمحافظة البحيرة كان يكفى أن تؤدى صلاة العشاء ؛ليخلد أبناؤها بصورة تلقائية للنوم بعدها..كانت أيام مبهجة وبسيطة ..وبالرغم من مرور فترة لابأس بها منذ انتقالها للحياة بالقاهرة, إلا أنها لم تعتدها بعد.

لم تعتد أن تعيش فى المدينة الصاخبة التى لاتنام قبل الصباح ..المشكلة أن أبناءها تأقلموا بسرعة ,وبصورة مخيفة على الحياة هنا .. صاروا يستيقظون متأخرين بعد الظهر ,وينامون بعد منتصف الليل .. بل والأفدح أنهم قد امتلكوا جرأة الرد عليها أحياناً لو زجرتهم.. وتعلموا أن يرفضوا ماتصنعه من طعام لهم لو لم يروق لهم ..

بل وأخذوا يحدثونها الآن عن ملابسها التى عليها أن تغيرها ؛لأنها لاتليق بها الآن ..لقد غيرتهم تلك المدينة الوحشية حين أبهرتهم بأضوائها ..لكنها لن تنهزم أمام فتنها وإغرائها مهما حدث.

أخذ متولى يفكر وهو راقد على فراشه ..كان لبه مشغولاً بصفقة جديدة من صفقاته التى لاتنتهى ..

هناك ستة طلاب من طب القاهرة جاءوا يسألونه أن يوفر لهم هياكل عظمية كاملة, وطالب سابع كان يبغى جثة سليمة على أن يحفظها هو بالفورمالين قبل أن يتسلمها الطالب منه..

كان هذا يعنى مبلغا من المال لابأس به يضاف لجيبه , ورحلة أخرى لقريته لجلب الهياكل .فراح يفكر إن كان يستطيع توفير تلك الصفقة كاملةً ..

من حسن حظه أنه كان على علاقة جيدة بعم عبدالواحد .. حانوتى القرية ..لم يتعب كثيراً فى إقناعه بنبش القبور ,وإخراج أحشائها من بقايا البشر القابعين بها ليوم الحشر ليسلبهم أجسادهم وعظامهم ..فالحى دائما أبقى من الميت, كما أن الموتى لم يعد هناك ماقد يضيرهم ..

لقد انتقلت أرواحهم الى بارئها أما أجسادهم؛ فهى جيفة يأكلها الدود والتراب ..أقنعه أنهم لايقومون فى عملهم هذا بأمر يحرمه الله.. ألاتساعد هذه الهياكل والجثث الطلاب على معرفة تكوين الإنسان وتركيبه.. وكل هذا لإعدادهم لأن يصبحوا فيما بعد أطباءً مهرة يعالجون المرضى ,ويحاربون الأسقام ويقاومونها..

إن مايقومون به هو من أجل العلم, و يخشى اللهَ من عبادهِ العلماءُ ..

كان كلاماً بالطبع لايقنع أحداً , لكن حين تضيف إليه سحر المال, فسيصير هذا الكلام من درر الحكمة وعجائب الدهر .. لذا لا تتعجب حين تجد عم عبدالواحد قد وفر الجثث من أجله, ثم يقبض فى يديه ثمنها..ليتمتم بعدها بخشوع..جزاك الله خيراً.

ولأن تجارته بالجثث والعظام قد اتسعت, وصار مقصد الكثير من طلاب الطب ,فقد قام عن طريق عم عبدالواحد بالاتفاق مع عم عبدالودود ,حانوتى إحدى القرى المجاورة لقريتهم , ليجلب لهما هو الآخر المزيد من الجثث والهياكل من الجبانات التى يقوم برعايتها ..

ظل سارحاً فى خيالاته حين لاحظ أن النور قد أطفأ فجأة ,وقبل أن ينادى زوجته شعر بها تدلف إلى السرير, وترقد إلى جواره, فاقترب منها ليحتضنها شاعراً بجسدها الدافئ, وقال منتشياً ويداه تحيطان بجسدها الغض:

-اقتربى منى أكثر؟.

لم تقاومه وإن تعالت أنفاسها ,وأفعمت المكان بعطر مثير ذكّره بشيء ما لايذكره تحديداً ,فتنشق العطر بعمق ليفاجأ بأن ملمس ذراعيها اللذين يحيطهما بذراعيه قد صارا باردين فجأة, فقال بتعجب ,وهو يبعد كفيه عن جسدها:

-مالك باردة للغاية هكذا ؟

لم يجاوبه إلا أنفاثاً لاهثة.. ثم فوجئ بصوت زوجته يأتى من خارج الحجرة قائلاً:

-مع من تتحدث يامتولى؟!...

انتصب شعر رأسه وتواثب قلبه..إذا كانت زوجته بالخارج تناديه الآن , فمن هذه؟! ..هبط الجواب على رأسه مرة واحدة مفزعاً ومخيفاً ,حين تذكر العطر الذى يفوح من تلك المرأة ..كان هذا هو عطرها الذى شمه من قبل ..عطر الفتاة التى جلب جثتها

للمشرحة وهاجمته بعدها ..لم يتمالك نفسه, فأطلق صرخة فزع ،وصوت مخيف يهمس فى أذنيه بجذل:

-نعم إننى هى ..وقد جئت لآخذك معى ..

حاول أن يدفعها بيديه بعيداً عنه ,وهو يطلق صرخةًأخرى .. إلا أنه أحس فجأة بدوار مفاجئ يغطى مناطق وعية ,وبعدها لم يشعربشيء ..

أما زوجتة فحين سمعت صرخات زوجها تتعالى فى الظلام لم تألوا جهدا فى أن تطلق صرخات قوية توقظ الموتى ..واندفعت بفزع نحو الحجرة لتجدها خالية من زوجهاالذى وصلها صوته منها منذ قليل ..فاستمرت فى إطلاق صرخاتها,وعيناها تبحث عن زوجها الذى اختفى من الحجرة فجأة، واختطفته الشياطين .

(28)

في الصباح كان عبد الدايم كعادته أول من وصل للمشرحة .. حيّا العسكرى الأسواني دقيق الجسم ,ذو البشرة السمراء, الواقف على باب المشرحة ,والمكلف من الشرطة بحراستها .. ودعاه لأن يتناول إفطاره معه, فلبى العسكرى الدعوة بامتنان.دخلاالمشرحة سويّاً, فغطى الجندي أنفه وفمه بمنديل حين واجهته رائحة الفورمالين الخانقة قائلاً :

-هل الرائحة هنا سيئة دوماً هكذا؟ ..لا أدرى كيف تحتملونها

ضحك عبدالدايم ,وقال بلهجته النوبية الدافئة:

-أكل عيش يا بلدينا ..لقد تعودنا عليها منذ زمن فلم نعد نهتم أو نشعر بها.

- لاأظن أن رائحة كهذه من الممكن أن يعتادها المرء يوماً ما...

-صدقنى ..لقد اعتدناها بالفعل ..

-بالمناسبه ..أنا إسماعيل ..إننى من أسوان.

-وأنا عبدالدايم النوبى ..إننى من النوبة كما يشير اسمى وبشرتى..لكننى أعيش الآن هنا بالقاهرة.

هزّ الجندى رأسه ,وهو يتطلع إلي آخر قاعة المشرحة ,وقال بصوت خافت وعيناه تلمعان من الإثارة:

-هل يمكننى أن أرى الجثث التى هنا ؟..إننى لم أر جثثاً قط فى حياتى .

-بالطبع يمكنك أن تراها الآن..لكن عدنى ألا تخبر أحد .

قالها عبد الدايم ,وهو يمسك بيده, ويتقدمه نحو قاعة المشرحة ليريه الجثث..

دخلا قاعة التشريح فكان الهول بانتظارهما..فما رأياه كان أكثر فزعاً من الكوابيس نفسها......

أطلق عسكرى الأمن صرخة فزع ,وهو يحتضن عبدالدايم الذى راح جسده يرتجف هو الآخر ,وهو يتمم :

-ياإلهى ..ياإلهى ..

فأمامهما كانت الجثث الموجودة بالمشرحة بأكملها معلقةً فى الهواء بصورة مقلوبة, فكانت أرجلها لأعلى ,ورأسها للأسفل, وقد تقاطعت أذرعها أمام صدورها ,فى وضع مشابه لوضع المومياءات الفرعونية المحنطة.. وفى منتصف الجثث المعلقة فى هذا الوضع المخيف ظلت جثة على منضدتها .

كان جليّاً أن الجثث تصنع بأجساها رءوس نجمة خماسية الأضلاع ، وتتوسط تلك النجمة الوهمية جثة الفتاة .

حانت التفاتة من عبدالدايم إلى إحدى الجثث المعلقة ففوجئ أنها لمتولى . كان عارياً تماماً من ملابسه ,مثله مثل الجثث التى تسبح بجواره ،وقد احتقن وجهه بشدة من جراء وضعه المقلوب هذا .

ظل الجندى يرتجف ,وهو لايصدق مايراه ,وذعر هائل يعجزه عن فعل أي شيء ما ,فأخذ يبسمل, ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

أما عبدالدايم ؛فقد تغلبت مروءته على فزعه ,فصاح بالجندى بتوتر ,وهو يشير إلى جسد متولي بإصبع مرتجف:

-إنه متولى ..ساعدنى يا إسماعيل أرجوك كى ننزله .

تطلع إليه الجندى بفزع ونظرة خاوية على وجهه تشى أنه لم يفهم مايقوله أو لايصدق أنه يطلب منه التدخل فى أمر كهذا ..أشعره ما يراه أن أبواب الحجيم قد فتحت ,وبصقت كل شياطينهاهنا الآن ..

لاحظ عبدالدايم جموده ..فهزه بيده بعنف ,وهو يصيح به:

-إنه متولى زملينا بالمشرحة معلق بين الجثث ..ساعدنى لننزله .

انتبه الجندى إلى متولى ,فقال بصوت مضطرب :

-وما الذى ذهب به إلى هناك؟!...

-وما أدرانى .. ولكن علينا أن ننزله الآن ..

-وكيف سنفعل هذا؟!...

-سنجذبه لأسفل معاً ...ولكن انتبة حتى لايسقط على رأسه فيصاب.

اندفع الاثنان ناحيته ,وهما يتحركان بحذر بين الجثث المعلقة متطلعين إليها بتوجس ورعب ..تخيّل الجندى الشاب أن تمد إحدى الجثث المعلقة يدها نحوه فجأة, لتمسكه من رأسه أو شعره فاقشعر بدنه..شيء كهذا سيوقف قلبه حتماً له لو حدث .. وصلا إلى متولى ؛فجذباه كل من أحد كتفيه ..

كان بارداً..لكنهما لم يلتفتا لهذا الأمر ..جذباه بقوة أكبر محاولين التغلب على مقاومة خفية تجذبه لأعلى ..مضت لحظات من المحاولات الحثيثة دون جدوى وفجأة اختفت تلك المقاومة الخفية لجذبهما مرة واحدة, فسقط جسد متولى عليهما وأسقطهما معه..ونجح عبدالدايم بسرعة فى حماية رأس متولى من الارتطام بالأرض بأن احتضنها ..

اندفع الاثنان بعدها فى جر جسد متولى للابتعاد به عن هذا المكان الملعون , وراح الجندى يصرخ بفزع:

-دعنا نخرج من هذا المكان الملعون ..أسرع بالله عليك..هيا أسرع.

أسرعوا فى جر متولى جراً ..وجذبوه نحو حجرة العمال,ثم وضعوه على الفراش ..وبينما غطاه عبدالدايم ببطانية صوفية ,اندفع الجندى فجأة نحو باب الحجرة فاراً , كأنما تتبعه الشياطين ,وهو يصرخ :

-لن أمكث فى هذا المكان الملعون لحظة واحدة بعد الأن..ليسجنوننى لو شاءوا ..لكننى لن أعود لهنا ثانية.

بالطبع لم يكن عبدالدايم بقادر على لومه ..جثث معلقة فى الهواء؟.. أى فعل شيطاني هذا ؟..

كان يتمنى هو الآخر أن يفر من المكان , إلا أنه لم يكن ليترك متولى بمفرده فى مثل هذه الحالة.. لذا أخذ يهز رأسه وجسده بصورة محمومة محاولاً إنعاشه وإفاقته..

لكن متولى بالرغم من انتظام أنفاسه الآن وتحسنها قليلا, لم يستجب لمحاولاته إلا بعد وقت طويل..

(29)

- أى جنون اعترى الجميع هاهنا ..جثث تطير فى المشرحة ..عن ماذا تتحدثون ؟..

قالها الدكتور نعيم بعصبية شديدة واستنكار ,وهو لايصدق مايلقيه عبدالدايم على أذنه.

كان عبدالدايم يقف أمامه بصحبة عم منصور وجمال ومتولى الذى بدا شاحباً للغاية ,وبصعوبة بالغة استطاعت قدماه أن تحمله..كان يرتدى ملابساً قديمة لعم منصور كان يحتفظ بها فى المشرحة..قميص رمادى وبنطالون صوفى أسود واسع, وبدا جسده غارقاً فى الملابس الواسعة للغاية فأضفى له هذا منظراً مضحكاً..

وجم الجميع أمام استنكار الدكتور نعيم وثورته ,لكن عبدالدايم استمر فى جداله قائلاً دون خوف:

-ياسيدى ما أقوله الآن هو ماقد حدث, ولست أختلق أو أتوهم شيئاً مما ذكرته ..وهاهو متولى أمامك ليؤكد كلامى, وهناك أيضا جندى الأمن الذى كان شاهداً على ماحدث هو الآخر..

كاد الدكتور نعيم أن ينفجر في وجهه ,وخاصة حين لمح نظرة عبدالدايم المتحدية اللامبالية بغضبته,إلا أنه تمالك نفسه وقال من بين أسنانه ببطء :

-إذن فأنتم تريدون منى أن أصدق أن الجثث بالمشرحة كانت معلقة فى الهواء ,ومتولى بينها كذلك ومعلق هو الاخر من قدميه فى الهواء ..أليس هذا ماترغبون منى فى تصديقه.؟

-إن هذا ماحدث بالفعل ..ولقد تركنا المشرحة ,وهى كذلك.

قالها عبدالدايم بشئ من التحدى ,فالتفت الدكتور نعيم إلى عم منصور وجمال, وقال لهما ,وهو يلوح بأصابعه فى الهواء:

-وماذا عنكما ؟..هل رأيتم أيضا الجثث المعلقة؟.

أسرع عم منصور يجيب بتوتر:

-أنا لم أدخل المشرحة بعد ..فلم أر شيئاً ..لقد صحبتهما إلى هنا مباشرة.

-هذا يعنى أنه لا أحد قد دخل المشرحة مذ كانت الجثث معلقة أليس كذلك ؟..

هز بعضهم رأسه مؤكداً ..فاستطرد الدكتور نعيم بنفس الصوت الرتيب البطيء.

-إذا يمكننا أن نذهب إلى هناك لنرى تلك الجثث المعلقة بأعيننا.

قالها ,ثم نهض من مقعده, وانطلق بعصبية ,وخطوات سريعة نحو المشرحة ..كان حانقاً عليهم جميعاً , وعقله يأبى أن يصدق حرفاً مما يدعونه ..

إنهم جميعاً ثلة من الجهلة يهرتلون بلا شك..لكنه لن يسمح لهذا الهراء أن يستمر للأبد ..وسيثبت لهم الأن أنهم حمقى ويكذبون.

تبعوه مهرولين, وهو يتجه للمشرحة ..دفع بابها الخارجى بعنف واتجه مباشرة ,وبلا تردد نحو قاعة التشريح..دلفها, ثم توقف

مباشرة بعد الباب ,وتطلع إليها للحظة قبل أن يلتفت إليهم قائلاً بلهجة ساخرة ,ويده تشير إلى الجثث الراقدة على مناضدها:

-هاهي الجثث كما هى على مناضدها ..فأين إذاً تلك الجثث المعلقة ؟..

تطلعوا هم الآخرين بتوتر إلى الجثث ,بالفعل كانت على مناضدها كالمعتاد ..هنا هتف عبدالدايم بحيرة وضيق, وهو يخشى أن ينعوته بالكذب:

-أقسم بالله أنها كانت معلقة فى الهواء ..كل الجثث كانت كذلك إلا جثة تلك الفتاة ..وحدها كانت كما هى

صاح الدكتور نعيم ,وهو يشعل سيجارة ببعض التعالى والحزم:

-هل ستستمر كثيراً فى صب هذا الهراء على آذاننا ..إننى أمنعك عن هذا..ولو استمررت فى ادعائك هذا ,فسيكون هناك كلام آخر.

قال عبدالدايم بيأس ,وعيناه تستنجدان بزملائه :

-هناك جندى الشرطة يمكنك أن تساله.. لقد كان هنا ورأى كل شيء مثلى..إساله أرجوك ..إننى لا أكذب

-لن أسأل أحداً عن أى شيء.. لقد انتهى الحديث فى هذا الهراء ..ولن أسمع حرفاً آخراً فى هذا الشأن بعد الأن.

قالها الدكتور نعيم ببرود ,ثم التفت إلى متولى مستطرداً بحزم:

-أما أنت فأريد تفسيراً منطقياً لوجودك بالمشرحة عارياً..أخبرنى كيف فعلت هذا ؟..

غمغم متولى بإعياء حقيقى:

-إننى لا أعلم شيئا مما حدث ..وآخر ما أتذكره أننى كنت بفراشى بالأمس ,ثم استيقظت لأجد نفسى هاهنا...

لم يرغب متولى فى أن يقص عليه ماحدث له بالأمس على فراشه قبل أن يفقد الوعى.. كان مشوشاً ومرعوباً مما حدث .. صحيح إنه لايدرى كيف جاء للمشرحة ,ولا كيف صار عارياً معلقاً للسقف ..إلا أن ماحكاه له عبدالدايم حين أفاق ,وكيف أنه كان عارياً ومعلقاً فى الهواء بين الجثث أورثه رعباً يفوق الوصف , وارتسم فى عقله تساؤل مخيف ..

ماذا كان سيفعل لو أفاق فجأة ,ووجد نفسه هكذا معلقاً من قدميه فى الهواء وحوله الجثث معلقة ..بالتأكيد لن يحتمل قلبه شيئاً كهذا ,وستكون نهايته ..

كان هذا هو نهاية عمله فى المشرحة, ولو كان عمله بها يكسبه ذهباً .. فهناك حكمة يفهمها جيداً..

الموتى لايعرفون الذهب.. لذا فعليه أن يعيش إذا أراد أن يستمتع بأمواله.

لذا لم يبال بنظرة الدكتور التى رمقه بها ببرود , قبل أن يقرر الدكتور نعيم أن يغادر المكان بكل الهراء الذى به,لولا أن قال لهعم منصور هذه المرة :

-نحن أيضا نصدق عبدالدايم يادكتور ,وهناك أيضا ما أود أن أحكية لك أنا وجمال.

قالها , فتطلع إليه الدكتور نعيم بنفاذ صبر, وهو ينفث دخان سيجارته بضيق ,فحكى له عم منصور وجمال ماحدث لهما بالأمس..

اكتفى الدكتور نعيم بالصمت ,وراح يرمقهما من حين لآخر بتوتر مغالباً إحساسه ولم يعقب ,ثم هزّ رأسه بقوة كأنما يطرد كلامهم منها , ثم تركهم وغادر المشرحة دون أن يعلق على ما قالوه , فتطلع الأربعة إلى بعضهم البعض بتعجب ,وقال عبدالدايم بحنق:

- لا أدرى لماذ يرفض أن يصدق؟..لا أظن أننا كلنا يختلق ويدعى ما حدث.

قال متولى بلامبالاة:

-لايهمنى الآن تصديقه من عدمه, فلن أمكث لحظة واحدة فى هذا المكان بعد الآن..لن أحتمل رعبا آخرا فى هذا المكان ..إن مرتين من الفزع تكفى.

وافقه جمال الذى قال بخوف ,وجسده الضخم يرتجف ,ويهتز بانفعال:

-ولا أنا سأمكث هنا..سأستقيل أنا الآخر..ولتذهب تلك الوظيفة المشئومة إلى الجحيم .

حاول عبدالدايم أن يهدئهما أو أن يثنيهما عن قرارهما ,ولم يتكلم عم منصور ..كان يتذكر كل ماحدث له ولهم ,ويحاول بعقله أن يربط كل تلك الأحداث بخيط واحد..كانت كل الأحداث تنتهى كل مرة عند جثة الفتاة.. لقد بدأت تلك الأحداث بعدما جلبها متولى

..كما أن من يهاجمهم كل مرة كانت هي ..هل تكون هذه الجثة ملعونة ؟..

وجد نفسه يقول فجأة قاطعاً الجدال القائم بين باقى العمال وهو ينظر إلى متولى بسخط:

-متولى من أين أتيت بهذه الجثة اللعينه؟.

(30)

-إننى على عكسك تماما يادكتور نعيم أصدق كل ما قالوه..إن مامروا به يتفق مع ما أفكر فيه..من المستحيل أن يختلقوا كل هذا.

غمغم بها الدكتور مصطفى للدكتور نعيم حين قص له ماحدث..كان الدكتور مصطفى علي يقين الأن أن أمراً ما غير طبيعى يحدث بالمشرحة ,ويرتبط هذا الأمر بالجثث أو بجثة الفتاة على وجه التحديد ..

كان يمتلك عقلاً مرناً,ولم يكن بالشخص الذى يرفض فكرة ما مهما بدت غرابتها إلا بدليل عقلى لايدحض..رأى أنه من المستحيل أن يختلق العمال كل هذه الأحداث ,فلاهدف ما سيحققونه باختلاق أحداث كهذه ..كما إنه من المستحيل أن نتهمهم جميعاً بالهلوسة أو الجنون ..

هل نواجه كائناً شيطانياً ..هل نواجه جانّاً ..كان هذا هو السؤال ..

حين كان صغيراً شاهد فى قريته الصغيرة بالقليوبية بعينه أحداثاً مخيفة تحدث لأحد أقاربه ..اتفق الشيوخ حينها على أن جانّاً ما قد أصابه بالمس ..كان كثيراً ما يرى قريبه هذا يثور فجأة دون مبرر, فيحطم كل ماحوله قبل أن يهدأ فجأة ..كان قادراً على تحريك كتل صخرية تزن أكثر من عدة أطنان بيديه بالرغم من ضعفه وهزاله ..وكانت النيران تشتعل فجأة حوله .. بل وكاد مرة

أن يحترق على فراشه ,حين بدأ السرير فى الاشتعال بينما كان نائماً عليه ..

كانت تجربة مريرة لأسرة قريبه هذا عاشها معهم وكان شاهداً عليها .. وقد انتهت للإسف بموت هذا الشخص غرقاً فى مصرف المياه ذات مساء ..

كان يؤمن بأن هناك الكثير مما يدور حولنا, ولانشعر به أو نراه, ولكنه موجود وربما يؤثر علينا أحياناً بشكل ما ..لذا قال للدكتور نعيم متسائلاً:

-هلا تخبرنى بالفائدة التى تعود على العمال من اختلاق هذه الأحداث الكثيرة المتلاحقة؟!

لم يجد الدكتور نعيم إجابة محددة لهذا السؤال, لذا قال بحيرة:

-المشكلة أن مايقصونه يفوق قدرتى على التصديق ..إنهم اليوم كما أخبرتك يحدثونى عن جثث معلقة من أرجلها فى الهواء , ليس هذا فقط بل يتحدثون عن متولى الذى نام على فراشه ليجدوه اليوم معلقاً هو الآخر بين الجثث عارياً ..لو كان ما يقولونه قد حدث بالفعل ,فكيف وصل إلى هنا, ومن الذى فعل به هذا؟..هل هناك عاقل يصدق هذا الهراء؟..

-يمكنك أن تضيف هذا السؤال إلى عشرات الأسئلة الأخرى التى تحيرنا .

وضع الدكتور نعيم يديه بإرهاق على سطح مكتبه, وأسند رأسه عليهما, وقال بصوت ضعيف حائر:

-مارأيك أن تتولى أنت الأمر ..فأنا لست بقادر على التفكير فى أى شيء الآن .

-قرار صائب .. سوف أتولى الأمر من هذه اللحظة ,إن لدى شكوكاً قوية حول جثة الفتاة التى جلبها متولى ..سأذهب إليه ليُعْلَمنى من أين أتى بها ,وما قصتها ,ولو اقتضى الأمر سأذهب للمكان الذى أتى بها منه بنفسى لأعرف قصتها..لقد كان هذا ما نويته كما أخبرتك من قبل ..وأظن أن وقت البحث جديّاً لمعرفة ما الذى يحدث قد حان.

-أتمنى أن تفلح فى مقصدك ..إننى أريد أن ينتهى هذا الكابوس بأى صورة كانت.

-إن شاء الله سوف ينتهى كل هذا فى أقرب وقت,إننى أتوقع أن تقدم لنا تلك الخطوة بعض الإجابات التى تحيرنا.

هزّ الدكتور نعيم رأسه موافقاً على الاقتراح قبل أن يقول مكملاً:

-وهل تنوى أن تستعين بأحد ما فى هذا الأمر؟

-سأكتفى بنفسى فى البداية ,وأرجو ألا نلجأ لأحد الدجالين الذين يسخّرون ملوك الجان الذين لايحلو لهم كى يبوحوا بأسرارهم إلا للغربان المصابة بالبواسير، والديوك المصابة بعمى الألوان ،والضفادع التى تشكو من عسر الهضم.

ضحك الدكتور نعيم وقال :

-لو أن هذا سيفيد فسألجأ له ..على العموم افعل ماتراه صواباً,وسأدعو الله أن تنجح فى مسعاك حقّاً..

قالها ,وأكمل فى سره.

-وإن كنت غير مقتنع تماماً بما تفعلة .

(31)

وصل الدكتور مصطفى ومتولى إلى قرية أولاد عكاشة قرب المغرب..تلك القرية التى تلتصق بقرية متولى, والتى جلب منها متولى جثة الفتاة ..

رحلة شاقة لأكثر من أربع ساعات بالسيارة بين طرق صغيرة وعرة ,وغير ممهدة ذات انحناءات حادة تنذرك دوماً بأنك فى لحظة سهو واحدة ,قد تنقلب بك السيارة أو قد ترقد بك فى أعماق ترعة أو مصرف مياه ..

لاحظ الدكتور مصطفى الذى يقود السيارة مظاهر الدهشه التى تعلو وجوه الفلاحيين العائدين من أراضيهم قرب المساء,بعد يوم عمل شاق فى هذا الطقس الحار الذى خنق أنفاسه, وهم يتطلعون إلى السيارة بفضول..

لابد أن قدوم سيارة ما إلى هذه الأنحاء كان قليلاً, فصار حدثاً أن يرى الفلاحون سيارة تخترق قريتهم ..

عند مدخل القرية أشار متولى للدكتور مصطفى بالانعطاف بالسيارة نحو طريق فرعى, فنظر الأخير إلي الطريق بقلق , وهو يلاحظ مدى ضيقه, قبل أن يقول لمتولى:

-هل تظن هذا الطريق يتسع للسيارة ؟..أخشى أن يكون ضيقا.

-اطمئن يادكتور..الطريق سيتسع للسيارة ,وليس ضيقاً كما يبدو ..إنن آتى الى هنا بسيارات أضخم حجما ويستوعبها الطريق.

لم يكن امامه إلا أن يجرب ,فانحرف الدكتور مصطفى بالسيارة نحو ذلك الطريق ,ثم سار بها ببطء ..وكما توقع وخلافاً لما قاله متولى كان الطريق غير ممهد وضيق بصورة مخيفة وأخذت السيارة تتقافز عليه كلما عبرت حفرة,أو اصطدمت بنتوء به.. كان جانب الطريق الأيمن أراضٍ منخفضة وحدّه الأيسر ترعة صغيرة..

كان على الدكتور مصطفى أن يعود بعد ساعات من الآن من نفس الطريق مرة أخرى ..حينها سيكون هناك الليل بظلامه ..ولأنه أسوأ سائق بالظلام ,فقد شعر بالتوتر..

لكنه نفض عن رأسه تلك الأفكار ..وقرر أن يترك كل شيء لحينه .. فلا أحد يعلم ماسوف يحدث بعد ساعات.

لاحظ بعض الصبية الذين أخذوا يعدون خلف السيارة ,ويلاحقونها كي يلمسونها, ويعتلون سطحها إن استطاعوا , فصار أكثر حذراً كى لايصطدم بأحدهم ..وبعد قليل لاحت من بعيد شواهد قاتمة انعكست خلفها أشعة الشمس الغاربة بحمرتها المقبضة ..فقال متولى مشيراً إليها:

-لقد وصلنا يادكتور..

اتجه الدكتور بالسيارة نحو مساحة عارية واسعة بجوار المقابر ,فأوقف السيارة بها ,ثم ترجّل منها ..

أشار متولى إلى حجرة من الطوب اللّبن معروشة بالخشب مقامة فى مقدمة المقابر قائلاً:

-هذه حجرة عم عبدالودود ..إنه يعيش بها.

سارا نحو الحجرة ,وقدماهما تطأ الأرض المليئة بالحصى , فى نفس الوقت الذى خرج من الحجرة رجل عجوز متجهاً هو الآخر نحوهما ..لابد أنه قد انتبه إلى صوت السيارة, فخرج ليرى ما هناك..

كان نحيلاًللغاية ,وقد امتلأ وجهه بالتجاعيد حتى صار من العسير أن تحدد عمره الحقيقى ..واكتسبت عيناه الضيقتان صفرة مائلة للخضار تشى بكبده المعلول كما فتر فمه عن أسنان سوداء نخرة ..كان يرتدى كلسوناً بنياً حال لونه وصديرى أبيض مهترئ ذابت أطرافه..

اقترب منهما ببطء بقدم متباعدة الأطراف ,وعينان ضيقتان ترتعشان فى محجرهما وتتأملاهما بشك..

تعرّف على متولى فلانت ملامحه, وهو يقول مرحباً بصوت خشن :

-مرحباً يامتولى ..أهلاً وسهلاً بك يابنى .

قالها ,ونظر إلى الدكتور مصطفى بتوجس ,ومتولى يجيبه :

- أهلاً بك ياعم عبدالودود ..كيف حالك؟.. أتمنى ألا نكون قد أزعجناك.

-أهلاً بك فى أى وقت يابنى.

ثم أشار للدكتور مصطفى مكملاً بخفوتٍ وريبةٍ,وهو يرى ملابسه الأنيقة, ومنظره الحسن:

-الباشا مباحث ؟..

ابتسم الدكتور مصطفى لطرافة ما ظنه ..أدرك من الارتجافة البسيطة فى جفنا العجوز ,ويديه أن هذا الرجل ممن يتعاطون الحشيش وغيره غالباً, وأقصى رعب يعيشه أن يأتيه أحد من الشرطة ,وقد افتضح أمره.. لابد أنه لم يعد يخشى الموتى أو الأحياء..لكن أن يزوره رجل شرطة فهذا مايرعبه حقاً ,لذا أسرع قائلاً ليطمئنه:

-لست مباحث يا حاج عبدالودود..إننى طبيب.

وأسرع متولى يقدمه له قائلاً:

-هذا هو الدكتور مصطفى .. إنه أحد الأساتذة الكبار فى كلية الطب التى أعمل بها ..يمكنك ان تقول أنه رئيسى فى العمل.

لانت ملامح عبدالودود مرة أخرى, وظهرت ابتسامة حقيقية مرحبة على وجهه, وقال وهو يدعوهما للدخول:

-أهلاً وسهلاً يادكتور..زيارة كريمة .. تفضلوا من هنا.

دخلوا حجرته الصغيرة التى بان الإهمال فيها جليّاً , وقد تناثرت فى أركانها وجوانبها الكثير من الملابس المبعثرة ,وبعض أوراق الجرائد , والكثير من قطع الأخشاب المحترقة التي لابد إنه يستعملها كوقود للشيشة ..كانت هناك - أيضاً - برتقالة ملقاة فى المنتصف.. وتحت النافذة الوحيدة كان هناك فراش عتيق ,وبجواره انتصبت طاولة خشبية متهالكة عليها موقد كيروسيني وإناء لغلي الشاى ..و كان أسفلها بعض أوانى الطهى النحاسية وبعض الأطباق , وفى منتصف الحجرة على حصيرة من الخوص كانت هناك شيشة وموقد فحم..

كان هواء الغرفة كريهاً مبهماً، وبدا كمزيج من رائحة دخان عتيق ,ورطوبة عطنة بعض الشيء ..

أسرع الرجل يجمع ملابسه المبعثرة على الأرض داعياً إياهما للجلوس على الحصيرة..وشرع على الفور فى إعداد الشاى لهما ,وهو يشكو الروماتيزم ,والدم الذى يمتزج بالبول مصحوباً بحرقة شديدة ..

تفهم الدكتور مصطفى الأمر على الفور ..إنها البلهارسيا بالتأكيد ..نصحه ببعض النصائح , وأوصاه بإجراء بعض التحاليل ,وبعد أن انتهى من شكوى مرضه قال له متولى :

-لقد أتى الدكتور مصطفى إليك ليسألك عن شيء ما.

تطلّع إلى الدكتور مصطفى بتوجس ,وقال:

-وأنا تحت أمر الدكتور

قال الدكتور مصطفى بهدوء:

- أخبرنى متولى أنك ساعدته فى جلب جثة من هنا منذ بضع أسابيع , ونريد أن تمدنا ببعض المعلومات عن صاحبتها لو كان هذا ممكناً.

عادت إلى نفس الرجل بعض الريبة ثانيةً, فرفت عيناه وجلاً,وانتقلت بسرعة إلى متولى ,إلا أن الأخير هزّ رأسه له مطمئناً , فسكنت بعض مخاوفه ,وقال:

-لماذا يادكتور؟.. هل حدث شيء ما ؟!..

-نريد أن نعرف من صاحبتها ,وكيف ماتت ..وأى شيء آخر عنها تستطيع أن تخبرنا عنه.

قال عم عبد الودود بدهشة:

- صاحبتها؟..لكن الجثة كانت لرجل يادكتور .

شعر الاثنان بالدهشة ,فقال متولى مذكراً إياه:

-إنها جثة فتاة ..تذكر ياعم عبدالودود جيداً ..لقد كانت الجثة لفتاة.

-يابنى أنا أعرف كل عين بالمقابر ,وأعى جيداً من دفن فى كل قبر..لقد أعطيتك جثة كمال أبو الفضل .

تبادل الدكتور مصطفى ومتولى النظرات الذاهلة, قبل أن يقول الدكتور مصطفى بهدوء:

-لكن الجثة التى جاء بها متولى كانت لفتاة صغيرة فى بداية العشرينات من عمرها ..ربما فتحتم مقبرة أخرى دون أن تنتبهوا وجئتم بجثة أخرى.

-مستحيل أن يحدث هذا يادكتور.. فأنا لاأخطئ أى قبر ..كما أنها لم تمت أى فتاة صغيرة هنا منذ زمن بعيد.

شعر كلاهما بالحيرة أمام ثقة الرجل وإصراره, ولم يدر متولى ماذا يقول, إلا أن الدكتور مصطفى تمسك باحتمال أن يكون الرجل قد أخطأ , فقد تقدم العمر بالرجل ,كما أن وعيه لا يبدو سليماً تماماً, لذا قال بنفس هدوئه:

-هل يضايقك ياحاج عبدالودود لو قدتنا إلى المقبرة التى جلبت منها الجثة لنراها ..نريد أن نتقين أنه لم يحدث خطأ ما.

- سأقودكم لها بالطبع لأريكم شاهد القبر لتتأكدا من كلامى ..إنه كمال أبو الفضل ,وهو من أعطيته لمتولى وليس أحداً آخر ..هيا بنا الآن لو شئتما..

قالها ,وقادهما وهو يحمل مصباحاً زيتياً مشتعلا إلى داخل المقابر.. كان الليل قد هبط الآن على المكان بظلامه وظلاله المتوجسة , فبدت شواهد المقابر مخيفة بعض الشيء, تبعث على الرهبة والخوف ..

شعر الدكتور مصطفى ببعض الخجل لهذا الشعور الذى انتابه لمرآها ..فبعد أعوام طويلة من التعامل مع الجثث بكافة أشكالها ,مازال يتوجس من زيارة المقابر ليلاً ..ومن بعيد علا نباح غامض متوجس لكلب ما ,فجاوبه نباح آخر أقل حدة ..إن ليال الصيف فى المقابر مميزة وحافلة بشدة.

ساروا حتى الصف الرابع من المقابر ,وتوقفوا بجوار شجرة ضخمة عتيقة برز بجوارها شاهد من الطوب الأحمر لأحد القبور , فأشار إليه عم عبدالودود بيده الفارغة, قائلاً وهو يسعل :

-هاهو القبر ..يمكنكم أن تقرءوا المكتوب على شاهده ..أليس هو كمال أبو الفضل ؟..

قرأ الدكتور مصطفى نفس الاسم على الشاهد, والذى كان مسبوقاً بالآية القرآنية (كلُ نفسٍ ذائقةُ الموت) بينما بدت الدهشة والحيرة على متولى ..فلم يكن هذا هو القبر الذى جلبوا الجثة منه ..

إنه مازال يذكرالقبر جيداً ,بالفعل كانت هناك شجرة بجوار القبر الذى جلبوا منه الجثة ,لكنها لم تكن بمثل هذه الشجرة ..كانت أكثر قدماً وأضخم جذعاً ,كما أن شاهد القبر كان أقدم من هذا كثيراً, ولم يكن مدوناً عليه أى اسم..ليس هذا هو القبر ..القبر الآخر مختلف تماما.

كان مازال يذكر النقش الغامض الموجود على أحد حواف شاهد القبر .. شيء غريب يشبه ثعباناً يأكل ذيله ,وإن طُمست عوامل التعرية كثيراً من خطوطه وحوافه ..قرب عينه ودقق فى جانب الشاهد ..لم يكن النقش موجوداً ..إنه لم يخطأ فى شكه إذا.. لذا اعتدل ,وقال بثبات وثقة:

-يبدو أنك أخطأت هذه المرة ياعم عبدالودود , لم يكن هذا هو القبر .. أنا أذكر القبر الآخر جيداً ..كان أقدم من هذا كثيراً والشجرة الملاصقة له لم تكن هذه الشجرة ..الاخرى كانت يابسة قديمة.

قال عم عبدالودود , وهو يحك رأسه بحيرة :

-ولكن هذا هو قبر أبو الفضل .

هز متولى رأسه بإصرار قائلاً:

-صدقنى ليس هذا هو القبر ..دعنا نبحث عنه فى الصفوف التالية.

لم يعلق عم عبدالودود, وسار أمامهم باستسلام مضيئاً لهم المكان بمصباحه,حتى وصلوا إلى الصف السادس من

القبور,فتوقف متولى ,وقال متنهداً بارتياح ,وهو يشير لشاهد قبر قديم:

-هذا هو القبر الذى جلبنا منه الجثة .

ظل الدكتور مصطفى صامتاً مترقباً ,وهو يتابعهما فى رحلة البحث عن القبر الصحيح ..تساءل فى نفسه هل أخطئوا وجلبوا جثة أخرى ..وهل دفنت الفتاة دون أن يعلم عم عبدالودود, مادام يصر على أنه لم يقم بدفن أى فتاة منذ فترة طويلة ..كان يعرف بحكم نشأته الريفية أن هذا يحدث كثيراً , وخاصة فى جرائم الشرف ..هنا يقوم أهل الفتاة بقتلها ليلاً, ثم دفنها سراً .. ولكن حتى لو كان هذا ما حدث..ففى النهاية سوف يثير غياب الفتاة الكثير من الشكوك والشبهات ,وسوف يكتشف الأمر حتماً ولو بعد حين..

فوجئا باللحاد العجوز ينحنى نحو الأرض ,و يتأمل التراب المحيط بالقبر, قبل أن ينهضٍ ويردد بخوف ,وصوت مرتجف ,وهو يخطو خطواتٍ سريعةً مبتعداً عن القبر:

-رحماك يالله ..رحماك يالله...

تبعاه بدهشة وقلق ,ومتولى يهتف:

-ماذا هناك ياعم عبدالودود ؟!..ولماذا تهرول هكذا؟!..

استمر عم عبدالودود فى السير مهرولاً, ومبتعدا, عن القبر كأنما تلاحقه الشياطين, وهو يصيح دون أن يلتفت للخلف:

-لقد جلبنا المتاعب لأنفسنا ولغيرنا ..لقد نبشنا قبرها..لقد أيقظنا شهرها .

ظل يردد غمغماته الغامضة حتى وصلوا إلى حجرته, وأمام أعينهم المذهولة مما يفعله ,ويقوله ارتدى بسرعة جلباباً فوق الصديرى , وكأنما هو فى عجلة من أمره وقال لهم بصوت ضعيف مرتجف:

-تعالوا معى ودعونا نبتعد عن هنا..سآخذكم إلى من يعرف أكثر منى ..عليكم أن تعلموا أى شر أيقظناه .

هنا قال له الدكتور مصطفى بدهشة:

-ماذا هناك ياعم عبدالودود؟..لماذا ابتعدت بخوف من ذلك القبر ؟ وماهذا الذى تقوله ؟..أخبرنا بالله عليك ماذا جرى؟!..

تجعدت تجاعيد وجهه أكثر ,وتقلصت عضلات فمه ,وهو يجيب:

-يبدو أننا ارتكبنا خطأً شنيعاً يادكتور .. لقد فتحنا على أنفسنا أبواب الجحيم..لم يكن علينا أبدا أن نقرب هذا القبر.

-أرجوك اهدأ قليلاً.. وأخبرنا مااللذى تقصده..من حقنا أن تفر لنا الأمر بدلا من حيرتنا هذه ..إهدأ يارجل وأخبرنا ماذا حدث.

-يادكتور ألم تفهم ماحدث؟..لقد دنسنا قبراً ملعوناً منذ أجيال .. قبر تعلمت أن أتحاشاه دائماً منذ امتهنت مهنتى هذه..أنت لم تر كيف لاتقرب الطيور أبداً هذا القبر ..هل لاحظت الشجرة التى تجاوره ..هل لاحظت موتها وتحجرها..لو كنا نهاراً لرأيت كيف تتحاشاها الطيور هى الأخرى , ولاتقف أبداً على أغصانها

المتيبسه..منذ زمن بعيد رأيت بعينى ذات مرة ذئب يتجول بين شواهد القبور..إن هذا شيء مألوف فى كل المقابر فى أى مكان ..

تتبعتة من بعيد خشية أن يكون قد اتخذ مكانا ما بين القبور وكراً له, فهذا أمر خطير للغاية ,فقد يهاجم حينها أحداً لو اقترب من وكره وقد يؤذيه.. لذا كان عليّ لو حدث هذا أن أطرده من المكان..يومها فوجئت بالذئب يقترب من القبر ,وإذا بشعر جلده بأكمله ينتصب ,وأخذ الذئب يعوى بصوت مخنوق لم أسمع مثله من قبل, قبل أن يندفع هارباً؛ كأنما تلاحقه كلاب الحجيم..وفى اليوم التالى وجدته ميتاً بجوار ذلك القبر دون أفهم ماحدث.

صمت بعدها لحظة ليبتلع ريقه الجاف , قبل أن يكمل وكلاهما يتطلع إليه بترقب ودهشة :

-يبدو أننا قد أخطأنا ودنسنا هذا القبر...ليغفر لنا الله هذا وليرحمنا من شره .. أنتم لم تستمعوا إلى الأصوات التى تنبعث منه أحياناً..همهمات كنت أسمعها لو اقتربت منه فجراً.. ضحكاتٍ ساخرةً فى الليالى المقمرة..وصرخاتٍ وأنين مفزع أحياناً أخرى كأنما هناك من يصلى جحيماً بداخله..إنه قبر ملعون ..ملعون

كان من الواضح أنه يخشى هذا القبر بشدة ..شعر الدكتور مصطفى بالإثارة ,وقد أحس بصدقه من الذعر الحقيقى البادى على وجه , بينما شعر متولى بالخوف ..أيكون حقّاً قد اشترك فى نبش هذا القبر ..وهل سيصيبه مكروه جرّاء هذا؟..بعد ماحدث له من قبل كانت الإجابة واضحة ..إن الجحيم بإنتظاره, لذا إبتلع ريقه بصعوبة ,وقال بتوتر بصوت اقرب للبكاء:

-من دُفن بهذا القبر ياعم عبدالودود؟..ولماذا هو ملعون ..لابد وانك تعرف حكايته كلها وسره ..أليس كذلك؟.

نظر إليهما بعينين التمعتا بدموع خفيفة ..قبل أن يقول:

-هذا القبر يحوى حكاية قديمة تتناقلها العجائز هاهنا منذ زمن طويل ..إن خالتى إحداهن ,وهى أكثر منى دراية بها ..لهذا سآخذكم إليها ..وهى من سيقص عليكم حكاية صاحبته .

(32)

غرقت البلدة فى ظلام الليل البهيم فتصاعد القلق بداخل الدكتور مصطفى, وهو يسير فى الشوارع المظلمة مع عبدالودود ومتولى ..فهاهو الليل قد استقر ,ولم يحصل بعد على الإجابات التى أتى من أجلها, بل ازدادت حيرته مع ما ذكره له عبدالودود عن القبر الملعون ..

كان فى طريقه للمرأة العجوز التى علّها أن تجلو الأسرار ,وتزيح الطلاسم .. ولكن هل تملك العجوز الإجابات حقاً ,أم أن ماستقدمه له هو الخرافات التى تتناقلها العقول المتيبسة الطاعنة فى العمر ..

فكر للحظة فى أمر غريب آخر.. إن عم عبدالودود شيخاً عجوزاً طاعناً فى السن ,ولابد أنه قد اقترب من الثمانين من عمره , فكم يكون عمر خالته إذن ؟..

لكنه عاد مرة أخرى ,ليفكر في زوجته وأولاده الذين أخبرهم أنه لن يتأخر كثيراً ..هل سينجح فى العودة سالماً لو قاد سيارته فى هذا الظلام على طرق غير ممهدة كهذه , يكفيه فيها أن تسهو جفونه للحظة كى يجد نفسه فى قلب مصرف أوترعة أوحقل ..أم أن عليه أن يبيت فى مكان ما منتظراً الصباح والنهار ؟

لم يفكر كثيراً واتخذ قراره, سوف يبيت ليلته هنا في أى مكان وعلى متولى أن يعثر له علي هاتف ما عسى أن ينجح فى الاتصال بأسرته ليطمئنهم إلى غيابه..

سار أمامهما عم عبد الودود متكئاً على عكاز خشبى ,وراح يرشدهما إلى الطريق, وتبعاه بخطوات بطيئة صامتة.

كانت خالته طاعنةً في السن للغاية كما توقع الدكتور مصطفي..لابد وأنها قد تجاوزت المائة ببضع سنوات .. كانت تعيش فى بيت ريفى من الطوب اللبن ذي سقف منخفض مغطى بأكوام من الحطب والطين ..

سريرها كان فرنا بلديا من الطين ,وضعت فوقة بطانية قديمة حال لونها ورقدت عليها ..

لم يكن باب دارها مغلقاً بإحكام حين وصلوا, واحتاج لدفعة بسيطة من يد عم عبدالودود, ليستجيب لفوره مصدراً صريراً عالياً ..كانت رائحة الطمى العطن تملأ المكان ..لكن المكان كان نظيفاً بالرغم من ذلك..فخمنوا أن هناك من يعتنى به من حين لآخر ..

دخل عم عبدالودود إلى حجرة مظلمة فى نهاية البيت , فانتظروه للحظات بالخارج قبل أن يلاحظا اشتعال مصباح فى الحجرة أضاءها, ثم ناداهما داعياً إياهما للدخول.

حين دلفوا ارتفع صوت متولى محيّياً السيدة العجوز:

-مساء الخير يا أمى ..كيف حالك ؟...

التفتت إليه برأسها, وإن لم ترد فاقترب من أذنها عم عبدالودود, وأعاد تكرار تحية متولى لها , فأيقنوا أن سمعها ضعيف للغاية ؛حتى أن الدكتور مصطفى تساءل فى قرارة نفسه بإحباط ..هل مازالت تحتفظ بذاكرتها فعلاً, أم هى الأخرى فى طريقها للزوال ,والضعف كسمعها ...

رحبت بهم بصوت قوى لم يتوقعا أن يخرج من حنجرتها قائلةً:

أهلاً وسهلاً ...أهلاً وسهلاً ..من هؤلاء يا عبدالودود؟

مرة أخرى مال على أذنها عم عبدالودود ,وقال لها بصوت مرتفع :

-الباشا طبيب من القاهرة ..لقد جاء خصيصاً ليراك.

هزت رأسها متفهمة ,وقالت بصوت أضعف من الأول متوجعة:

-هل جئت به ليفحص بطنى ..إنها تؤلمنى طوال الوقت ,ولم أعد اتمتع بأى شهية للطعام..إن الألم كله هنا .. لقد تبست وصارت كالحطبة الجافة , هل يعنى هذا أننى أموت ,وأن المعدة قد توقفت؟..

ابتسم الدكتور مصطفى بإشفاق ,بينما قال عم عبدالودود بصوته القوى فى أذنها :

-سوف يفحصك الدكتور فيما بعد .. لكنه يريدك الآن أن تحكى لهم ماتذكرينه عن رومية .

لاحظ متولى والدكتور مصطفى التقلص الذى بدا على وجهها حين ذكر كلمة رومية ..بان على وجهها الانزعاج, واختجلت تجاعيد وجهها .. فأشاحت بيديها المتغضنة بعروقها الكثيرة ,وهى تقول بضيق واضح:

-وما الذى ذكرهم بها الآن؟..وهل أتوا فى هذا الوقت المتأخر من اجل هذا؟

أدرك الدكتور مصطفى أنها مازالت تذكر الفتاة, وأن هذه الذكرى لم تسقطها ذاكرتها بعد ..رأى هذا منعكساً على وجهها , فنهض من مكانه, وقرب فمه من أذنها ,وقال بصوت مرتفع :

-لقد أخبرنى عم عبدالودود أنك أكثر من يفيدنا فى هذا الأمر..

-يابنى هذا أمر قد حدث منذ زمن بعيد قبل أن أُولد أنا ..كانت قصصاً, أخبرنا بها الأجداد ولم نعشها ..فما الداعى لتذكرها الآن.

-لكنك مازلت تتذكرينها ..أليس كذلك ؟.

مصمصت شفتيها الجافتين ,وأشارت بيدها إلى قلة فخارية موضوعة فى صينية على قائم من الطوب قائلةً بضعف:

-اسقنى ياعبدالودود.

ناولها القلة ؛فتجرعت منها جرعات صغيرة ,ثم أعادتها إليه ثانية ,وقالت بصوت أكثر قوة كأنما أنعشها الماء :

-يابنى هذه قصص عجائز لم يعد يصدقها أحد..فلماذا تبحث فيها الآن .. دع تلك الذكريات للنسيان كى تموت كما يموت كل شيء ؟

شعر الجميع أنها لاترغب فى أن تقص عليهم ماتعلمه..فتطلع متولى ,والدكتور مصطفى إلى عم عبدالودود الذى أدرك ما أدركاه ,فانحنى نحوها صائحاً:

-ياخالتى ..إنهم ضيوفنا فلاتخذلينى أمامهم ..إنهم يرغبون فى أن تحكى لهم عن رومية ,فأخبريهم بماتعرفينه.

تمتمت بكلمات مبهمة غير مسموعة قبل أن تقول بصوت واضح :

-حسنا ..سأحكى لهم يابنى ماداموا يريدون ذلك..لقد كنا من قبل نحكيها للأطفال والأن يهتم بها الأطباء ..لقد صار زمنكم عجيبا غريبا ولا أفهمه ..

وشردت بعينيها نحو الجانب البعيد من الحجرة, وتحركت شفتيها ببطء ..ثم بدأت تحكى لهم.

(33)

بدأ كل شيء حين جاء الفرنجة إلي مصر ليحتلوها..ها قد جاء بونابرت وجنوده بأسلحتهم الغريبة ومدافعهم القاتلة..فارتبكت الحياة فى كل مكان ,واهتزت النفوس وزلزلت فى الصدور, وانقسم الناس بين مؤيد للغزاة الذين سوف يخلصون الخلق من نير المماليك وطغيانهم وبين من يرى أن الفرنجة كفرة يجب قتالهم , وأن المماليك بالرغم من ظلمهم وطغيانهم؛ فهم من يحمون البلد ويقومون بشئونه .

كان هناك محمود بن الحاج عبدالحفيظ ..فتىً يعبق بالفتوة والوسامة والمروءة ..فتىً من الذين تنظر إليهم الحوامل عسى أن يُرزقن بفتى مثله..و تنظر إليه الفتيات ,ثم يتنهدن بحرارة ولوعة ,وهن يتمنين أن يلتفت إليهن مرة.. لكنه خذلهن جميعاً فلم يعرهن اهتماماً ..بدا كأنما يبحث على أميرة أخرى لم تولد هاهنا بعد ..

قالوا إنه ترك القرية ,وذهب إلى مصر (القاهرة)؛ كى يحارب الفرنج ..غاب ثلاثة أعوام, لم يسمع أحد خلالها عنه أى شيء , حتى ظن البعض أنه ربما قد حدث له مكروه ما أو مات.. لكنه عاد فجأة ذات نهار.. ولم يكن بمفرده ..

كانت مع زوجته .

قالوا إنها كانت فتنة تحبو على أديم الأرض ، كانت كالبدر فى تمامه , جميلة بصورة جعلت من العسير على أى فتاة أن تحنق عليها ؛لأنها خطفت محمود منهن ..فأمام جمالها يبدو جمالهن شاحباً قميئاً..

إنها أميرة من أميرات الحواديت القديمة التى لايكف المردة والجان عن اختطافهن ,ولايكف الفرشان والشطار عن إنقاذهن والبحث عليهن.

من يراها دون أن يعرفها يظن أنها من بنات الفرنجة الجميلات.. كانت ذات بشرة رائقة ,ناصعة البياض لم ير أحد مثلها من قبل, وكانت عيناها حلوتين آسرتين ؛فلايستطيع أحد أن ينظر إليهما لحلاوتهما ..

لذا أطلقوا عليها رومية ..

مرت الأيام عليها فى القرية هادئة فى البداية ..ومع الوقت بدأ الهمسات ترتفع عن سبب تأخر حملها حتى الآن ..إلا أن الأمر بدا ,وكأنما لايشغل بال زوجها الذى كان يعشقها ,ولايبغى أى شيء سواها ..

اشتعلت الشائعات عنها بعد ذلك حين زعم البعض أنهم رأوها بين المقابر فى منتصف ليلة مقمرة .. بالطبع لم يصدّق أحد حرفاً مما قيل, واعتقد البعض أنها افتراءات مصدرها الفتيات الحانقات عليها..

بعد ذلك مات الكلب الذى كان يملكه الحاج عبدالحفيظ حماها ..كان الرجل يحبه جداً؛فقد رباه ورعاه لأكثر من عشر سنوات ,وكان الكلب لايفارقه أبداً ..

يقولون أن الكلب فى أحد الليالى المقمرة بدأ فى النباح فجأة .. ويبدو أنه أطال النباح ؛لأن الحاج محفوظ خرج إليه؛ ليعلم سر نباحه ..وجد الرجل الكلب مبقور البطن سابحاً فى دمائه محتضراً.. ليموت بعد ساعات من الألم ..

الغريب هنا فى الأمر أنهم وجدوا بين أسنانه قطعة ممزقة من ملابس رومية .. وأيضا هذه المرة لم يشك أحد فيها.. فانتهى الأمر وتناساه الجميع ,قبل أن يبدأ اختفاء بعض أطفال القرية ..

قالوا إنهم كانوا ستة أو سبعة ..وحين بحثوا عنهم لم يعثروا إلاعلى جثة أحدهم فقط.. كانت جثة الطفل شاحبةً كالثلج خالية تماماً من الدماء ..كيف حدث هذا؟.. لا يعلم أحد ..اتجهت أصابع الشك إليها هذه المرة أيضاً ,فقد كان كل الأطفال الذين فُقدوا من رواد بيتها.. فقد اعتادت أن تلاعب الكثير من الأطفال من جيرانها ,وأن تمدهم بالحلوى..وأوعز زوجها ماتفعله إلى اشتياقها للأطفال ..

لكن هذا الحب لايفسر أن تجد خادمتها بين حاجياتها أشياءً تخص الأطفال المختفين ..وجدت بين أغراضها بعض الألعاب الصغيرة والأحجبة وغيرها.. بالطبع لم يتهمها أحد صراحةً,ولكن الهمسات لم تتوقف ,وازدادت حتى وصلت لمسمع زوجها ..

لم يجد مايفعله غير أن يواجهها بما يُقال ؛بكت كثيراً له وأخبرته أنها تعلم أن الجميع يغار منها لجمالها ..وأن الكل يشمت فيها لعدم إنجابها ..طلبت منه الطلاق ؛ لأنها لاتطيق أن تعيش فى قريته , إلا أنه كان متيّماً بها, فرفض طلبها ..فطلبت منه أن يعودا سويّاً للقاهرة ليعيشا هناك .. وافقها بالرغم من معارضة والده , واشترى لها بيتاً بالقاهرة ..

غاب لفترة طويلة عن القرية ,قبل أن يعود بمفرده لزيارة أهله, ليجد أن كل من يقابله ينظر إليه بارتياب ويتحاشاه ..لا أحد يرد على سلامه وتحيته..وكل من يراه ويعرفه يشيح وجهه للجانب الآخر بعيداً عنه كى لاتتلاقى النظرات ..وصل حائراً إلى دار والده

,وهو لايدرى لماذا يعامله أهل القرية هكذا .. وهناك فسّر له والده الأمر ..

أخبره أنه ما إن غادر إلى القاهرة ليعيش فيها ,حتى عاشت البلدة أهوالاً كثيرة..اختفى الكثير من الشباب دون أثر ..غرقت الكثير من الفتيات فى الترعة أو المصرف ..لكن المخيف حقاً فى الأمر أن الكثيرين صاروا يرون زوجته فى شوارع القرية فى نفس الأوقات التى تحدث فيها هذه الحوادث..

رآها الكثير فى المقابر ليلاً.. رأها البعض الآخر فى الطرقات المظلمة بعيون متوهجة مخيفة ..وراحت بعض النساء يقسمن أنهن رأينها أسفل صفحة الماء تنظر إليهن بابتسامة ساخرة مخيفة ,وهن يغسلن أوعيتهن بالترعة ,أو يملئن منها جرارهن ..

بل وأقسم البعض الآخر أنه رآها تسير فوق الماء ..لم يصدق محمود هذا الكلام ..فزوجته لاتفارقه أبداً منذ غادرا المكان إلى القاهرة , فكيف تأتى هاهنا لتفعل كل هذا؟..لكن والده أخبره أنه وأمه هما أيضا قد شاهداها ذات ليلة مظلمة تتجول حول الدار ..

يقولون إن محمود كان غاضباً ..خائفاً ..متحيّراً ..أقسمت عليه أمه أن يطلقها ,ويعيدها لأهلها فلم يجبها ,فقط قرر أن يعود مرة أخرى إلى القاهرة دون أن يمكث معهم لبضعة أيام كما كان يريد ..

لا أحد يدرى ماذا حدث فى القاهرة له.. لكنه فى اليوم التالى عاد بها إلى داره بالبلده..بالطبع عاملها الجميع بخوف ،ولم يحدثها أحد ,ليفاجأ الجميع بموتها فى اليوم التالى..دفنوها بمقابر العائلة بعد أن قامت حماتها , وبعض خادماتها بتغسليها .. وأوصى الحاج عبدالحفيظ أن يكون لها قبر بمفردها ,وألا يدفن به أحد

غيرها ..مات هو الآخر وزوجته بعد أيام من موتها- هو وزوجته -..وجدوهما ميتين بالفراش ليلاً فى نفس الوقت , ليحلقهم محمود نفسه بعدها بأيام قليلة..

تناثرت بعد ذلك الأقاويل عنها أكثر من ذى قبل ..البعض أقسم أنه رآها بعد ذلك في المقابر تتجول ليلاً ..وعاد آخرون ليؤكدوا أنهم يرونها تسير فى الطرقات ليلاً تناديهم, وتدعوهم لنفسها ..بالطبع لا أحد يدرى بالحقيقة فى أقوال كهذه ...لكنها ظلت فى النفوس والذاكرة طويلاً ..صارت قصة يتناقلها الجميع بتوجس ورعب ..وصار قبرها منبوذاً يخشاه الجميع ..

(34)

شعر الدكتور محمود بالإثارة مما يسمعه ,وأخد عقله بسرعة يبحث عن عشرات التفسيرات ,دون أن يعّقب على ماسمعه .. الحكاية قديمة , وبالطبع لا يستطيع أحد أن يؤكد صحتها من عدمه ,فعقود طويلة تفصلهم الآن عن وقت حدوثها..بدا واضحاً أن توقيت حدوث القصة كان وقت الحملة الفرنسية على مصر..هذا يعنى أن قرنين من الزمان تقريباً تفصلهم عن وقت حدوثها, وبالتأكيد سيضيف الخيال الكثير من الأحداث وسيسقط أحداثاً أخرى ..

لكنه صار متأكداً أن شيئاً ما غير طبيعى يحيط برومية ؛كما أطلقوا عليها سابقاً ..هناك شيء ما بداخله جعله يصدق الكثير من هذه الأحداث ..

مرة أخرى قفز إلى خياله صورة جثتها فى المشرحة ..جثتها التى لم تنالها أبداً عوامل التحلل المعتادة ..جثة أثارت الكثير من المتاعب منذ جلبها للمشرحة ..إن القرار الصائب فى رأيه هو التخلص منها بأقصى سرعة , وبأى وسيلة كانت .. إنها قنبلة موقوتة لا يدرى أحد كيف يتعامل معها ,وماذا ستفعل هى فى اللحظة التالية ..

شعر هذه اللحظة بكراهية وغضب شديد على متولى ..ربما لأنه كان السبب في جلبها..وتمنى لو أنه لم يطلب من منصور إحضار جثة للمشرحة ..ربما وفّر هذا الأمر متاعبهم التى يعيشونها الآن.

لذا قال لمتولى بضيق:

-ألم تجد غير هذا القبر لتعبث به ؟..

لم يكن هناك مايقوله الآخير ,فقد كان غارقاً فى رعبه بعد ما سمعه الآن..فهو من عبث بقبر رومية بعد كل هذه السنوات..كان يعلم بعض ماقصتة العجوز عليهما..فقد سمع من قبل عن رومية فى قريته ,وهو صغير..حكاية مخيفة كعشرات الحكايات عن الجان, والعفاريت, وأم الشعور, والنداهة, وغيرها من التى تمتلئ الذاكرة بها ..لكنه لم يتخيل أن يتورط فى قصة من تلك القصص يوماً ما..

تساءل برعب هل تنتقم رومية منه لهذا..بالطبع هذا شيء متوقع ,ويفسر له لماذا اختطفته من داره ليلاً ,وأرسلته للمشرحة ,ولم تفعل هذا مع زملائه..

ولكن هل تكتفى بهذا أم تكون هناك مرات أخرى؟ ..

قبل أن يأتى هنا كان قد اتخذ قراراً بأن يستقيل من عمله ويتركه ..كان بالطبع متردداً, وفضّل أن يؤجل تنفيذ قراره حتى يستطيع إيجاد عمل آخر له ..لكن بعد ماسمعه الآن ,فالأمر قد انتهى..لن يعود مرة أخرى إلى المشرحة مهما حدث ..

وأخذ يدعو الله فى سره أن يكون هذا كافياً ..ليتها لاتعود إليه بعدها لو غادر المشرحة ولا تهاجمه فى بيته ثانية ..لكنه كان موقنا انها ستفعل!

اتجها بعدها إلى قرية متولى ,وقد قررا أن يبيتا فى بيت والده ..هناك استطاع الدكتور مصطفى الاتصال بزوجته بواسطة تليفون عمدة القرية , والذى رحّب به بشدة حين عرف من هو,

مقسماً أن يبيت بداره لا دار متولى ..وفى الصباح عاد مباشرة إلى الكلية؛ لتنفيذ مانوى عليه دون إبطاء..

سوف يدفنون تلك الجثة الملعونة هذا اليوم .

(35)

فى الثالثة ظهرا خرجت سيارة من سيارات نقل الموتى من باب الكلية .. كانت تحوى جثة الفتاة, وبداخلها جلس عم منصور ومتولى وعبد الدايم جالسين حول جسمانها بوجوم.. اتجهت السيارة نحو أطراف القاهرة إلى المقطم حيث مقابر القاهرة ..كان هناك الكثير من مقابر الصدقة التى تلجأ لها المشرحة للتخلص من أشلاء الجثث التالفة بعد انتهاء العام الدراسى ..

كانت هذه المرة هى الأولى التى يتم التخلص فيها من جثة سليمة .

تم إخبار العمال بماعليهم أن يفعلوه, وبدوا مرتاحين كثيراً لهذه الخطوة ..

شرح لهم متولى ما قصته العجوز بالبلدة عن صاحبة الجثة رومية ..وتكفل الدكتور مصطفى بإقناع الدكتور نعيم بتلك الخطوة .. أما عن الشرطة فقد كان من غير المنطقى أن يخبرهم أحد بالسبب الحقيقى فى التخلص من هذه الجثة ,وإعادة دفنها ..لهذا أخرجوا الجثة من المشرحة أمام أعين عساكر الشرطة على أنها جثة تالفة يتم دفنها..وبالتأكيد لن يشك أحد ما فى الجثث, ولن يربط بينها, وبين حوادث القتل التى حدثت بالمشرحة.

بعد أقل من ساعة كانوا قد وصلوا إلى المقابر.. كان هناك اللحاد الشاب بانتظارهم برفقة جمال الذى سبقهم إلى المقابر؛ ليخبر اللحاد أن يفتح إحدى المقابر ,ويعدها لدفن الجثة ..تعاونوا معاً,

وأنزلوا جسدها المكفن من السيارة ,ثم سجوها على التراب بداخل القبر المفتوح..قام اللحاد بعمله فأغلق القبر ووضع كمية لابأس بها من الجير على بابه.. وعادوا إلى دورهم بعد ذلك, وقد غمرهم شعور رائع بالراحة..فقد تخلصوا من هذا الكابوس...

لكن الصباح أتى حاملاً مفاجأةً لهم ..

دخلوا المشرحة, فوجدوا الجثة راقدةً على منضدتها كما كانت من قبل ..امتلأت نفوسهم بالرعب والفزع..بدا الأمر ،وكأن الجثة ترفض أن تتركهم ,وأنها مصرة على أن تبقى بالمشرحة .. ما الذى يعنيه هذا ؟.. لا أحد يعلم؟

التفوا حول جثمانها من بعيد ,وأخذوا يتطلعون إليها بعصبية وخوف ,وقد خشى أى منهم أن يقترب منها كأنها الطاعون.. ولم يتمالك جمال نفسه وصاح بهستريا بصوت أقرب للبكاء:

-انظروا..إنها هى ..لقد عادت ثانية ..ألم ندفنها بالأمس ..ألم نفعل جميعا؟

أجابه عبدالدايم بحيرة وعيناها ترتجفان فى محجريهما:

-بلى ..ولقد فعلنا هذا سويّاً..

عاد جمال ليصيح ,وهو يشير إليها:

-كيف عادت إذاً ؟..ليخبرنى أحدكم أنه يمزح معنا, وأنه من أعادها إلى هنا؟..من منكم قد فعلها يارجال ؟..من فعلها؟..

لم يردوا عليه, وساد عليهم الوجوم دون أن يدروا ماعليهم أن يفعلوه ..وتجاهلوا جمال الذى عاد مرة أخرى يكرر بهستريا:

-أخبرونى بالله عليكم من فعلها ؟!...

هنا صاح متولى بعصبية زاجراً إياه بخشونة وهو لايحتمل عوائه هذا وولولته:

-اصمت يا أحمق قليلا ,ولا تولول هكذا كالنساء ..لا أحد منا فعلها وأنت تعلم هذا ..إنك تثير أعصابنا بصراخك هذا.

كان يشعر بشعور الفأر الذى يطارده قط ماكر نجح فى أن يحاصره فى ركن صغير ,ثم أخذ يستمتع برؤيته, وهو يحاول يائساً أن يجد وسيلة ما للفرار ..كان يشعر بالخوف من الجثة ويخشى أن تكرر مافعلته معه من قبل حين اختطفته من بيته وأتت به للمشرحة ..لقد عادت بوسيلة ما ..وسيلة شيطانية من وسائلها التى تجيدها.. فماذا تنوى أن تفعل به ،وبهم هذه المرة؟

ظلوا يتطلعون إليها صامتين لفترة ليست بالقصيرة ,وفى النهاية قال عم منصور, وهو يخرج من جموده مندفعاً للخارج:

-سأذهب لأخبر الدكتور مصطفى والدكتور نعيم ...يجب أن يعلموا, ويفسروا لنا مايحدث؟..

(36)

وصل عم منصور إلى مكتب الدكتور نعيم فوجده مغلقاً فانتظر أمام الحجرة حتى يأتى ,بعد نصف الساعة رأى الدكتور نعيم صاعداً الدرج فهرع إليه , وبادره الدكتور نعيم قائلاً بدهشة حين لاحظ الشحوب الذى يكسو وجهه:

-صباح الخير يا منصور ..لماذا تنتظرنى فى هذا الوقت المبكر ؟..ولماذا تبدو مرتبكا هكذا؟..أحدث شيء ما؟

لم يرد عليه التحية من ارتباكه.. لذا تمتم متلعثماً :

-هل تمانع يا دكتور أن تأتى معى إلى المشرحة ؟ هناك شيء أريد أن تراه بنفسك ..

-وماذا هناك بالمشرحة ..هل حدث شيء ما مرة أخرى بها؟

-أعتقد أنه من الأفضل أن ترى بنفسك.

شعر بالدهشة من هذا الأسلوب الغامض الذى يحدثه به منصور ,وحاول تخمين ماذا حدث دون جدوى؟..ألم يدفنوا الجثة بالأمس؛ كما اقترح الدكتور مصطفى ؟..ألا يعنى هذا أنهم قد انتهوا من المتاعب التى سببتها تلك الجثة للجميع لو كانت هى مصدرها بالفعل كما زعموا جميعا؟

فماذا حدث إذاً ؟.

رأى أنه من الأفضل ألا يكرر سؤاله على منصور , لذا قال باستسلام ,وهو يتجه نحو الدرج ليهبط إلى المشرحة:

-حسنا .. لنذهب إلى المشرحة لنرى ماذا هناك.

تبعه عم منصور إلى المشرحة ...وما إن رأهما العمال حتي أفسحوا لهما الطريق نحو جثة الفتاة .لاحظ الدكتور نعيم الجثة التى التفوا حولها, فاتجة إليها على الفور, وكشف الغطاء عن وجهها قبل أن يفلته دون وعى , ويتراجع بذهول كالملسوع ,وهو يهتف بإستنكار:

-ما هذا العبث؟

(37)

-لا بد أنكم تمزحون هاهنا مزحةً سخيفةً ..

قالها الدكتور نعيم بذهول..وأبعد عينيه عن الجثة متحاشياً النظر إليها , والتفت إلى العمال الواجمين حوله ..وصاح فيهم بغضب وحنق:

-الآن أريد أن أعلم أى لعبة قذرة تمارسونها هنا؟..وماذا تهدفون من ورائها؟.. حدثونى ماذا يجرى هاهنا بالضبط.

لم يجبه أحد, واستمروا فى صمتهم ؛فاندفع مرةً أخرى صارخاً فى وجوههم الممتقعة ,بصوت هادر:

-لماذا عدتم بها دون أن تدفنونها؟..ألم تذهبوا بها بالأمس إلى المقابر ؟.. لماذا لم تفعلوا إذا؟..

أجابه عبدالدايم بصوت خافت مرتجف:

-لقد دفناها بالفعل يادكتور ,كلنا فعل هذا بالأمس.

-إذن كيف عادت؟.. هل سارت على قدميها حتى جاءت إلى هنا ,أم تراها قد طارت ؟..

هنا فقد جمال تماسكه ,وهتف برعب :

-هذه الجثة ملعونة يادكتور ..هناك شيطان ما يلتصق بها ..لقد دفناها بالأمس..بل لقد أدخلتها القبر بنفسى ,لكن هاهى تعود ثانية..ألايعنى هذا أنها ملعونة..إنها جثة شيطانية بالفعل.

لكن الدكتور نعيم كان منزعجاً للغاية مما يحدث فصاح به:

-كف عن قول هذا الهراء حالاً..إنكم تمارسون لعبةً حقيرةً هاهنا وسأكتشفها, وستحاسبون جميعاً عليها.. سوف أبلغ الشرطة عنكم , وسأدعها تعلم منكم ما المؤامرة الخبيثة التى تدبرونها معا.

اندفع بعدها مغادراً المشرحة بسخط ,فتابعوه بأعينهم حتى خرج من المشرحة تماماً ..ثم قال عبدالدايم بقلق:

-و الآن ماذا سنفعل ؟..إنه يتهمنا بأننا من يفعل هذا ؟..لا أدرى كيف صور له عقله هذا؟..

أجابه عم منصور, وهو يهز رأسه بحيرة:

-لن نفعل شيئا.. سننتظر حتي يقرر هو ماعلينا أن نفعله..لكن إياكم والاقتراب من تلك الجثة المعلونة ..اتركوها وشأنها حتى ينتهى هذا الجنون.

أما الدكتور نعيم فقد اندفع إلى مكتبه حانقاً ..قبل أن يغلقه بإحكام خلفه ؛ كأنما يرغب فى ألّايراه أحد ..كان متوتراً وكان خائفاً يرتجف..كان يحاول ببؤس أن يدارى ذعره كى لايشعر به أحد..كان يعلم أن هذه الجثة ملعونة, ولايشك فى هذا الآن..لم يكن هذا رأيه أبداً حتى الأمس, بالرغم مما حكاه له الدكتور مصطفى عن الجثة ,وصاحبتها ,وماحدث مع العمال.. كان عقله على إصراره رافضاً ما يقال عنها, وإن سايرهم فى تفكيرهم الذى يرفضه , ووافق أن يقوموا بدفن الجثة, والتخلص منها..لكن ماحدث له بعد ذلك نسف قناعاته تلك تماماً.

اتجه بخطوات مثقلة الى مرآة صغيرة بأحد أركان الحجرة, وتأمل وجهه فيها ..كانت هناك هالات سوداء كثيفة تلتف وتتكاثف حول مقلتيه, وقد انتفخ جفناه, وصارت عيناه حمراوتين محتقنتين كالدم..كل هذا كان لأنه لم يحظ بالنوم منذ ليلتين كاملتين ..لم يخبر أحد عن السبب فى هذا ,ولا يريد أن يفعل.

كان يعيش بمفرده منذ انفصل عن زوجته التى لم تحتمل عصبيته الشديدة, ومع الطلاق أيقن هو الآخر أنه من المستحيل أن تحتمل طباعه , وعصبيته هذه امرأة ما فقرر ألا يتزوج ثانية..

بدأ الأمر منذ يومين حين كان بغرفة مكتبة فى البيت يقرأ ..وحين ارتفعت دقات الساعة؛ لتعلن تمام العاشرة مساءً.. ترك الكتاب الذى يقرأه , ومال بجسده نحو الراديو المعلّق على الحائط بجواره , فأدار بكرة جانبية به, ليظهر صوت المذيع معلناً عن نشرة العاشرة مساءً بالبرنامج العام ..

كان يتابع مسلسلاً إذاعياً مثيراً, يأتى كل ليلة فى العاشرة وخمس دقائق على البرنامج العام ..تابع بلا إكثراث الأخبار التى لم تأت بجديد عليه, ثم راح يصغى لتتابع الموسيقى التصويرية للمسلسل ,فاسترخى على كرسيه , مغمضاً عينيه, مستمتعاً بالأحداث التى يتابعها بأذنه ,ويصورها له خياله..كان الراديو فى هذا الوقت مازال وسيلة الترفيه الأولى ..ولم ينجح التليفزيون فى أن يحتل مكانة بعد ..

كان مستغرقاً فى تخيل الأحداث حين تناهى لأذنيه صوت خطوات تأتى من الصالة ..ففتح عينه باتساعهما, وهب واقفاً بقلق ,وهو يتطلع إلى الباب الزجاجى الذى يفصله عن الصالة ..أرهف السمع فلم يسمع شيئاً ..جلس مرة أخرى موعزاً الصوت الذى

سمعه لإرهاقه, أو ربما يكون إحدى الحشرات الصيفية التى ربما دخلت الشقة من خلال الشباك المفتوح..

طرد الأمر عن عقله ,وإن ظلت عيناه معلقتين بباب الحجرة بشيء من الترقب ..انتهى المسلسل ,وتعالت بعده موسيقى إحدى الأغنيات القصيرة لكارم محمود , فأخذ يرددها معه حين لاحظت عيناه ذلك الظل السريع الذى مر من خلف الباب الزجاجى .. تأكد هذه المرة أنه لا يتوهم ..لقد رأى ظلاً يتحرك خلف الباب بسرعة من ناحية للأخرى باتجاه حجرة نومه.

هذه المرة شعر بالرعب ..فقد كان بمفرده بالشقة ..فمن يكون هذا؟

أيكون لصاً ؟.. ولكنه لو كان لصاً فكيف دخل؟.. كان من المستحيل أن يدخل بواسطة باب الشقة , فهو يغلقه دائماً من الداخل بأكثر من مزلاج .. ومن العسير كذلك أن يدخل من الشباك المفتوح فى الصالة ..فالشباك يطل على الشارع الرئيسى, والشارع مازال مكتظاً بالمارة حتى الآن ,ولو حاول أحد ما أن يتلسق البناية ليدخل من الشباك فسيراه المئات بسهولة ..

إذن من هذا؟!.. وكيف دخل؟.

تجمّد فى مكانه, وعيناه معلقتان بالباب بتحفز, ودقات قلبه تتصاعد معلنةً عن فزعها هى الأخرى..

ماذا يفعل الآن؟..فكّر دون أن يهتدى لفعل ما ..

فكّر أن يندفع بسرعة نحو باب حجرة المكتب الذى يجلس فيها الآن فيغلقه بالمفتاح ..ثم يصرخ من شباك الحجرة المطل على

الشارع طلباً للنجدة من المارة ..لكن باب حجرة المكتب زجاجى ضعيف ..ومن السهل اختراقه ..كما أن من سيهب لنجدته عليه حينها أن يكسر باب الشقة كي ينجده ,وهذا سيستغرق وقتاً ما ..وربما آذاه اللص فى هذا الوقت قبل أن تصله النجدة .

الحل الآخر أن يخرج ليرى بنفسه من هناك ,فربما كان واهماً فيما رآه .. طال تفكيره دون أن يصل لحل ؛فقرر أن يخرج ليرى من هناك ..لكنه قبل أن يفعل اتجه إلى المكتب, وهو يحمد الله على أنه يحتفظ بسلاحه النارى المرخّص فى أحد أدراجه ..

أخرجه, وبيد مرتجفة لاتصدق أنها قد تضطر لاستعماله أمسكه ..وبخطوات مرتعشة وساقين لينتين كأعواد المكرونة سار نحو الباب..

فتح الباب بسرعة ,وقلبه يتواثب بين ضلوعه, وتطلع إلى الصالة يسبقه المسدس المصوب بتحفز نحو عدو وهمى..

بدت الصالة ساكنةً, ولا أحد فيها؛ فشعر ببعض الاطمئنان ..

اتجة بخطوات مترقبة إلى حجرة الصالون, وأضاء مصباحها ..فتنهد بارتياح, وهو يرى المقاعد الفارغة, والحجرة الخالية أمامه..فتش بعدها الحمام والمطبخ ,لكنه لم يجد أحداً .

ازداد اطمئنانه ...إنه الإرهاق إذا ..لم يبق أمامه غير حجرة نومه؛ فاتجه إليها بهدوء ,وفتح بابها الخشبى ,وامتدت يده نحو زر الإضاءة بجوار الحائط ,فضغط عليه..

بدد النور ظلام الحجرة ,فرآها أمامه تجلس على طرف الفراش ,وقد وضعت ساقاً فوق ساق ,واستندت بمرفقها الأيمن على

الفراش ..كانت تنظر إليه بابتسامة لعوب ..كانت جميلةٍ وفاتنة كما رآها بالمشرحة .. لكن بشرتها - هنا - كانت رائقةً حلوةً ومثيرةً..

اجتاحه الذعر ..فراح قلبه يتواثب بصورة لم يعهدها من قبل , كأنما يحتج على مايراه ..آلام الذبحة الصدرية المخيفة بدأت حينها فى غزو عظمه القص فى صدره مثيرةً وجعاً لاحدّ له ,ثم تسللت بخبث نحو كتفه الأيسر فخدرته ,وأصابته بالشلل, ومعها بدأت أنفاسه اللاهثة فى الاختناق , وبقعة من الظلام تتسع فى مجال بصره معلنةً عن اقتراب تسرب الوعى منه ..

عجزت يداه عن حمل السلاح النارى ,فسقط منه دون أن يقدر على منع هذا ..بينما ظلت كما هى جالسة على فراشه تتطلع إلي معاناته باستمتاع .. أراد أن يسألها مَنْ أنتِ فلم يطاوعه لسانه ..لكنه سمعها تجيبه دون أن يسأل:

-ألاتعرفنى حقا؟..سأغضب حقا لو كنت نسيتنى !.. وصدقنى أنت لن ترغب فى إغضاب فاتنة مثلى .

نهضت بعدها من الفراش لتسير نحوه.. أراد أن يتراجع مبتعداً عنها, لكن قدمه هى الأخرى خذلته فلم تتحرك ..وتصاعد الألم فى صدره معلناً عن رعبه هو الآخر منها ..

صارت أمامه تماماً ..فتصاعدت منها رائحة عطرية مثيرة للغاية..رائحة لم يشم مثل حلاوتها من قبل ...وسمعها تهمس له ,وهى تضع أناملها الرقيقة على قلبه:

-يالبؤس قلبك الضعيف ..لايبدو أنه سيحتمل فتنتى طويلاً ..

شعر بيدها تلامس صدره باردة كالثلج ,فزال الألم عن صدره مرة واحدة .. لايدرى كيف حدث هذا ولكنه قد حدث ..شعر وكأن أثقلا لاحد لها قد إنزاحت عن صدره فجأة .

مالت على أذنه بعد ذلك, وقالت له هامسةً بصوت مثير دافئ ، ويداها الناعمتان تعبثان بوجهه ووشعره الأشيب:

-سأعود إليك مرة أخرى ..فانتظرنى ..ألا ترى أننى أنقذت حياتك تواً..

احتبست أنفاسه من الإثارة ،وعاد قلبه يدق بشدة حين اختفت فجأة من أمامه ..عاد الألم مرة أخرى ،وبالرغم من أنه كان أقل حدةً مما سبق..إلا أن سحابة الظلام فى عينيه اتسعت مرة أخرى ..وتخاذلت قدماه ..ففقد الوعى..

أفاق على دقات الساعة التي تدوى ،وتخترق ظلام سكون البيت، وتعالى صوت الراديو الذى مازال يعمل معلناً عن نشرة الثالثة فجراً..ظل فى حجرته راقداً على فراشه بوهن دون أن تفارق عيناه باب الحجرة متوقعاً أن تدخل منه تلك الفتاة فى أى لحظة ..خشى أن يغادر مكمنه فيجدها فى مكان ما بالخارج بانتظاره..

أخذ عقله يتساءل فى رعب، هل تكون إحدى الجنيات التى كانوا يحكون عنها؟! ... أم تراها شبحاً ما ؟!...

لم يكن - من قبل- ليصدق تلك الأشياء ولايؤمن بها ..لكنه صار الآن قادراً على تصديق أى شيء .

أشعل عدداً لاحصر له من السجائر ؛حتى فرغت جميع العلب التى يحتفظ بها ..وفارق النوم عينيه فلم ينم ..فتح المصحف الذى بجواره على الكومود المجاور لفراشه ,وأخذ يقرأ منه بصوت خافت فى البداية قبل أن يتعالى صوته تدريجياً؛ كأنما يريد أن يطرد بالقرآن كل الشياطين التى بالمنزل, ولم يغادر حجرتة إلّا حين تسرب ضوء النهار ساطعاً من خلال النافذة .. فتش بعدها الشقة مرة أخرى فلم يجد أحد..فارتدى ملابسه وذهب للكلية ..

فى الكلية قابل الدكتور مصطفى الذى قص عليه ماروته العجوز عن صاحبة الجثة ..اقترح الدكتور مصطفى التخلُّص من الجثة بدفنها ,فلم يمانع ،وفى نهاية اليوم عاد إلى منزله مرهقاً مكدوداً .. صداع عنيف يكاد يفتك بخلايا مخه ..عقله ينبض بألم حاد من شدة احتياجه للنوم ..

كان مازال قلقاً أن تزوره الفتاة مرة أخرى كالأمس ..أراد أن يطرد رغبته الملحة للنعاس ,فشرب العديد من فناجين القهوة حتى بدأ الحمض فى معدتة يزأر محذراً من أى فنجان آخر .. فى النهاية لم يشعر بنفسه وراح فى سبات عميق ..لكنها لم ترحمه حتى فى نومه ,كانت هناك بين أحلامه بنفس ابتسامتها العابثة الساخرة ,وقالت له بصوت عميق مخيف ..

-لن يجدى ماتفعله ..إننى معكم للأبد ,وسوف أعود...

أفاق فجأة ليكشتف أنه لم ينم أكثر من ساعه ..هذه المرة قرر ألا يقع فريسة للنوم مرة أخرى ..فمكث ساهراً طوال الليل. قرر كذلك ألا يبيت فى البيت بمفرده هذه الأيام ..سيذهب إلى أخته غداً، وسيمكث عندها بضعة أيام ؛ريثما ينتهى الأمر..

وهكذا حين أتى اليوم ,كان فى أسوأ حال ..ثار على العمال, وهو يدرك جيداً أنه لاشأن لهم بما يحدث .. مايحدث أكبر منهم ومنه .

لقد عادت إذاً كما أخبرته فى حلمه ..كان هذا كابوسا تمني أن يفيق منه .. لماذا عادت؟.. بل وماذا تريد؟! ..كلها أسئلة بلا أجوبة..

فجأة ألحّ عليه هاجس ملح أن يرى الجثة ثانية, فذهب إلى المشرحة مغالباً رهبته..أراد أن يفحص الجثة بنفسه هذه المرة.. أراد أن يرى وجهها ؛ليتأكد أنها هى من هاجمته فى شقته ..وأراد أن يفهم كيف تفعل كل هذا، ثم تعود للمشرحة ثانيةً كجثة بريئة ..

بالداخل قابل جمال فأمرة أن يتبعه ..وبلا تردد اتجه نحو الجثة ،وكشف الغطاء عن وجهها ...

كان من المفترض أنهم قد قاموا بحفظها بالفورمالين ..لكن جسدها الآن عاد سليماً، ولا أثر للفورمالين به ..

فتح جفنيها ,وسلط الكشاف إلى حدقتيها اللامعتين بشدة ..لم تتفاعل عيناها مع الضوء, وإن لم يقو على النظر إليهما طويلاً.

وضع السماعة فوق صدرها مستمعاً إلى قلبها ..كان صدرها صامتاً كالقبر..

فحص النبض بكافة الأماكن الممكنة .. كانت أوردتها هامدة ميتة.

ابتعد عنها خطوة وراقبها مفكراً ..كانت جثة مثل أى جثة أخرى بالمكان..

ترى ما الذى تخفيه تحت قناع الموت الزائف هذا الذى ترتديه؟!

..

تمنى لو يدرى الإجابة.

(38)

علم الدكتور مصطفى أن الجثة قد عادت ثانيةً للمشرحة ؛فأصابه الذهول هو الأخر والرعب, وراحت مخاوفه تشتعل فى صدره ,وعقله يفكر كالمحموم فى سبب عودتها ..خشى أن يكون هذا لرغبتها فى الانتقام منهم ..كان خاطراً مفزعاً؛ فارتجف جسده...

شعر أنه بحاجة لأن يتحدث إلى أحد ما، فاتجه إلى قسم الطب الشرعى , نحو مكتب الدكتور محمود تحديداً..لم يكن هناك وأخبرته السكرتيرة أنه فى مدرج المحاضرات ,حيث يلقى إحدى المحاضرات للطلبة ..

اتجه بخطوات ثابتة إلى مدرج المحاضرات ..ودخله من الباب الخلفي, وجلس فى الصف الأخير ..لاحظه الدكتور محمود فأوما برأسة محيياً ,واستمر لدقائق أخرى فى محاضرته قبل أن ينهيها, فهبط إليه الدكتور مصطفى ...حياه بحرارة ,وهو يقول بود:

-أى رياحٍ طيبةٍ جاءت بك اليوم إلى هنا؟..أنت لم تفعل هذا من زمن بعيد.

-أعتقد أنك تعلم السبب...

رمقه الدكتور محمود بصمت ,وقد أدرك هدفه ,ثم تأبط ذراعه، وقال ،وهو يسير به نحو مكتبه:

-حسناً لنتحدث عن هذا فى مكتبى .

قص عليه الدكتور مصطفى بعدها كل شيء علمه عن الجثة ،وأخبره كيف قام العمال بدفنها ، ثم كيف عادت للمشرحة ثانيةً ..واكتفى الدكتور محمود بسماعه دون تعقيب, ولما انتهى زفر الدكتور محمود بقوة ,وظهره يتراجع على الكرسى الجلدى الوثير ,وقال, وهو يعدّل من وضع نظارته على أنفه:

-في الواقع كنت أتوقع شيئاً كهذا ..أنت تعلم أننى قمت بتشريح جثة الدكتور شريف ،وتلك الطالبة التى ماتت بالمشرحة ..وأستطيع أن أجزم أنهما لم يُقلتا بطريقة نعرفها ..

تابعه الدكتور مصطفى ببصره, وكامل انتباهه ,فأكمل :

-لقد وجدنا الجثتين خاليتين من الدماء تماماً، وحين أقول تماماً هنا ؛فأنا لا أبالغ ..لقد كانت خاليتين من الدماء تماماً..

وحين قمنا بتشريحهما لم نجد بأى منهما أى جروح أو إصابات أو حتى نزيف داخلى يفسر لنا أين ذهبت دماؤهما.. لقد امتُصّت الدماء منهما تماماً دون أن ندرى كيف من الممكن أن يحدث هذا..شيء يشبه مانراه فى أفلام مصاصى الدماء لو كنت قد سمعت عنها.

تذكر الدكتور مصطفى حديث المرأة العجوز عن جثة الطفل التى وجودها خالية من الدماء ,فقال بصوت مخنوق:

-وماذا عن سبب الوفاة..أعنى كيف مات كلاهما ؟

-لا ندرى ..

أجابه الدكتور محمود ببساطة ..ثم أكمل, وهو يهز كتفيه :

- ربما يكون السبب أى شيء..صدمة عصبية نتيجة الرعب .. هبوط حاد مفاجئ فى الدورة الدموية ..سكتة دماغية ..أزمة قلبية مفاجئة ..جميع الاحتمالات هنا ممكنة..لكن لاعنف على الإطلاق قد تم مع هذه الجثث.

وصمت للحظة، وهو يتناول من بين أوراقه التى أمامه خطاباً مختوماً بختم دائرى أحمر غير مألوف, ففتحه وأخرج ورقة منه ،وقدمها إلى الدكتور مصطفى مستطرداً:

-هذا خطاب من جامعة إكسفورد ..لقد حصلت على درجة الدكتوراة من هناك كما تعلم، وأعرف بصفة شخصية الدكتور" ماكس إدوراد" كبير الأطباء الشرعيين هناك ,وأحد أفضل الأطباء الشرعيين فى العالم ..كنت قد قمت بإرسال نتائج تشريح الجثتين إليه, وأرفقت بالتقرير بعض الصور التى التقتطها لهما أثناء التشريح ،ونتائج تحاليل الأنسجة ..

أتدرى ما النتيجه ؟..لقد كان الرجل حائراً مثلنا مما يراه ..بل وأرسل إلىّ هذا الخطاب ؛ليخبرنى بأنه لم ير شيئاً كهذا من قبل.. وأخبرنى أنه يود لو وافقت الحكومة المصرية على استدعائه ليعاين الجثتين بنفسه مرة أخرى .. فقد أثارت الجثتان فضوله ،وشغفه العلمى بشدة.

هزّ الدكتور مصطفى متفهماً, وتطلع إلى الخطاب المكتوب بخط منمق ،وأعاده ثانية لصاحبه..ثم نظر إلى عينيه مباشرة ،وقال ببطء:

-وماذا عن رأك أنت فى كل هذا يادكتور محمود ؟.

-أتريد رأيى العلمى أم الشخصى؟!...

- أعتقد أننى جئت من أجل رأيك الشخصى.

-أرى أننا نواجه لعنةً ما .. شراً ما ..سحراً ما ..سمّه ماشئت فلا أدرى فى الواقع ماهو ,ولا ما هو الاسم السليم الذى يجب أن ننعته به .. ولكن آثاره تصطدم بنا بإصرار ،وتجلعنا نتخبط فى ظلامنا.

ابتسم الدكتور مصطفى ،وقال بارتياح :

-هذا ما أردت سماعه منك، ولهذا أتوقع أن تساعدنى فى أن نستعين بالوحيد الذى أعتقد أنه يفهم فى هذه الأشياء...

تطلع الدكتور محمود إلى عينيه مباشرة ،وقال بهدوء:

-أظنك تعنى الدكتور محمد شاهين؟..

أجاب الدكتور مصطفى بترقب :

-نعم.. ولهذا جئت إليك الآن ...أنت أحد أصدقائة المقربين كما أعتقد.. أما أنا فلم أتشرف بمعرفته من قبل ,وأخجل أن أطلب مساعدته دون سابق معرفة.

هزّ الدكتور محمود رأسه متفهماً، وقال:

-فى الواقع كنت أنوى أن ألجأ إليه ..فقط كنت أنتظر رد الدكتور "ماكس " قبل أن أحدثه لأطلب معونته.

- وها قد جاءك رد الدكتور" ماكس " ليؤكد شكوكنا ..فمتى تقترح أن نزوره إذاً؟.

-يمكننا أن نزوره اليوم لو أحببت ...سوف أمر عليك بسيارتى فى السادسة مساءً لو كان هذا يناسبك؟.

- إنه مناسب تماماً .. سأنتظرك إذن فى السادسة.

(39)

الدكتور محمد شاهين ..

هل سمع به أحد منكم من قبل ؟..

أراكم تتهامسون فى حيرة، وتتبادلون النظرات محاولين تذكره دون جدوى ..

إذن أستطيع أن أجزم أن الكثيرين لم يسمعوا به ..

هذا يعنى أن عليّ أن أعرفكم به..

كان الابن الوحيد لداود باشا شاهين ...أحد باشوات وأعيان ماقبل الثورة .. لم يكن داود باشا يختلف كثيراً عن الصورة التقليدية

للباشوات التى تعرفونها من خلال ماقرأتم فى الكتب والروايات القديمة أو رأيتم فى الأفلام ..نفس الباشا العاطل المتعجرف ذو الأصول التركية, الذى لابد أن جده الأكبر الذى أتى فى البداية إلى مصر كان جنديّاً بائساً أو صعلوكاً وغداً, يعرف كيف يستغل جنسيته التركية التى تعطيه الكثير من المميزات ، والعطاياعلى حساب أصحاب البلد الأصليين ..

مايعنينا أنه فى نهاية هذه السلسلة كان هناك داود باشا.. الباشا التركى الذى يحتقر المصريين ..والذى يرى أن الأتراك هم الأسياد , وأن المصريين لايصلحون إلا للضرب بالكرباج, وحرث الأرض وزراعة المحاصيل, ثم خدمة أسيادهم الأتراك بالطبع ..

صورة تقليدية للغاية وقاسية ,إلا أنها هى الحقيقة ..

وعلى العكس منه كان ابنه محمد ..كان ذكيّاً نابهاً , وبالرغم من قسوة أبيه ، وكراهيته للمصريين ,كان الابن ميّالاً للمصريين ..فهو- فى النهاية - قد وُلد فى مصر,ولم يعرف وطناً له إلا مصر.. تفوّق محمد شاهين فى دراسته حتى حصل على البكالوريا ،وأراد دراسة الطب؛ فذهب إلى معقل الطب فى ذلك الوقت..ذهب إلى إنجلترا حيث التحق بجامعة " إكسفورد"؛ليتعلم أسرار الطب, وعجائبه من أساتذتها الأرستقراطيين المهذبين قليلى الكلام ، والمتحفظين دائما..

أتم دراسته هناك ,ومارس الطب لفترة فى إحدى مستشفياتها قبل أن يتحول لدراسة الطب النفسى ..كان هذا حين علم بقيام الثورة على الملك ،وطرده من مصر ..

فى البداية تحمس لها, لكنه بعد ذلك وحين صدرت قوانين الإصلاح الزراعى، وإصابة والده بالفالج من جرّاء هذه القوانين

التى ذهبت بمعظم أملاكه، وأراضيه تاركةً له ،ولابنه مائة فدان فقط كرهها بشدة ..وقرر ألا يعود لمصر مرة أخرى مادام يحكمها هؤلاء العسكر اللصوص كما رآهم ..

بعد أعوام جاء العدوان الثلاثى على مصر ..تحدّى ذلك الزعيم الشاب عبدالناصر إنجلترا الإمبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس ..وفرنسا .. وإسرائيل ذلك الشيء الطفيلى الذى يتغذى على دماء الشعب الفلسطينى سارقاً أرضه وتاريخه .

راقب الطبيب الشاب مايحدث بترقب وقلق , وتابع ما تفعله الدول الثلاث .. رأى أنه نوع من البلطجة السياسية ..وتعجب حين سأل بعض أساتذته فى إنجلترا نفسها عن رأيهم فى الحرب ؛ فوجدهم حانقين على مايفعله " إيدن" فى مصر ..وقال أحدهم بسخط.. إن الإمبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس فى طريقها نحو الذبول ,وسمعة التاج تقتضى ألّا تضع بريطانيا نفسها فى هذا المكان ..

لكنه دهش حين وصلته أخبار الصمود الباسل الذى أبداه ناصر، والمصريون فى وجه العدوان ..كان الجميع يتوقعون ألّا تصمد مصر أمام هذا العدوان الثلاثى أكثر من 48 ساعة .. فمصر فى النهاية دولة حديثة التحرر, ومازالت مثقلة بالأعباء والديون ..لكن المصريين خذلوا هذه التوقعات وصمدوا..

وذُهل حين فوجئ بالدكتور" جورج ليكتر "..أحد أكبر أساطين الطب فى إكسفورد يحدثه بنشوة متخليّاً عن وقاره المعهود قائلاً:

-لك أن تفخر ببلدك، وعبدالناصر ...المقاومة التى يبديها هذا الثعلب الصغير ستذل ناصية بريطانيا العظمى والتاج ..سوف تنتهى الحرب ،وأنتم أكثر قوة ..وستكونون أنتم الرابح الأوحد منها ..لقد اعتدتم أيها المصريون أن تذهلونا دائماً.

انتابه الفخر؛ لأنه مصرى ،وعاد إليه حنينه للعودة إليها ,لذا ما أن انتهى العدوان بانتصار معنوى لعبد الناصر، وهزيمة مذلة لإنجلترا وفرنسا حتى قرر العودة إلى مصر ..بالطبع تلقفته كلية الطب؛ لتدريس الطب النفسى الذى تخصص فيه؛ والذى كان طفلاً يحبو فى ذلك الوقت فى مصر .

بعدها سافر مرة أخرى إلى الخارج ..إلى الاتحاد السوفيتى هذه المرة .. وظل هناك لثلاثة أعوام حصل فيها على درجة الدكتوراة فى علم النفس .. هناك استهوته عوالم ما وراء الطبيعة والخوارق؛ فالتحق بأحد المعاهد المتخصصة فيها .. وقد شغفته الدراسة فى هذا المجال بشدة ..

عاد لمصر بعد اعوام آخرى..وافتتح عيادة صغيرة للعلاج النفسى ذاع صيتها مع الوقت ..وبعد أعوام قصار صار رئيساً لقسم الطب النفسى .. إلا أنه ظل منجذباً إلى عوالم ماوراء الطبيعة, فأخذ فى كتابة الكتب والمقالات عنها ,وأخذته الحماسة فأخذ ينادى بإنشاء معهد لتدريس هذا العلم الجديد الذى رأى فيه أحد علوم المستقبل ..

بالطبع لاقى الرجل الكثير من السخرية والاستخفاف , واتهمه الكثيرون بالدجل ..صمد فى البداية .. لكنه فى النهاية قدّم استقالته من الجامعة، وأغلق عيادته، و سافر إلى الخارج مرة أخرى لعدة أعوام أخذ فيها يبحر فى عوالم ماوراء الطبيعة ويتعلم الكثير من خفاياها..وفى النهاية عاد لمصر ثانية

كان يعيش الآن بمفردة فى فيلته التى أقامها بعيداً عن الزحام والعيون فى هبضبة عالية بالمقطم..حيث يواصل قراءاته ودراساته فى المجال الذى أحبه ..لم يتزوج ولايدرى أحد السبب فى عزوفه عن الزواج .

نشر الرجل العديد من الأبحاث المهمة بمجلات متخصصة .. وكتب كتابين عن عوالم ماوراء الطبيعة فى التراث العربى .. إلا أنه نشرها بالخارج ؛لأنه ظن أن القارئ العربى لن يتقبل ما يكتبه، وسيقابله بالكثير من الاستخفاف..

وبالرغم من جهل الكثيرين بوجوده ,إلا أنه مشهور بشدة فى الأوساط الضيقة التى تهوى الخوارق والغيبات وأحداث ما وراء الطبيعة ..كان هو الأفضل فى تلك الأمور ولهذا غستعان به الدكتور محمود والدكتور مصطفى ليساعدهما بعلمه ومعرفته فى فك طلاسم هذا الامر ..

لكن السؤال الحقيقى ..هل ينجح أم يخذلها ؟..

لا أحد يدرى ..

(40)

في تمام السادسة كانت سيارة الدكتور محمود الصغيرة أمام منزل الدكتور مصطفى ,كان الأخير بانتظاره , فانطلقا على الفور إلى المقطم؛ حيث يسكن الدكتور محمد شاهين ..وفى الطريق تساءل الدكتور مصطفى :

-هل يعيش الدكتور محمد بمفرده فى فيلته؟.

-نعم ..فهو لم يتزوج أبداً..سمعت ما يقال أنه كانت هناك طبيبة إنجليزية أحبها إلا أنهما لم يتفقا فى النهاية، وانفصلا ،ولم يفكر بعدها فى الارتباط بأخرى..

- إنها إذاً عقدة الحب الفاشل التى تظل تلاحقك طوال عمرك .. هذا يعنى أنه الطبيب النفسى معرض هو الآخر لأن يسقط فريسة عقدة ما كما يبدو..لكن كيف يقضى وقته إذن ،وقد أغلق عيادتة على ما أعلم.

-الرجل يعيش بين كتبه، وأبحاثه ،ولا أظنه يشكو الفراغ ..ستذهل بشدة حين ترى مكتبته ،ومعمله حيث يجرى أبحاثه.

نظر إليه الدكتور مصطفى بتعجب ،وقال:

-وهل يقوم بأبحاث ما؟..

ابتسم الدكتور محمود مجيباً :

-بالتأكيد ..إن أبحاثه هى التى تقودنا إليه الآن ..إنه يعمل فى مجال الخوارق ، وما وراء الطبيعة كما تعلم ..

لم يفهم الدكتور مصطفى كنه هذه الأبحاث التى يقوم بها فقال بتعجب:

-وكيف تكون مثل هذه الأبحاث ..هل يقوم مثلاً بتحضير الأرواح والجان مثلا ؟.. أنا لا أفهم كيف تكون هناك أبحاث فى تلك الأمور

أطلق الدكتور محمود ضحكةً قصيرة قبل أن يجيب:

-ربما يفعل هذا..إن كل شيء ممكن مع الدكتور محمد شاهين..هذا ما ستدركه حتماً حين تعامله ..لكنى أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك ..فهو مثلا يهتم برصد الأصوات الصادرة من الفضاء ،وتلك الصادرة من المقابر .. لاحظ أن فيلته قريبة من منطقة المقابر، وربما كان هذا أحد أهدافه حين اختار مكانها.. كما أخبرنى مرة أنه يقوم برصد الهالات التى تحيط بالإنسان فى حالاته المزاجية المختلفة ،ربما تكون تجاربه تلك غريبة حقاً.. لكنه يقوم بها بجدية تامة.

صمت الدكتور مصطفى مفكراً فى الأمر بجدية ..متسائلاً عن الفائدة التى ستعود علينا من هذه العلوم ..إنها علوم هلامية من الصعب أن تعرف بدايتها من نهايتها كما أنه من الصعب أن تستطيع إثبات نتائجها..

كان أمر الدكتور محمد يحيره ,فالرجل كان كما يعلم ينتظره مستقبل واعد فى مجال الطب النفسي ,وعيادته صارت ذا صيت فى فترة قصيرة, فكيف من الممكن أن يتجاهل رجل ما كل هذا النجاح ؛لينهمك فى دراسة علوم غير مجدية .. بالطبع كان من العسير عليه أن يتفهم هذا إلا أنه أوعزه فى النهاية لفضول العلماء للمعرفة الذى لاينتهى مهما كان نوعها .

.لم يستغرق الطريق منهما أكثر من نصف الساعة حتى كانوا أمام فيلته الصغيرة ..توقفوا بالسيارة أمام الباب الخارجى للفيلا ,حيث هرع حارس متقدم فى السن نحوهما حين رأى السيارة ؛فابتسم الدكتور محمود, وبادره قائلاً:

-كيف حالك ياعم إسماعيل؟ ..هل أنت بخير ؟..

تعرفه البواب العجوز ؛فتهلل وجهه فرحا ،وقال مرحباً :

الحمد لله يادكتور ..مرحباً بك..مضى زمن طويل لم تأت فيه إلى هنا .

-إنه العمل أيها العجوز ..لكن أخبرنى ..هل الدكتور محمد بالداخل؟

-نعم يادكتور ..إنه بداخل الفيلا الأن ..تفضل يادكتور..سوف أقودكما للداخل.

قالها، وفتح لهما الباب الحديدى المليء بالزخارف الأنيقة, فمرت سيارة الدكتور محمود عبره للداخل ..

هبطوا من السيارة ،واتجهوا إلى ممر مبطن بالأحجار خصص للسير عليه .. كان جانبي الممر مزيناً بأنواع شتى من النباتات والأعشاب والزهور ..وكانت النباتات ترسم بأشكالها وألوانها لوحات فنية بديعة بالرغم من الظلام ,بفضل بعض كشافات الإضاءة التى تم توزيعها بطريقة هندسية رائعة ؛فأشاعت فى المكان ظلالاً محببة ..

تأمل الدكتور مصطفى منبهراً، الحديقة المرتبة على شكل أحواض مربعة, ودائرية تحوى أنواعا لاحصر لها من الشجيرات والورود والأزهار المختلفة ألوانها وأشكالها.. فقال له الدكتور محمود، وهو يلحظ إعجابه، وانبهاره:

-الدكتور محمد من عشاق النباتات ..هو يرى أنها هى الأخرى تملك طاقات وقدرات نجهلها ..كما أن لها لغات تتحاور بها مثلنا تماماً ..وأظن أن بعض أبحاثه تشمل هذه الناحية.

ثم مال على أذنه ،وقال بصوت خافت بمرح:

-بعض هذه النباتات تساوى ثروة ..فهى نادرة للغاية ,وبعضها تم جلبه خصصياً من أجله من خارج مصر ,كما أن الرجل يهتم بحديقته بنفسه.

كان مرأى النباتات والورد مبهجاً، وقد انتشر عبقها الطيب فى المكان ؛ فأضفى إلي متعة الحديقة البصرية التى تسلب الأبصار متعةٍ الرائحة الطيبة التى تفوح من كل مكان فيها ..ظلت أعينهم معلقةً بالحديقة ،وراحت تتنقل بين جنباتها المبهرة, حتى دلفوا إلى داخل الفيلا .

لاحظ الدكتور مصطفى على الفور الطراز الكلاسيكى الإنجليزى الذى صبغ كل شيء بالداخل ..لابد أن الدكتور محمد قد استوحاه من معيشته بإنجلترا ..انتظمت أرضية الفيلا على مستويين يفصلهما عدة درجات من الرخام ، وقد بُطّنت الأرض بالرخام والجرانيت ,وتوزعت فى جوانب الفيلا الكثير من الأعمدة، و التماثيل الحجرية أو البرونزية..

كانت هناك مدفأة حجرية تتوسط البهو ..ذكّرت هذه المدفأة الدكتور مصطفى بمدافئ البيوت الإنجليزية الريفية التى طالما رآها فى القصص المترجمة..

اتجه بصره نحو الحوائط التى زينتها الكثير من اللوحات الفنية والصور الشخصية..كان هناك صورة تمثل باشا لو أن لك أن تتصور شكل الباشاوات بملامح صارمة ،وأنف مستقيم حازم ،وشارب كث طويل ملفوف لأعلى ..لابد أنه المرحوم داود باشا شاهين والد الدكتور محمد .. لم يسترح الدكتور مصطفى لملامحه ،وخاصة عيونه الحادة التى أشعرته بالتوتر .. كانت العينان تحملان نظرةً مخيفةً توحى بالصرامة والعنجهية والتعالي ،وشيءآخر مرعب ،ومبهم لاتدرى ماهو .. بالتأكيد كانت تجربة التعامل مع شخص كهذا لو كان حيّاً ماكانت لتكون سارة أو محببة للنفس ..

كان هناك صورة أخرى لسيدة شابة و فاتنة بفستان بسيط أنيق يعود لثلاثينيات القرن الماضى ..كانت تبتسم بود ودفء أضفى لملامحها إحساساً بالألفة والراحة ..خمّن الدكتور مصطفى أنها لابد أن تكون والدة الدكتور محمد ..كانت هناك أيضا بعض صور الدكتور محمد ,عرفها الدكتور مصطفى على الفور , فهو قد رآة من قبل، وإن لم يتبادلا التعارف أو الحديث ألا لماما ..

اتجها إلى الصالون ؛حيث جلسا فيه على أرائك مذهبة ؛لابد أنها تعود لأحد نبلاء العصور الوسطى ..هكذا خمن الدكتور مصطفى، وهو يتحسسها بتعجب وانبهار, بينما انسحب البواب العجوز بعد أن أخبرهم أن الدكتور قادم إليهم على الفور.

تطلعا بانبهار إلى اللوحات الكثيرة المتنوعة, و المنتشرة على الجدران حولهم مانحةً للفيلا طابعاً محبباً من الرقى الممتزج

بالذوق الرفيع ..مما دفع الدكتور مصطفى لإطلاق صفير خافت منبهر وقال:

-الفيلا بأثاثها ولوحاتها وتصميمها وحديقتها تحفة فنية حقاً .. إننى أحسد هذا الرجل من كل قلبى عليها.. أن يعيش المرء هاهنا يشبه العيش بالجنان.

ضحك الدكتور محمود ،وهو يلاحظ انبهار الدكتور مصطفى بكل شيء ..هو نفسه كان منبهراً مثله تماماً حين أتى للمكان لأول مرة..لذا قال :

-من حسن حظك أن الدكتور محمد لايتطير,ولايخاف من الحسد .. بل سيدهشك أنه سيطرب لمديحك هذا ..

ارتفع فى المكان صوتُ خطواتٍ قادمة من أعلى الدرج الخشبى, فانتبها إلى الدكتور محمد القادم نحوهم بقامته المتوسطة وملامحه الأرستقراطية التى تحمل ملامح والده، وإن أذابتها ابتسامته الدافئة...

كان يرتدى ملابسه كاملةً، ويحمل غليوناً بجانب فمه كما يفعل الرجال الجنتلمان الإنجليز ..رحب بهما بود كامل، وأشار إليهما بالجلوس ..

كان قد التقى بالدكتور مصطفى من قبل؛ فلم يحْتَج لأن يقدمه الدكتور محمود له ..وقال له محاولاً إشعاره بالود والترحيب:

-هل أعجبتك فيلا تى الصغيرة هذه ؟.

-فى الواقع لم أر شيئاً مبهراً مثلها من قبل ..كل شيء بها هو قطعة فنية لاتوصف ..إنها تصلح بكل ثقة أن تكون متحفاً للفنون.

أطربت كلماته الدكتور محمد ؛فقال بأسى حقيقى :

-أنت لم تر قصر والدى قبل أن تأممه الثورة، وينهبه لصوصها..كان شيئاً رائعاً من الصعب أن تقارنه بهذه الفيلا الصغيرة.

واكتسى صوته رنة ألم ،وهو يضيف:

-للأسف تم نهبه تماماً ..مايحزننى أن أمى قد تعبت كثيراً فى تنسيقه, وجلب الكثير من التحف ،واللوحات الأصلية له من الكثير من أنحاء العالم ليبددها العسكر واللصوص بلا وعى لقيمتها الحقيقية..بالمناسبة إن والدتى نفسها كانت فنانة لها الكثير من اللوحات الرائعة .

وأشار بيده إلى بعض اللوحات المعلقة على ركن من أركان الفيلا، وأكمل :

-هذه اللوحات كلها بريشتها هى ..أعتقد أن بها بعض الأصالة والموهبة ؛ كما ترون .

تطلعا إلى اللوحات التى أشار اليها.كانت تصور الطبيعة فى صور مختلفة ..كان هناك لوحة تصور البحر وقت الغروب، وأخرى كانت تصور شجرة فى مقتبل غابة ،وقد حلّقت الطيور فوقها ،وثالثة صورت وردة حملت أوراقها ألوانا مختلفة ..عبقت اللوحات بالموهبة ،والحساسية الشديدة فى اختيار الألوان ..

فى نفس اللحظة ظهرت لهم سيدة متوسطة العمر ذات ملامح جميلة لكنها صارمة ,رمقتهم بنظرة متشككة غير مريحة ..فسألهم الدكتور محمد عمّا يرغبان فى تناوله، فطلب الاثنان قهوة ،فطلب منها بلطف أن تحضر القهوة لهم جميعاً .

انصرفت بعد أن رمتهم بنظرة أخرى متفحصة ..فمال الدكتور محمود نحوه ،وقال بمكر :

-أمازلت محتفظاً بمديرة بيتك هذه ..أنا لا أدرى كيف تحتمل نظراتها الصارمة تلك ،والتى لاتفارق وجهها أبداً ..أحيانا أشعر أنك تخشاها ..ألا تفعل يارجل؟.

أطلق الدكتور محمد ضحكةً صاخبةً, وقد راقت له الدعابة وقال:

-لن تصدقنى لو قلت لك إننى أخشاها أحياناً ..لكنها، والحق يقال نظيفة ،وتقوم بأعمال المنزل بمهارة وتفان..أظن أننى قد اعتدت عليها ،ولم أعد أستطيع أن أدبر أمرى بدونها.

خيّم بعدها الصمت للحظة, ثم قال الدكتور محمد ،وقد وضع غليونه فى فمه ورفع ساقاً فوق ساق:

-والآن ماذا تنتظران من الساحر أن يقدم لكم ؟.

أدرك الدكتور محمود مايعنيه بقوله هذا فأجاب على الفور :

-فى الواقع إننا فى ورطة .. وقد جئنا طلباً لمساعدتك .

(41)

كان هناك الشيخ عبد العاطى ...

كان أحد أشهر الدجالين فى ذلك الوقت ..اشتهر فى البداية في المناطق الشعبية كالقلعة والسيدة وغيرها..وبعد فترة ذاع صيتة واشتهر ؛ حتى يقال إن بعض الفنانات والمشاهير صاروا لايقدمون على شيء إلا بعد مشورته..

كتب البعض عنه مقالات ببعض الصحف والمجلات الأسبوعية تمدح كراماته، وتعددها أحياناً ..وتتهمه بالدجل والنصب أحياناً أخرى, إلا أنه مات فجأة فى ظروف غامضة ,تناثرت حولها الكثير من الحكايات، والأقاويل وإن لم يعرف أحد الحقيقة فيها..

لكننا نعرف ..

أخبرت باتعة زوجة متولى جارتها أم كريم بما حدث لزوجها فأخبرتها انه لن يحل لها هذه المشكلة, إلا الشيخ عبدالعاطى.. فالرجل سره باتع ،و يخشاه كل الجان وأعوانهم ؛لأنه يسخر ملوكهم .. ثم راحت تعدد لها الكثير من كرامته التى شهدتها بنفسها .ألم تكن كريمة زوجه محروس العجلاتى عقيماً، وبعد زيارته حدث لها الحمل؟ ..ألم يرغب أحد الجان فى الزواج بسناء ابنة الحاج محمد أمين ،وأصابها بالمرض ,ودار بها أبوها بكافة الأطباء والمشايخ ,ولم يخلصها من هذا الجان إلا الشيخ عبدالعاطى.. ألم يسرق ذهب أمينة القاضى جارتهم، وبعد أن

يئست من معرفة السارق ،وكادت أن تموت كمداً،ذهبت إليه فاستطاع معرفة السارق ..

كان هناك الكثير من الحكايات الأخرى ..وكالعادة لا أحد يدرى ما الحقيقة ولا الضلال فيها.. ولكنها الفطرة المتوارثة فى نفوس الكثير من المصريين الذين يثقون فى الشيوخ والأولياء ..ويتكفل دوماً خيالهم بصنع كرامات لهم عن حق كانت أو باطل ..ولذا نجد أن باتعة لم تكذب خبراً، وقررت أن تزوره فربما يحل مشكلة زوجها مع تلك الجثة اللعينة فى المشرحة ,والذى كان قد قص عليها كل مافعلته بهم , وكل ماقيل عنها ؛ فصارت لاتنام من الفزع خشية أن تصحو ؛فتجد نفسها بين الجثث كما حدث لزوجها.

تطوعت أم كريم ،وأخبرتها أنها ستصحبها إليه، وهمست إليها:

-إن الرجل أتعابه عالية بعض الشيء ...لكنه مضمون .

وبالطبع مادام الأمر يتعلق بالنقود ؛فقد وافق متولى على مضض دفعه إليه خوفه.

بعد العصر اتجهوا إليه حيث مقره بالقلعة..وفى شقة بالدور الأرضى فى عمارة قديمة كان يقيم.. دخلوا الشقة ففوجئوا بسيدة بدينة ترتدى جلباباً زاخراً بالألوان الصاخبة تستقبلهم، ثم طلبت منهم أن ينتظروا دورهم فى مقابلته ..كان المكان يعجُّ بالكثيرين ممن أتوا للشيخ بحثاً عن كراماته ..فمالت أم كريم على أذن باتعة قائلة بفرح:

-انظرى كم واحد هنا قادم للشيخ ..ألم أقل لك إنه ذو سر باتع , وسوف يحل مشكلتك إن شاء الله.

غمغمت باتعة بأمل :

-يارب يا أم كريم ..يارب

تشاغلا بمتابعة الكثير من رواد المكان القادمين بمختلف أنواع المشاكل.. هذه هجرها زوجها لأفعى أخرى ,وتلك ممسوسة , وهذا قد صنع له أحدهم عملاً فصار لا ينجب وآخرون بمشاكل شتى ..ظلتا هكذا إلى أن حان دورهما، فنادتهم المرأة البدينة ,فنهضتا بسرعة ،واتجهتا إلى حجرته ,وقالت باتعة لها هامسة قبل أن يصلا لبابه :

-هل سندفع النقود الآن؟.

أسرعت المرأة البدينة تصيح بصوت عال صارم ,تعمدت أن يسمعه الجميع:

-الشيخ لايتقاضى نقوداً ..إنها طلبات ملوك الجان, يحددها الأسياد له.. فيخبرك بها بعد معرفة مشكلتك.. لو أراد الشيخ اموالا لفتح له ملوك الجان خزائنهم وكنوزهم .

دخلتا الحجرة المظلمة بارتباك..كان هناك الكثير من الدخان ورائحة بخور زيتى خانق تفعم المكان ,وقد امتزجت برائحة عضوية غامضة .. فى منتصف الحجرة كان يجلس الشيخ عبدالعاطى بلحيتة الشعثاء ،ونظرة ماكرة خبيثة من السهل إدراكها تملأ وجهه .. كان هناك أمامه موقد فخارى كبير توهجت فيه أحجار الفحم المشتعلة ،وبجواره كانت هناك بلورة زرقاء معتمة تغوص فى حامل خشبى ..وفي الجوانب، وعلى الحائط كان هناك الكثير من التماثيل المرعبة ،والأقنعة البشعة .. فى

الواقع ،وكى لانظلم الرجل .. فإنه قد فعل كل مابوسعه كى يبدو نصاباً, ولكنهم كانوا حمقى فلم يدركوا هذا.

شعرت باتعة بالخوف من هذا الجو المظلم الخانق , بينما كانت أم كريم أكثر جرأة وهو تحيه :

-السلام عليكم يامولانا.

أجابها الرجل بصوت خشن ،وفمه لايكف عن الهمهمة بأشياء غامضة :

-السلام على من اتبع السلام، وقبلهم السلام على عشتروش وشمهورش ملوك الجان.

ألقى ببخوره فى الموقد المشتعل ؛فوجلت باتعة ،والدخان يتصاعد من النار ..وأكمل بصوت تعمد أن يكون مخيفا باردا:

-ملوك الجان هاهنا حاضرون ,فتأدبوا فى الحديث ..أوجزا واحكيا لهم مشكلتكما ,ولديهم الحل بإذن الله

لم تستطع باتعة التحدث من الخوف ,فجف ريقها ،وصمتت، فاندفعت أم كريم تقص عليه كل شيء أخبرتها باتعة به، و استمع إليها ،وفمه مستمراً فى همهمته الغامضة, وحين انتهت من كلامها؛ صاح فجأة بصوت جهورى مخيف:

أعوذ بالله ..الغوث الغوث ..العون العون ..النجدة يا ملوك البحار السبعة وأمراء الجزائر ..

أسرعت أم كريم تقول, وقد لاحظت امتقاع وجه باتعة التى لم تتفوه بكلمة واحدة ,وراحت تتنفس بسرعة مضطربة:

-ماذا هناك يامولانا ؟.

ألقى الرجل بالمزيد من البخور قبل أن يقول:

-هذه أعمال سفلية شريرة وقديمة..أعمال مخيفة لايقوم بها إلا الجان الأحمر ..عشتروش يقول إن ملك الجان الأحمر بنفسه يشرف عليها ..ياحفيظ ارحمنا برحمتك.

فوجئت باتعة بنفسها تهتف برعب :

-ومن صنع هذا العمل لزوجى ..

-هذا ما لايجوز الإجابة عنه ..إنها أسرار ملوك الجان ،ولايحق لأحد معرفتها ،أو السؤال عنها.

هنا قالت أم كريم بتوتر:

-والحل ياشيخ عبدالعاطى؟!

لم يرد عليها، وألقى المزيد من البخور على النيران التى أمامه, فتوهجت ، واندفعت سحب البخور الكثيفة نحوهما حتى شعرتا بالاختناق, بينما استمر هو فى همهمته المبهمه ،وهو يرجع رأسه للخلف ؛كأنما يحادث أشخاصاً خفيةً , قبل أن يعلوا حاجبه الأيسر، ويصيح بفرح مصطنع :

-أبشروا..لقد أتى الفرج ..إن عشتروش سوف يبطل العمل ...لقد وافق الآن على مواجهة ملك الجان الأحمر، وإبطال سحره..لكنه يطلب الكثير .

أجابت عليه أم كريم على الفور:

-أخبره أن طلباته كلها مجابة ..كل شئ يريده سوف نلبيه .

ارتسمت ابتسامة لزجة على ملامحه قبل أن يقول :

-عشرة جنيهات تدفعونها الآن ,وخمسة أخرى مع ديكين يافعين بعد قضاء الحاجة ..ماردكم؟.

غمزت أم كريم لباتعة بكوعها, فأسرعت بإخراج ورقة بعشرة جنيهات من كيس تضعة بصدرها ,وناولته إياه وهى لاتصدق أنها ستدفع له مبلغا كهذا, فتناولها من يديها بلهفة, ووضعها فى جراب أحمر من القماش بجانبه.. قبل أن يخرج ورقة صفراء مطويه من كيس قماشي كان يجلس عليه مليئة بشخبطات ،وحروف غير مفهومة بلون أحمر , وقال ،وهو يناولها إياها:

-خذى هذا الحجاب وسمّى الله ..أعطيه لزوجك، وأخبريه أن يضعها خلسة فى فم هذه الجثة دون أن يلحظه أحد أو يراه , ولاتنس أن تجبريه أن يضع عليها بعض بوله عليه قبل وضعه فى فمها, فهذا سيحميه من شرها، ويبطل السحر ..وسينتهى هذا العمل الخبيث إن شاء الله.

تناولتها منه بلهفة, وهى تدعو له بالستر ..لكنه لم يرد ، ففهمتا أن المقابلة انتهت .. فنهضتا للانصراف .. تابعهما بعينيه اللزجتين متفحصا تضاريس جسديهما البادية خلال عباءتاهما، حتى انصرفتا ،وابتسامة لزجة تزين وجهه..

كان الرجل قميء بالفعل ..

هل ينكر أحد ما هذا ؟..

(42)

فى الصباح كان متولى فى المشرحة، وفى جيبه الحجاب .. وبالرغم من خوفه وتردده , فقد قرر أن يكون آخر من يخرج من المشرحة, حتى يضع حجاب الشيخ عبدالعاطى دون أن يراه أحد, وبمجرد أن صار بمفرده بالمشرحة اتجه إلى قاعة التشريح؛ ليضع الحجاب فى فم الجثة ..

تذكر أنه لم يتبول عليه كما أمر الشيخ عبدالعاطى ،فانتحى فى أحد الأحواض المنتشرة بجوانب المشرحة، وتبول على الحجاب, وتقدّم به بعدها نحو الجثة ..كان يشعر بالرعب منها إلا أنه تماسك، وكشف عن وجهها، وبيد مرتجفة فتح فكها السفلى؛ فاستجاب له بيسر, فوضع الحجاب فى فمها بسرعة ،وأغلقه مرة أخرى , قبل أن يعيد تغطيتها ،ويندفع بعدها نحو باب المشرحة مهرولاً ولاهثاً من فرط الإثارة ..كان يتوقع أن يحدث منها رد فعل ما ,ولكن لحسن الحظ مضى كل شيء على مايرام.. فشعر ببعض الراحة.

الآن المشكلة قد حلت كما وعد الشيخ عبدالعاطى.. فهل ينتهى شر الجثة؟..

هذا ما لم يكن بإمكانه ان يعلمه الأن..

(43)

باهتمام بالغ تابع الدكتور محمد شاهين مايقصه الدكتور محمود، والدكتور مصطفى عن الأحداث الغريبة بالمشرحة .. لم يقاطعهما ،وتركهما يفرغان فى أذنيه كل مايعرفونه ..فى النهاية سحب نفساً عميقاً من غليونه الموضوع على جانب فمه الأيسر، وأخرج من فمه دخانه الرمادى ببطء، وتراجع برأسه للخلف مفكراً بصمت ..تطلّع إليه كلاهما بلهفة منتظرين أن يفيدهما كما تمنيا .

ظهرت قطة مشمشية اللون فى هذه اللحظة، وتحركت بتؤده بينهم ورأسها ينظر إليهما ببطء كأنما تتفحصهما ,قبل أن تتقدم نحو الدكتور محمد شاهين الذى ابتسم لها ،ومد يده نحوها ؛فقفزت لتجلس علي قدمه مستكينة لأصابعه التى راحت تربت على فرائها بلطف وقال مبتسماً:

ـدعونى أقدّم لكم عزيزتى ددى ..

ابتسم كلاهما، والدكتور محمد يشير نحوهما مكملاً:

ـهذا هو الدكتور محمود ،والآخر هو الدكتور مصطفى ..إنهم أمام أحداث غامضة ،وقد جاءوا طلباً للمساعدة.

قال الدكتور مصطفى، وهو يرمق القطة الجميلة التى أطلقت مواءاًخافتاً :

-إن لها اسماً غريباً ..كما أننى أعتقد أنه لن يهمها ما نواجهه .

- سيدهشك أن تعلم ماتهتم به حقّاً،وما يمكنها أن تفعله.

قالها الدكتور محمد بغموض ،ثم استطرد:

-أما اسمها فهو اسم ساحر مصرى قديم ..وأظن أن هذا الاسم يروقها لهذا ادعوها به.

تبادل الدكتور مطصفى النظرات الدهشي مع الدكتور محمود ..لكن الدكتور محمد أراد تجاوز هذه النقطة فقال:

-إن مشكلتكم كما أعتقد أنكم لاتدركون ماتواجهون ..الأمر محير بحق ، ولاألومكم على حيرتكم هذه ,فهناك عشرات الاحتمالات لما تواجهونه .

نهض من مقعده ،وأطلق صراح قطته ،واتجه إلى النافذة المطلة على الحديقة، وأخذ يتأملها بشرود قبل أن يقول :

-هل ما يحدث معكم يسببه شبح هذه الفتاة ..أم هل يكون أحد الجان أم أنه القرين؟ ..قد يكون الامر ايضا لعنة ما أو مس شيطانى ..وكل هذه احتمالات ممكنة .

قال الدكتور محمود بحيرة :

-يا إلهى كل هذا ..كيف يمكننا أن نعرف ماذا تكون إذا؟

التفت إليهم، وتجاهل إجابة سؤاله بلا مبرر، وقال:

-فى البداية ماذا تعرفان عن الأشباح ؟!

تطلع الاثنان إلى بعضهما البعض قبل أن يجيب الدكتور محمود:

-ليس الكثير ..البعض يتحدث عن أنها أرواح للموتى تظهر فى بعض الأحيان فى ظروف معينة, ربما لتخبر عن القاتل لو كانت لقتيل ،أو لتثير الفوضى ..إن الفكرة مشهورة ومنتشرة فى الثقافة الغربية أكثر من الثقافة الشرقية .

ابتسم الدكتور محمد، وسحب نفساًآخر من غليونه، وهو يقول:

-هذا صحيح إلى حد ما .. إن الشبح هو الطيف.. هذا الطيف قد يكون لإنسان أو حيوان أو أى شيءآخر , لغوياً كلمة شبح تعنى الرؤية غير الواضحة لجسم ما.. وشبح الشيء فى اللغة هو ظله وخياله ..

بالطبع تعد هذه الظاهرة من أهم ظواهر ماوراء الطبيعة .. فالفكرة نفسها قديمة , وموجودة فى كل الثقافات تقريباً ,حتى البدائية منها ..فى الغالب يتم تفسير ظاهرة الأشباح على أنها أرواح الموتى أو أرواح القتلى, لكن هناك تفسيرات أخرى.. فالبعض يرى أن الأشباح هى الجان أو الملائكة أو الشياطين، وهؤلاء يرون أن الأشباح الطيبة هى إحدى صور الملائكة، والشريرة هى أشباح لجان أو شياطين ..

صمت للحظة فقال الدكتور محمود معقباً :

-أعتقد أننى أميل إلى التفسير الأخير ..إن هذا يتوافق مع عقائدنا الدينية ،ولايتعارض معها كالتفسيرات الأخرى التى ترى أن الأشباح هى أرواح الموتى ..فالروح من أمر الله وحده ؛كما قال الله فى كتابه الحكيم (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى)..ولهذا لا اميل الى القول بأنها ارواح ..

أجابه الدكتور محمد مبتسماً:

-صدق الله العظيم .. إننى مثلك أرفض فكرة الروح هذ ..لكن أرفض أيضاً اعتبار الأشباح الطيبة ملائكة، والشريرة شياطين ..فكما سنرى حالاً فالأمر شائك بشدة .

غمغم الدكتور مصطفى بصوت خافت متسائلاً:

-أرى أن هناك مبالغةً ما فى موضوع الأشباح هذه، ولا أعتقد أنها تهم الكثيرين حقا ؟.. إن رجل الشارع العادى لن يقابل اشباحا فى كل لحظة ,ولن يهتم بها كثيرا كما أعتقد. إنها لن تهم فى العادة عير المتخصصين فى تلك الأمور ,وعشاق الإثارة والغموض من الشباب.

أجابه الدكتور محمد، وهو يهز رأسه :

-لن تتخيل أبداًعدد الجمعيات، والأفراد المهتمين بالأشباح حول العالم ..مئات الألوف بلا أى مبالغة .. بالطبع فى المقابل هناك أيضا مئات الألوف من الأشخاص الذين يرفضونها أيضا وبشدة ..وكلٌ له أدلته القوية وبراهينه.

قال الدكتور مصطفى بإحراج :

-أعتقد أننى حتى وقت قريب كنت أنتمى للمعسكر الرافض ..فمشكلة تلك الأمور الخارقة الغامضة أنك لاتدرى أبداً الحقيقة فيها من التدليس .

-هذا أمر متوقع بالطبع ..فمشكلة الأشباح مثلاً أنك تواجه شيء من المستحيل أن تثبته بالدليل القاطع ..أنت تتعامل مع شيء تؤمن به ،أو ترفضه بحسب معتقداتك ،أو ثقافتك ،أو موروثاتك ..ومن المحبط أنه بالرغم من توافر العشرات من وسائل البحث ،والاستدلال لإثبات هذه الظاهرة ,إلا أن مستوى معرفتنا بها لم يتعد معرفة القدماء كثيراً .. إن مانجهله عنها أكثر بكثير مما نجهله ..

قالها ورمق قطته التى إرتكزت على قائميها الخلفيين ورفعت رأسها نحوه كأنما تتابع ما يقوله ,وإستطرد:

فى الغرب هناك الكثير من المحاولات الجادة من عشرات الجمعيات المهتمة بهذه الظاهرة لمحاولة رصدها بأدلة مادية؛ مثل تصويرها بكاميرات عادية ،أو خاصة مع تجميع أكبر قدر ممكن من روايات الشهود إنهم يستخدمون التصوير التلفزيونى, وأجهزة لرصد بعض التأثيرات المادية المصاحبة لظهور الأشباح كالأضواء التى تضيء، أو تطفئ بمفردها، أو تحريك بعض الأغراض وغيرها.. وهناك أيضا محاولات لتسجيل الأصوات التى قد تكون مصاحبة لها ..كل هذا قد يفيد أحياناً فى إثباتها، ولكن دوما تصطدم كل تلك البراهين بحجج المنتقدين للفكرة , مثل إمكانية التزوير مثلاً ..

غمغم الدكتور مصطفى بانتصار:

-بالضبط ..من السهل اللجوء للتزوير لإثبات وجود وهمى لها ..إن الخرافات مرعى خصب للأفّاكين والنصابين ؛ولهذا من الصعب أن يتقبل العلم أشياءً مثل هذه.

هنا رد عليه الدكتور محمود بسرعة:

-رويدك يادكتور مصطفى ..فالأمر لايخلو أبداً من حوادث موثقة كان شهودها أناس لاغبار عليهم ..أليس كذلك يادكتور محمد؟

ظل الدكتور محمد مبتسماً، وهو يستمع لكليهما ،وهز رأسه موافقاً على قاله الدكتور محمود ،وأكمل:

-بالطبع هناك العديد من الحوادث الموثقة فى هذا الشان كما ذكرت يادكتور محمود ..لكن مصادرنا هنا غربية .فكما أخبرتكم لاتوجد أى دراسات جادة عربية حتى الآن فى هذا الشان..فهناك مثلا شبح الرئيس الأمريكى الأشهر " إبراهام لنكولن " الذى رآه الرئيس الأمريكى " تيودور روزفلت" يتجول فى ردهات البيض الأبيض ،وهناك قصة القس الروسي" ديمتري " التي ظلت مثالاً حياً لوجود هذه الظاهرة لفترة طويلة،

ففي عام 1911 م وفي ليلة من ليالي الشتاء شاهد القس " ديمتري " المشهور بصدقهِ امرأة جميلة شابة طلبت منه أن يدلها على الطريق ،وسرعان ما فعل ذلك, ولكن الصدمة عندما انتبه إلى أن رقبة المرأة تنزف دماً، وتأكد بعد فترة بأنه في الليلة السابقة ،قد قُتلت فتاة شابة من النبلاء تحمل نفس صفات الفتاة التي شاهدها ،وقد قُطع رأسها بالكامل عن جسدها..

هنا يرى الباحثون المؤيدون لظاهرة الأشباح أن هذه الحوادث أكبر دليل على وجود الأشباح ؛فما الذي يجعل من قس مثل "ديمتري " يدّعي هذه المشاهدات التي قد تفقده مصداقيته.

صمت الدكتور محمد ،وعاد ليجلس بعدها على معقده، فتبعته القطة على الفور ؛كأنما كانت تنتظره ،وتابعه الاثنان بأعينهما فاستطرد قائلاً:

-لاحظا أيضا أن ظاهرة الأشباح ترتبط عادة ببقعة معينة كالمنازل ،أو السفن ،أو المناطق المهجورة ،أوغيرها .. فقد اشتهرت العديد من المناطق ،أو البقع بظهور الأشباح ،وكثرت فيها الحوادث بصورة لا يمكن أن يتجاهلها أي متابع لتلك الظاهرة ..ومن أشهر تلك البقع قصر "كليمز " التاريخي والموجود في مدينة "ستراثمور الإسكتلندية "،حيث يعتبر هذا المكان من أشهر الأماكن المسكونة بالاشباح في العالم ..ربما يكون سبب هذا الخلفية التاريخية الرهيبة ،والمرعبة الأشبه بالأساطير لهذا القصر ..ففي عام 1034م قُتِل الملك "مالكولم" في هذا القصر على أيدي بعض المتمردين المسلحين، وبعدها أحرِقت سيدة القصر" جانيت دوجلاس" بتهمة الشعوذة, ولكن بعد فترة من الزمن ثبتت برائتها من التهمة المنسوبة إليها، ومنذ ذلك الحين ترددت الكثير من الأقاويل حول ظهور شبح السيدة "جانيت" يحوم في ممرات القلعة ..وانتشرت بعدها عشرات الروايات التى تؤكد أن القصر صار ملعوناً.. إن كل هذه حوادث موثقة لاغبار عليها لو شئت رأيى.

قاطعه الدكتور محمود قائلاً وهو يتذكر امر ما:

-إننى أتذكر شيئا قد قرأته من قبل عن تفسير علمى لظاهرة الأشباح ..شيء يتعلق بالمجارى المائية أو الكهرباء الإستاتيكية ..أظن أنه كان شيئاً من هذا القبيل.

أجابه الدكتور محمد شاهين على الفور:

-لابد أنك تشير إلى الأبحاث التى قام بها الباحثون في بريطانيا ..فقد قاموا بإجراء سلسلة طويلة من الدراسات حول معظم البيوت المسكونة بالأشباح، وتبينوا أن غالبية هذه المنازل تحتوي على مجار مائية تمر على صخور الجرانيت ,وبسبب احتكاك الماء بهذه الصخور تتولد طاقة كهرومغناطيسية تؤثر على عقول ساكني تلك المنزل الأمر الذي يجعلهم في حالة أشبه إلى الهلوسة ؛فيخيل لهم أنهم يرون أشكالاً هلامية ،وأشباحاً قد لا يكون لها وجود.

هنا قال الدكتور مصطفى :

-أعتقد أن هذا قد يكون يكون تفسيراً معقولاً ..ولو قام المهتمون بتلك الظاهرة فى الآماكن الأخرى من العالم بأبحاث مماثلة ؛فربما توصلوا لنفس النتيجة .

هز الدكتور محمد رأسه بالنفى ،وقال بهدوء:

-يادكتور مصطفى ..الأمر ليس يسيراً كما تعتقد.. فالأشباح لاتكتفى بالظهور في البيوت فقط ..بل تم رصدها فى كل مكان وكل حين ,ومثل هذا التفسير لايفسر حوداث الأشباح التى تم رصدها فى السفن ،وفى الصحارى،أو حتى فى الطائرات ..

-إن كلامك يوحى أنك تؤمن حقاً بوجود الأشباح، وأنك لاتؤمن بالتفسيرات المادية لحدوثها, كتفسير التيار الكهرومغناطيسى الذى ذكرته منذ قليل.

-لو رأيت ما رأيته ..لكنت أكثر حذراً في رفض الفكرة .. صدقني إنهم موجودون بالفعل، ومنتشرون فى كل مكان بصورة قد لاتصدقها..ربما يأتى وقت أبرهن فيه لك على ما أزعمه الآن،

قال الدكتور محمود مقاطعاً مناقشتهما:

-ولكن هل تعتقد أن مايحدث فى المشرحة هو تأثير أشباح مثلاً؟.

هز الدكتور محمد شاهين رأسه بنفى، وهو يجيب:

-إننى أميل قليلاً لهذا التفسير ..لكن هناك شيئاً ما يبعدني عن القول أن هناك شبح ما بالمشرحة ..ففي معظم قصص الأشباح لايعدو الأمر أكثر من رؤية مفزعة ,أو أصوات مخيفة ..أو على الأكثر بعض المشاغبات كتحريك قطع الأثاث وغيرها .. لكننا هنا نتحدث عن جريمتى قتل، وعامل مشرحة فوجئ بانتقاله بوسيلة ما من منزله ليلاً إلى المشرحة ..ولاأظن أنه تم تسجيل أحداث مشابهة فعلتها الأشباح.

خيّم الصمت بعدها عليهم، فأفرغ الدكتور محمد غليونه فى مطفأة سجائر ، وأعاد حشوه بالتبغ ،ثم أشعله، وأخذ يدخنه ببطء بينما راح الدكتور مصطفى يراقب القط ،ويلاحظ عينيه العسليتين ..شعر بشيء من الغرابة فيهما ..لاحظه القط فمد رأسه نحوه، وارتسم على فمه مايشبه ابتسامة ساخرة؛ فوجل الدكتور مصطفى ،وأبعد عينيه عنه على الفور .

بعدها غمغم الدكتور محمود بحيرة :

ـ وماذا عن الإحتمالات الأخرى يادكتور محمد؟..

ـأعتقد أن أقرب الاحتمالات هو أنكم تواجهون أحد الجان .. إن الحوادث التى يحتك فيها البشر مع الجان منتشرة للغاية فى الأرياف والمناطق الشعبية , وأنا بنفسى شهدت الكثير من حوادثها .. هنا نجد الكثير من حوادث الاختفاء الفجائى.. التشنجات، ونوبات الصرع..تدمير الأثاث ,أو إشعال الحرائق بالمكان ،أو حتى سماع أصوات مخيفة..

فى الغالبية العظمى من هذه الحالات, هناك مرض نفسى ما عند الضحية يفسر الأمر كله ؛ولكن فى بعض الحوادث يكون المريض سليماً تماماً، ولامرض هنالك يفسر مايحدث ..هنا نحن أمام حوادث حقيقية لازيف فيها .. لاحظا أننى طبيب نفسى محترف ،وأستطيع أن أحكم بيسر على الحالة النفسية لأى مريض أو مدعى ..

وصمت شارداً للحظة وأردف :

ـربما يكون الجان أو المس تفسيراً معقولاً و مقبولاً ..ومعنى هذا أننا أمام جثة غير بشرية لأحد الجان .

سرت قشعريرة باردة فى جسد الدكتور مصطفى من هول الاحتمال ,وشاركه الدكتور محمود فى التوتر ،وقال:

ـلكن منذ متى يتجسد الجان ..أنا لم أسمع عن هذا إلا فى قصص ألف ليلة وليلة.

ألقى الدكتور محمد بنظرة ناحية القطة ؛فحركت رأسها بعيداً عن عينيه, وقال بلهجة ذات معنى :

-إنهم يتجسدون طوال الوقت ..صدقنى لو أخبرتك أنهم يملئون شوارعنا بل، ويعيش بعضهم بيننا دون أن نعلم حقيقته.

بدا الاحتمال مقلقاً ومخيفاً ..إن العبث مع الجان له نتائج مخيفة كما اعتادوا أن يسمعوا من عشرات الحكايات القديمة التى طالما قصتها الجدات ،أو حتى القصص الشعبية التى تناولت أمر الجان .. شعر الاثنان بأن هذا الاحتمال مقبول , وقد يكون أقرب الاحتمالات للصواب ..فقال الدكتور محمود بعدها بصوت مرتعش:

-وهل هناك احتمال ما أن يكون مانواجهه شيئاً آخر .

أغمض الدكتور محمد عينيه مفكراً، ومازال يدخن غليونة وعينا الاثنين معلقتان به ..ثم قال ببطء :

-إننى أتذكر حادثة مشابهة لما تواجهون , تلك الحادثة وقعت فى بدايات هذا القرن ..كانت هناك جثة، وكان هناك قتلى، وأحداث غامضة ..لكن الجثة هاهنا كانت مومياء فرعونية .

لم يفهم الدكتور مصطفى ماعلاقة مومياء فرعونية بما يواجهونه الآن فغمغم :

-هل تعنى أن تلك الجثة الفرعونية قد أثارت من الأحداث ما هو مشابه لما نلاقيه من جثتنا ؟.

-ليس تماما فى الواقع .. ففى عام 1910م فوجئ عالم الدراسات المصرية "دوغلاس موراي" بأحد الأمريكيين يعرض عليه أثمن أثر عرض له أثناء مزاولته لمهنته .. عرض عليه صندوق مومياء لأميرة كبيرة في معبد آمون - رع - يعتقد أنها عاشت في طيبة حوالي 1600ق.م .. كانت صورتها محفورة على الصندوق المزخرف بالعاج، و الذي كان محفوظاً بحاله ممتازة وبالطبع لم يستطع "موراي"أن يقاوم الإغراء ؛فاشترى المومياء،و بدأ بترتيب الأمور لنقل الصندوق إلى منزله في لندن .

كانت الأميرة ذات منصب رفيع في كهانة الموت ,و قد ذكر على جدران قبرها أنها ستترك إرثا من النحس، و الرعب لكل من يزعج مكان راحتها الأبدية . بالطبع سخر "موراي" من هذه الخرافات, و لكن بعد ثلاثة أيام, بينما كان في رحلة صيد إلى أعالي النيل انفجرت البندقية في يدية بدون سبب، و بعد أسابيع من العذاب في المستشفى كان لابد من قطع ذراعه فوق المرفق , و أثناء رحلة العودة مات اثنان من أصدقائه بأسباب غير معروفة ، كما مات اثنان من الخدم المصريين الذين حملوا الصندوق خلال سنة ، و عندما وصل الى لندن وجد أن الصندوق قد سبقه إليها ،و عندما نظر إلى صورة وجه الأميرة المحفور عليها بدا و كأنه أصبح حيّاً، و نظراته تجمد الدم في العروق ,فقرر أن يتخلص من الصندوق، و لكن صديقة له أقنعته أن يتنازل عنه لها ,و خلال أسابيع ماتت والدتها ،و تخلّى عنها حبيبها ،و أصيبت بهزال شديد لم يعرف سببه، و عندما كانت تملي وصيتها على محاميها أصرّ على إعادة الصندوق "للموراي"، و لكن "موراي" خشى المومياء ,فأعطاها للمتحف البريطاني ، و لكن صندوق المومياء لم يوقف شروره حتى في تلك المؤسسه العلمية ، فقد سقط أحد المصوريين ميتاً فجأة ,و مات عالم الآثار، و المسئول عن المعروضات في فراشه ،انزعج بعدها

أعضاء مجلس المتحف من القصص التي تناقلتها الصحف؛ فاجتمعوا سراً، و اتفقوا بالإجماع على إرسال الصندوق إلى متحف نيويورك الذي وافق على قبول الهدية إذا سُلِّمت سرّاً و بأكثر الطرق أماناً ,ووُضِع الصندوق على السفينه العظيمة التي كانت تقوم برحلتها الأولى من "ساوثامبتون"إلى" نيويورك" في ذلك الشهر ،و لكن صندوق المومياء لم يصل إلى نيويورك أبداً؛ لأنه كان في مخزن الشحن لسفينه "التيتانك" عندما اصطدمت بجبل جليدي ،و غرقت ومعها 1498راكباً من ركابها في 15 آيار..لقد حمل البعض تلك المومياء ماحدث لتلك السفينة من غرق.

بدا واضحاً ثقافة الدكتور محمد الموسوعية فى تلك الحوادث الغريبة ..لكن الأمر بالرغم من مشابهته فى بعض أحداثه كان مختلفاً.. لذا قال الدكتور محمود معترضاً:

-لكننا هنا لانواجه مومياء فرعونية ..إنها جثة عادية.. ولو صدّقنا الحكايات التى قيلت عنها ،فهى قد عاشت منذ قرنين على الأكثر، وليست منذ عهد الفراعنة.

هز الدكتور محمد رأسه بشرود ،وعاد لينهض ،وغمغم:

-إننى أعلم ماتقوله ،وأتفهمه ..إننى فقط أحاول تنشيط ذاكرتى بتذكر تلك الحوادث التى أراها مشابه لما يحدث لكم، وأحاول أن أبحث عن رابط ما قد يفيدنا فى معرفة الحقيقة .

صمت بعدها ..وفجأة ارتفع جاجباه، واتسعت عيناه ؛كأنما هبط على عقله هاجس ما أزعجه فأخرج غليونه من فمه وسعل ، ثم قال ببطء دون أن ينظر لأعينهم:

-هناك تفسير فكرت به الآن.. لكنى أفضل أن أحتفظ به الأن دون أن أصرح به ؛ فهو مخيف فعلاً ,وأتمنى ألا يكون صحيحاً .

تطلع إليه الاثنان بقلق ،وقال الدكتور محمود:

-أى تفسير هذا ..أخبرنا به يادكتور محمد من فضلك..لقد أقلقتنا .

إلا أن الدكتور محمد كان مصرا فقال:

-لن أخبركم به قبل أن أرى تلك الجثة بنفسى، وأتاكد إن كانت شكوكى صادقة أم أننى أبالغ ..أرجو ألا يضايقككم هذا ..لكن أخبرانى هل من الممكن أن نذهب سويّاً الآن للمشرحة لرؤية تلك الجثة .

كان طلباً غريباً لم يتوقعاه ,فالليل قد هبط منذ فترة,وليس هذا هو الوقت المناسب للذهاب للكلية ,فلماذا لا يؤجلون هذا الأمر للصباح ؛كى لايثيروا الريبة والشك ..لذا قال الدكتور مصطفى بإحراج:

-ألا يمكن تأجيل هذا الأمر للصباح ..إن الجثة بالمشرحة، ولن تغادرها حتماً.

أجابه الدكتور محمد بسرعة :

-فى الواقع لدى شكوك ما , واعتقد أن رؤيتى للجثة الآن ستؤكدها أو تنفيها ..كما أن الوقت الحالى هو الأنسب لو شئت رأيى ؛فلا طلاب أو أساتذه هناك الآن ,وبالتالى لن نقابل بنظرات الفضول من أحد ما.

تطلع الدكتور مصطفى إلى الدكتور محمود؛ كأنما يسأله بصمت عن رأيه, فهز الأخير رأسه ببطء موافقاً ,فقال الدكتور مصطفى متنهداً :

-حسناً ..كما تشاء يادكتور محمد ..لنذهب الآن إلى المشرحة.

(44)

كانت الشوارع خالية ,وغير مزدحمة فلم تمض ثلث الساعة عليهم إلا وكانوا أمام باب الكلية ..

اتجهوا مباشرةً إلى المشرحة ،وهناك أدركوا أنهم نسوا شيئاً مهماً ..كان الباب الخارجى لها مغلقاً بقفل كبير وليس معهم مفتاحه..فكيف يدخلون؟ .

وقال الدكتور محمود بضيق, وقد أدرك تسرعهم:

-يبدو أننا تسرعنا حين جئنا إلى هنا دون أن نفكر جيداً ..كان علينا أن نتوقع أنها مغلقة الأن مادام لا أحد يبيت بها.

لم يُعقب الدكتور مصطفى، وعقله يفكر فى حل, أما الدكتور محمد فقد قال بدهشة:

-ولكن منذ متى تغلقون باب المشرحة .. فيما مضى لم يكن هذا يحدث كما أتذكر.. فما الذى تحويه المشرحة غير الجثث كى تخشوا عليه ..لا أظن الجثث المحنطة قد تغرى أحداً بسرقتها.

أجابه الدكتور مصطفى مبتسماً :

- للأسف إن هذا ما حدث بالفعل ,فمنذ أعوام تكررت سرقة بعض أجزاء الجثث ،والعظام من المشرحة..إننى أعتقد أن الأمر لا يعدو بعض الطلاب المتحمسين للعلم , ولهذا صار إغلاق الباب فرضاً علينا ,بل وحتى الفترة الماضية كان يجب على أحد عمال المشرحة أن يبيت بها.

ابتسم الدكتور محمد لطرافة الأمر ..طالب يسرق جثة من مشرحة الكلية ليتعلم عليها .. فقال ساخراً:

-يبدو أن طلبة الطب هذه الأيام صاروا أكثر حماساً مما كنا .. ففى أيامنا كنا نتحاشى المشرحة.

ابتسم الجميع, قبل أن يقول الدكتور محمود :

-المهم الآن كيف سنفتح هذا الباب ..سيكون سخيفاً أن نصل المشرحة الآن، ولاندخل بسبب هذا الباب السخيف!

لاح حل ما لعقل الدكتور مصطفى ؛فقال وعيناه تلمعان:

- أظن أننى أعلم أين سأجد نسخة من مفتاح هذا الباب , انتظرانى للحظة واحدة.

كان يدرك بحكم منصبه السابق كرئيس للقسم أن نسخة من مفتاح باب المشرحة يكون دوما بحوزة رئيس القسم تحسباً لطارئ ما .. وقد اعتاد هو ومن سبقوه من رؤساء القسم على الاحتفاظ بتلك النسخة الاحتياطة فى مسمار بالحائط خلف باب حجرة رئيس القسم.. لهذا صعد إلى غرفة الدكتور نعيم بحثاً عنه.

وجده بالفعل فى مكانه ,فعاد إليهم باسماً ,وهو يفتح باب المشرحة به ,ثم دخلوا على الفور ..أضاء المصابيح البيضاء للمشرحة، ثم ساروا نحو قاعة التشريح ..أنارها هى الأخرى ..وتسمروا حينئذ بفزع لمارأوه بها.

فأمام أعينهم سبحت فى الفراغ أربع جثث عارية معلقة من أرجلها لأعلى ورؤسها لأسفل ،وقد تقاطعت أذرعها على

صدورها فى وضع المومياءت الفرعونيه المميز ..صنعت الجثث نفس الوضع التى رآه عبدالدايم من قبل.

هذه المرة لم تكن الجثث ساكنه فى الفراغ ..بل راحت تدور ببطء كأنما تحركها خيوط خفية ، ورقدت فى المنتصف جثة الفتاة بلاغطاء, عارية تماما هى الأخرى تماماً ..

كان المنظر مفزعاً للغاية ومرعباً ..لذا تراجع الثلاثة للخلف بإضطراب، وقال الدكتور محمود بصوت مرتعش:

ـأعوذ بالله من الشيطان الرجيم..لقد كان العمال على حق ..إنها تسبح فى الفراغ بالفعل ؟!

بينما همهم الدكتور مصطفى بذعر:

ـ أيفهم أحدكم ما يحدث هاهنا ؟..

لم يجبه أحدهم ،فارتفع صوته فجأة، وهو يقرأ آية الكرسى من سورة البقرة بصوت مرتفع ..وبدا صوته مرتجفا متقطعا من الإثارة والفزع.

صمت الدكتور محمد شاهين متأملاً ما يحدث..كانت هذه أول مرة يرى فيها شيئاً كهذا ..لم يكن هذا بالتأكيد من عمل الأشباح أو حتى العفاريت أو الجان.. إن مايدور الأن ضربا من ضروب السحر القوى للغايه ,سحر لا يقوى عليه إلا القليلون ..إن ما يراه هو شيء أكثر خطورة وقدماً.. شيء قرأ عنه منقبل ,ولا يتمنى أبدا أن يواجهه أو يلقاه ..

أخذ الدكتور محمد يفكر فى ماعليه أن يفعله ،وهو يغالب شعوراً بالانقباض يضيق به صدره.. وقال الدكتور محمود مضطرباً، وقد لاحظ تجمدهما جميعاً:

-ألن نفعل شيئاً ما ؟..

التفت نحوه الدكتور محمد ،وغمغم بقلق :

-وهل لديك فكرة ما ؟.

-لا أدرى ..ربما علينا أن ننزل هذه الجثث.

تأملوا الجثث المعلقة فى الهواء بصورة تجمد الدم فى العروق، فهز الدكتور محمد رأسه رافضاً الفكرة، وقال، وهو يشير لجثة الفتاة :

-أعتقد أن علينا أن نترك كل شيء كما هو ..لا ندرى ماذا سيحدث لو تدخلنا ، وقمنا بأى شيء قد يغضبها ..

وسرت رعدة فى جسد الدكتور محمود ،وهو يتخيل أن يحدث شيء ما من الجثث أثناء إنزالها ,أو أن تنهض جثة الفتاة فجأة لتعاقبهم ..

فوجئوا فى نفس اللحظة بالجثث ،وهى تهبط ببطء إلى طاولتها لترقد عليها برفق كأنما تعتنى بها أيد حانية خفية ,قبل أن يهدأ كل شيء .. حُبست الأنفاس، والأصوات ،وكف الدكتور مصطفى عن قراءة القرآن.. وتسمروا جامدين بصمت وترقب , قبل أن يقول الدكتور مصطفى باضطراب:

-والآن ماذا سنفعل ؟

تطلع إليه الدكتور محمد فى تردد قبل أن يحسم أمره، ويتحرك بخطوات تنقصها الشجاعة نحو جثة الفتاة قائلاً :

-سأفحص جثتها بنفسى.

بدا رده مفاجئا أذهلهما ..أيرغب فى فحص جثة تلك الفتاة بعد كل ماحدث ..لا يتخيلان أبدا أن يقدما علي شئ مثل هذا, وخاصة فى تلك اللحظة ..هذا شئ يحتاج لشجاعة عظيمة أو حماقة لاحد لها ..وأخذا يتابعان مايفعله بترقب , وكل منهما يتمنى لو امتلك شجاعة الهرب الآن من هنا ..

فتح الدكتور محمد جفنى الفتاة ،وتأمل عينيها البراقتين الجامدتين قبل أن يخرج مصباحاً صغيراً من جيبه، ويوجه شعاعه الرفيع إلى مقلتيها، تأملهما للحظة ثم أغلقهما ..وقال له الدكتور مصطفى مقاطعاً بتوتر:

-لقد فحصتها بنفسى يادكتور كما أخبرتك من قبل..إنها بالرغم من كل مايحدث تبدو جثة لا حياة فيها.

صاح فيه الدكتور محمد بحزم وعصبية ،وهو يغالب توتره :

-اصمت من فضلك.

وصمت الدكتور على مصطفى علي الفور شاعراً بالخجل.. ورأى الدكتور محمد يخرج محقناً صغيراً من جيبه، وأقحمه فى ذراعها ,ثم سحب المحقن ..كانت هناك دماء قانية تملأه , فاحتقن وجهه بشدة، وهو يقول باضطراب، وهو يقرب المحقن من أعينهم :

-انظروا ..إنها دماء طازجة..هل تتخيلون هذا ؟!

تطلع الاثنان بدهشة للمحقن الممتلئ بالدم، وهتف الدكتور محمود باستنكار، وهو يضع يده خلف رأسه :

-دماء طازجة فى عروقها ,هذا ليس حقيقا بلا شك, هذا مستحيل!.

لم يعقب الدكتور مصطفى ،وكذلك الدكتور محمد الذى التفت إلى أحواض الماء الرخاميه الموجودة بحوائط المشرحة ,واتجه إلى إحداها, وفتح الصنبور، ثم ملأ كفه ببضع قطرات من الماء، و اتجة ثانية للجثة، وصب تلك القطرات على كف يديها .. لدهشتهم تصاعد بخار رمادى من الذراع؛ كأنما تتفاعل تلك المياه مع جلدها .. هنا تراجع الدكتور محمد فى فزع , فغطى الجثة بسرعة، وهو يقول بلهجة خائفة لم يسمعوها منه من قبل :

-إن هذا ماكنت أخشاه.. رحماك يا إلهى!..

قالها، ثم صاح بهما ،وهو يهرول مندفعاً للخارج:

-دعونا نخرج من هذا المكان بسرعة.. هيا تحركوا .

هرول للخارخ فأسرعا خلفه يتبعونه بذعر ،وهم لايفهمون مايعنيه ،وهتف الدكتور مصطفى به:

-ماذا اكتشفت يادكتور محمد ؟ ولماذا تهرول هكذا ؟.

كانوا قد تجاوزوا باب المشرحة فى تلك اللحظة ,دون أن يهتم أحدهم بإغلاقها ,ولاحظوا وجه الدكتور محمد المحتقن ..وسمعوه يردد بذعر:

-لقد عبثتم بشيء خطير للغاية .. فحتى الشياطين تخشى ما تواجهونه .. يالكم من تعساء ..بل يالنا جميعاً من تعساء.

تصاعد الجزع فى أعماقهم ،وزادت كلماته من توترهم، فقال الدكتور محمود ،وهو يلهث كى يلحقه:

-ماذا هناك يادكتور محمد.. توقف من فضلك لثانية ،وأخبرنا ماهذا الذى تقوله ..لقد أفزعتنا .

كانوا قد ابتعدوا عن المشرحة وتجاوزا مبناها كله وصاروا فى فناء الكلية الأن، فتوقف الدكتور محمد في مكانه، والتفت إليهم قبل أن يقول بصوت غريب, وعيون جاحظة:
-إنها أحد القدماء..أحد الكيانات القديمة تحديداً..ألم تدركوا هذا؟ .. إنها شر حقيقى لاقبل لأحد به على الإطلاق.. إن هلاكنا هذه المرة مؤكداً .. هل أدركتم لماذا ذعرت ؟..
كانت كلماته مخيفة صاعقة ..
قالها وعاد لخطواته السريعة متجها للخارج ..
وأسرعوا خلفه واجمين ..

(45)

اشتعلت عقولهم بالتفكير ،وشابت نفوسهم الكثير من المشاعر المتشابكة مابين الرهبة والخوف ؛مما قد يحدث لهم من خطر، وما بين الحيرة الممتزجة بالإثارة لما رأوه منذ قليل،وما أخبرهم به الدكتور محمد, فجلسوا فى السيارة واجميين طوال طريق عودتهم مرة أخرى إلى فيلا الدكتور محمد بالمقطم .. وراح الدكتور مصطفى يقودها بشرود, حتى كاد أن يصطدم بها بالرصيف غير مرة.

أخبرهم الدكتور محمد أنه سيفسر لهم الأمر بالفيلا, إلا أن فضولهم اشتعل وتأجج .. وبالكاد كتموا بداخلهم أسئلتهم.

ماهذه الكيانات القديمة التى قالها لهم؟.. وما ماهيتها؟.. ولماذا يخشاها الدكتور محمد هكذا ..

إن أحداً منهم لم يسمع عنها شيئاً من قبل..أتكون خلقاً كالشياطين والجان ،أم تكون شيئاً آخر لا يتخيلونه..

ودوا لو يحدثهم الدكتور محمد، ويخبرهم بأمرها الآن, قتلاً لفضولهم ، وتهدئة لأذهانهم المتوقدة .. لكنه استمر فى صمته، فتمنوا لو يعلمون مايدور بعقله الآن , لكن ملامحه الجامدة

حجبت عنهم ما يدور بخلده؛ فصمتوا ،ولم يعد أمامهم إلا أن ينتظروا وصولهم لفيلته ؛كى يبوح لهم بما يعرفه كما وعدهم..

ظل الدكتور محمد صامتاً فى وجوم دون رغبة حقيقة فى الحديث ..لو يعلم أن هذا ما يواجهه فى البداية ما اشترك فى الأمر أبداً ..لقد شاهد الكثير ,وتعلم الكثير فى حياته..وتعلم درساً مهماً للغاية..

هناك أشياء فى هذا العالم إياك أن تعبث معها ،أو تقربها ..فالعبث معها قد يساوى ماهو أكثر من حياتك نفسها .. وهاهو قد تورط فى أبشع تلك الأشياء الخطيرة، ولم يعد أمامه إلا أن يدعو الله أن يرحمهم جميعاً .

وصلوا الفيلا فدخلوها واجمين ,واتجهوا مباشرة إلى الصالون؛ حيث جلس الدكتور محمود والدكتور مصطفى ..أما الدكتور محمد فقد اتجه إلى المكتبة, قبل أن يعود بمجلد جلدى ضخم قديم ..وضعه أمامهم على طاولة خشبية تتوسطهم ..لاحظوا أنه مكتوب بخط اليد بلغة خمنوا أنها لابد أن تكون اللاتينية .. قرءوا العنوان المدون عليه فلم يفهموا شيئاً ..

Pluralitas ad senem

Historiasive maledictio

التفت الدكتور مصطفى إلى الدكتور محمد، وأشار للعنوان وقال:

-ماالذى يعنيه هذا ؟!...

نطق الدكتور محمد الكلمات المكتوبة، ثم ترجمها قائلاً:

-إنها تعنى الكيانات القديمة ..تاريخ لعنتهم ..إن هذا هو العنوان الأصلى لهذا الكتاب..لكنه اشتهر فيما بعد ب(كتاب اللعنات) .

تأمل الدكتور مصطفى الكتاب البنى المدبوغ البادى الأصالة والقدم بإعجاب ،وقال :

-أعتقد أنه نسخة أصلية ؟.

-هذا صحيح ..إنه نسخة أصلية بالفعل.. بل ولايوجد فى العالم أجمع إلا نسخة أخرى غير هذه ..لكن لا أحد يدرى بالتحديد أين تكون النسخه الأخرى تلك..

وصمت للحظة ليتركهم ، وتأملاتهم فى الكتاب ،ثم أكمل :

-لقد كلفنى هذا الكتاب ثروة حتى استطعت أن أجلبه إلى هنا .. إنه كتاب خطير للغاية ،وهناك من قد يفعل أى شيء للحصول عليه ..

قالها, وابتسم ،وهو يلاحظ القطة التى غادرت الغرفة ما إن أخرج الكتاب من مكمنه، وسمع الدكتور محمود يقول له :

-ولماذا تحتفظ به مادام خطيراً، وما دام هناك من قد يتعقبه.

-لأننى لا أقدر على التخلص منه ..فما به يستحق أن أجازف باقتنائه .. وأيضا لا أستطيع أن أئتمن عليه أحداً ما لأهبه إياه..هذا كتاب لا يستطيع المرء أن يتخلص منه ببساطة .

ثم تراجع على كرسيه، والتقط غليونه من فوق المنضدة المجاورة لمقعده، وقال:

-إن لهذا الكتاب قصة مثيرة ،وكذلك حصلت عليه بقصة مثيرة أخرى.. لقد كان دوماً كتاب اللعنات، والدم بالفعل.

غمغم الدكتور مصطفى ،وعيناه تنتقل بين الدكتور محمد وبين الكتاب:

-وهل هو كتاب للسحر مثلاً ؟..أم أنه يحتوى على قوىً خفية ما ؟

- لاهذا ولاذاك على الإطلاق؛ فبالرغم من أنه يحوى الكثير من الطقوس السحرية؛ فإنه لا يختص بالسحر أبداً.. إنه كتاب عنهم.. كتاب عن القدماء!.

شعروا بالدهشة من لهجته الغامضة؛ فنظروا إليه بترقب ،فأكمل بعد أن أشعل غليونه ونفث من فمه بعض دخانه:

-إن عمر هذا الكتاب كبير للغاية ، فقد وُضِع فى القرن السادس الميلادى,كتبه راهب رومانى يدعى "ارتيماتسوس كالاميتاسيس.. يقولون إن هذا الراهب كان معنياً بكائنات الظلام والشياطين.. ويبدو أنه كان أحد القليلين الذين تعاملوا مع الكيانات القديمة ..

قام هذا الراهب بكتابة أربع نسخ من الكتاب بخط يده ,لكنها اختفت جميعاً فور كتابتها.. بل ووجدوا الراهب نفسه بعد أن فرغ من كتابتها مصلوباً محروقاً ومشوهاً فوق أحد أبراج كنيسته التى عاش فيها, الغريب أن الراهب بالرغم من إصاباته المميتة ظل حيّاً بعدها لأيام يغالب آلاماً لا حد لها, ويعانى عذابا لا يحتمله أى مخلوق, دون أن يقدر أحد على نجدته, إلى أن مات فالتهمته الجوارح.. يبدو أن موته هكذا كان عقابا شنيعا له عن تدوينه لهذا الكتاب.

لم يعلم أحد من فعل هذا به.. وكيف رفعه هكذا فوق البرج العالى فى موضع من المستحيل أن يصل إليه أحد..

اختفى الكتاب بعدها تماما ،ومنع الرهبان محاولة البحث عنه ،أو تداوله لما زعموه عن حياة ذلك الراهب الذى كتبه ,والذى اتهم سراً بممارسة السحر والهرطقة، والاتصال مع الشياطين ..

مع الوقت نسى الكثيرون الكتاب ,حتى عدّه البعض من الأساطير والاختلاقات.. لكن كان هناك دوما من علم بأمره وحازه طوال الوقت.. إن بعضهم حتى الأن مازال يعلم بأمره ،ولابد أنه يبحث عنه الآن محموماً.

شعر الدكتور مصطفى ببعض المبالغة فى تلك القصة ؛فقال معترضاً:

ـأعتقد أن هناك بعض المبالغات فى أهمية هذا الكتاب، أو ظروف نشأته .. بالطبع لا أتهمك يادكتور محمد باختلاق ماذكرته ..لكننى أعلم أن العصر الذى كتب فيه الكتاب كان مليئاً بالخرافات ،والاتهامات الباطلة ، وكان أشهرها اتهام أى أحد ما مختلفا أو غريبا بالهرطقة ،وممارسة السحر بل وقتله من أجل هذا.

أجابه الدكتور محمد بثقة :

ـلكن هذا الكتاب مختلف بحق ..لقد قرأته مراراً، وأجزم أنه بعيد كل البعد عن الاختلاق والتزييف..

ـوكيف وصل إليك الكتاب إذاً مادام قد إختفى لقرون كما تقول؟.

سأله الدكتور محمود ,فأغمض عينيه كأنما يتذكر، وقال:

-لقد علمت وجوده للمرة الأولى من خلال أحد أستاذة علوم ما وراء الطبيعة الروس ..يبدو أنه قد توصل بوسيلة ما إلى معرفة مكان إحدى نسخه فى أحد الأديرة المجهورة" بسيبريا"؛ فاحتال حتى يحصل عليه , كنت أدرس فى ذلك الوقت بموسكو ..وفوجئت به ذات ليلة فى مسكنى , ومعه الكتاب ..

كان فزعاً مضطرباً، وأخبرنى باقتضاب أن أحتفظ به ،وأن أخفيه تماما عن الأعين ،وألّا أخبر أى مخلوق عنه ..طلب منى كذلك أن أعود به إلى مصر فى أقرب وقت ممكن مؤكداً أنه سوف يستعيده منى حينها بوسيلة ما لو لم يصلوا إليه ..قالها وانصرف فى عجالة دون أن يفهمنى من هم الذين يطاردونه ومما يخاف بالضبط.. بالطبع شعرت أنه مطارد وخشيت أن يكون قد تورط في جريمة ما مع السلطات الروسية ,ولم أكن أرغب بالطبع فى التورط أنا الآخر معهم لأى سبب كان ,إن الروس ليسوا لطفاء أبدا مع من يختلف معهم لو عايشتهم .. إلا إننى بالرغم من هذا لم أملك أن أرفض الكتاب..

بعدها بيومين علمت أنهم قبضوا عليه، وأرسلوه إلى" سيبيريا" ,كما اعتاد الروس أن يفعلوا مع المعارضين ..شعرت بالخطر حينها وفكرت في التخلص من الكتاب كى لا يعثروا عليه معى لو عملوا منه أنه قد أعطاه لى ؛ لكننى تذكرت تحذيره لى من فقد الكتاب ووصيته بالحفاظ عليه, فقررت حينها العودة إلى مصر, ولا أخفى عليكم كيف استطعت بمعجزة تهريب هذا الكتاب من روسيا عبر الحدود، وكم دفعت من أجله..لكن بعدما قرأت هذا الكتاب وطالعت مابه أستطيع أن أجزم أنه يستحق ما عانيته فى جلبه إلى هنا.

تطلعا بدهشة للكتاب بلونه البنى المدبوغ ،وتحسساه بأيديهما؛ فشعرا بغرابة الورق المصنوع منه ,فقال الدكتور مصطفى وهو يتحسسه مرة أخرى:

-مما صنع ورق هذا الكتاب ؟ لا أظن أنه البردى, أو جلود الحيوانات.

غمغم الدكتور محمد بغموض:

-خمنا ؟.

تحسساه بتدقيق ،ولكنهما فشلا فى التخمين ..فى النهاية قال الدكتور محمد بهدوء:

- إنه مصنوع من الجلد البشرى ..جلد الموتى تحديداً ,ظننت هذا واضحاً لكم وأنتم تتعاملون مع الجثث طوال الوقت.. يدهشنى أنكم لم تتعرفوه في البداية.

أبعدا يديهما عنه بتقزز, كالملسوعين على الفور, وقد ارتسمت على وجوهم نظرة استنكار ونفور, وهتف الدكتور محمود بتأفف وهو يتأمل يده التى لامست الكتاب؛ كأنما خشى أن يلتصق شيء ما بها:

-ياللبشاعه.. لا أدرى كيف تقبل أن تقتنى شيئاً مثل هذا ..هذا شئ مبالغ فيه حقاً!...

أجابه الدكتور محمد ببساطة:

-ألا تعلم يادكتور أن كل كتب السحر المكتوبة باللاتينية فى تلك العصور قد كتبت على ورق من الجلد البشرى ..لقد إعتقدوا دوما

أن كتابة السحر على جلد الموتى يكسب الطقوس قوة لا حد لها ..فى الماضي كان كافياً أن تحوز كتاب كهذا ؛لأن تُعدم بأبشع وسيلة ممكنة دون محاكمة حقيقة .

-أظن إننى قرأت شيئاً كهذا من قبل ..الأمر يتعلق بمحاكم التفتيش على ما أتذكر .

قالها الدكتور محمود ،وهو ينظر إلى الكتاب المفتوح ,فأومأ الدكتور محمد موافقاً، وعقّب قائلاً :

-هذا صحيح ..لقد حاربت الكنيسة فى ذلك الوقت كل شيء .. العلم والفنون ،وبالطبع السحر بتهمة الهرطقة ،ومحاربة الكنيسة ،والاتصال بالشياطين ..لقد مات الالاف من أجل هذا بالحق حينا والباطل أحيانا, إن هذا أحد أسباب تسمية تلك العصور بالعصور المظلمة .

وفتح الكتاب بعدها ،وأخذ يبحث بداخله عن صفحة ما ,وقال :

-دعونا من هذا الآن ...فلقد جلبته ؛لأشرح لكم ما نواجهه.

وقلب صفحات الكتاب ثم استقر على صفحتين من الكتاب .. فى الشمال كانت هناك الكتابة اللاتينية ،وفى اليمين كان هناك رسم بخطوط سوداء غير ملونة تمثل رجلاً طويلاً يقف فوق تبة مرتفعة قليلاً ومبتسماً ابتسامة مخيفة, وفى يده اليسرى امتدت سلاسل معدنية تنتهى بقيود لكائنات مخيفة مربوطة بحلقات معدنية حول أعناقها ,كأطواق الكلاب التى نستعملها الآن .

بدا الفزع على هذه الكائنات المقيدة ،وأبصارها شاخصة بفزع نحو الرجل الذى يقيدها .. كان الكائن الأول يمثل رجلاً منحنى

الظهر نحيل الجسد ,وكان رأسه رأس جدى ينتهي بلحية طويلة، وعلى جانبى رأسه قرنان غير كاملى الاستدارة, بجواره مباشرة قبع مخلوق آخر بملامح بشرية، لكن وجهه كان كبيراً مقارنة بجسمه بعض الشيء، وكان فمه مفتوح عن آخره، واسعاً مظلما كالمغارات ،وقد سالت بعض الدماء من جانب فمه.. أما الكائن الثالث، فكان في هيئة امرأة طويلة, بشعر طويل للغاية، ولكن مقلتيها كانتا سوداوين تماماً بلا ألوان أخرى، وفى آخر اللوحة كان هناك رجل ضئيل للغاية منحنٍ حول نفسه فى وضع جنينى برعب .

صورة مخيفة للغاية ،ودقيقة جدا, رسمتها أنامل بارعة ،نجحت فى أن تنقل إليهم شعوراً مبهماً بالفزع ,وقال الدكتور محمد ،وهو يشير إليها شارحاً :

-هكذا تخيلوا القدماء أو الكيانات القديمة فيما مضى .. لقد ظنوهم السادة الحقيقيين على هذا الكوكب ..فكما ترون فى هذه الصورة المخيفة, فإن ذلك الرجل المنتصب ذو النظرة الظافرة الصارمة هو أحد القدماء ..لم يكن مسخاً أو حيواناً أو حتى شيطاناً.. فقط كان شكله بشرياً تماماً، وقد راح يتحكم فى الكائنات الأخرى ،ويذلها.

إن الرجل الذى ترونه برأس التيس هو الشيطان كما تخيلوه , وتلك المرأة هى الجان أو الساحرات كما إعتقدوا.. وذلك الرجل الضئيل هو الإنسان الحقيقى الضعيف ..وأخيراً فذلك الكائن ذو الرأس الكبيرة يمثل الوحوش , أو ربما رمزوا به للغيلان مثلا ..المهم أنهم هنا يريدون أن يخبرونا أن القدماء ذوى قوة مريعة ،وأن الكل يخشاهم ,وأنهم هم السادة الحقيقون على ظهر هذا الكوكب.

إعتدل بعدها على كرسيه ثم التفت إليهما ،وأخذ نفساً عميقاً من غليونه قبل أن يكمل، وهو يترك الكتاب على الطاولة أمامة مفتوحاً كما هو :

-في الواقع إن القدماء أو الكيانات القديمة ظلوا دوماً مثار اهتمام الكثيرين طوال الوقت ,ربما لغموضهم ،وربما لكثرة الأساطير المنسوجة حولها .. البعض يتحدث عن أنهم أول الكائنات خلقها الله لتعمر الأرض؛ لكنها كانت قاسيةً كافرةً عصت الله، وقامت بأعمال شريرة للغاية للدرجة التى استوجبت أن يرسل الله عليهم ملائكتة لتدميرهم وتشييتهم ..

طبعاً هناك بعض الإشارات لشيء مثل هذا فى الكتب المقدسة؛ فقد تم ذكرها فى القرآن والتوراة, وإن لم تحدد اسمها ..البعض الآخر أشار إلى أنها كانت إحدى التفسيرات لنشوء فكرة الآلهة الوثنية ..هل كانت الآلهة الوثنية كائنات قديمة أبهرت البشر ،وأفزعتهم بقوتها وقدراتها المخيفة مقارنةً بضعف البشر , فعبدها البشر اتقاءً لشرها ،ولنيل رضاها ؟.. شيء محتمل..

هنا قال الدكتور محمود مقاطعاً ومعترضا على الفكرة:

-وهل يعبدهم البشر فقط لأنهم يخشونهم ويخافون شرورهم ؟.. ألا ترى أن هذا الحديث يحوي مبالغة بعض الشئ ؟

-لقد جافيت الحقيقة يادكتور محمود هذه المرة ..لقد عبد البشر دوماً كل شيء يخشونه أو يجهلونه ..عبدوا السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال والحجارة والأصنام والحيوانات ؛كما عبدوا ملوكهم ،وكهنتهم أحيانا .. فليس غريباً أن يعبدوا هؤلاء، وقد رأوا قوتهم ..

تفهّم الدكتور محمود الأمر، واكتفى بهز رأسه، فأكمل الدكتور محمد:

-بالطبع كانت الكيانات القديمة ،أو القدماء مثار اهتمام الباحثين فى قوى السحر والخوارق دوماً على مر العصور ..البعض تحدث عن كتاب فرعوني قديم يتحدث عنها بصورة تفصيلية .. لكن أين هذا الكتاب، ولماذ اختفى وما اسمه ؟ .. لا أحد يملك الحقيقة..

هتف الدكتور مصطفى بحذر:

- ربما كانوا يقصدون كتاب "أينوخ "..لقد سمعت عن هذا الكتاب من قبل..

-ربما ..أن"أينوخ "هو كتاب سحر شهير ترجمه الساحر البريطاني الأشهر (دانييل دي) .. الكتاب منسوب للفراعنة وكهنتهم ,ومن المفاهيم الأساسيه فيه, أن هناك عشرين شيطاناً جاءوا الأرض ،وتزوجوا بنات البشر فأنجبوا ذرية مخيفةً .. يقولون إن أفراد هذه الذرية كانوا متقدمين علمياً جدا عن الآخرين، وقد صنعوا أسلحةً متقدمةً متقنةً، ومجوهراتٍ عجيبةً, كما أنهم كانوا يقتاتون على الدم.. هل كان هؤلاء الشياطين العشرين هم القدماء .. من يدرى؟..

فى القرون الوسطى شاع ذكرهم فى بعض كتب السحر اللاتينة، ولكن كالعادة كانت كلها إشارات مقتضبة لا تغنى ولا تثمن من جوع .. إلى أن نأتى إلى أكثر من تحدث عنها، وأكثر من كتب عنها .. المفارقة هنا أنه كان عربيا هذه المرة .. كان يدعى عبدالله الحظرد.. زعموا أنه كان شاعراً يمنياً قد اشتغل قديما بالسحر وتعلق بالقوى الخفية.. بالمناسبة هل سمعتم عنه من قبل؟..

تطلعا إليه بدهشة, وتبادلا النظرات ..ثم هزا رأسيهما نفياً ..فأكمل :

-المفترض أنه شاعر عربى ولد فى صنعاء ...لقبه البعض بالشاعر المجنون لعجب أفعاله وغرابتها..تعلم السحر ،وادعى إنه اتصل بالكائنات القديمة, ليؤلف بعدها كتاباً شنيعاً عن الكيانات القديمة مؤكداً وجودها , واصفاً بدقة كيفية استحضارها والاتصال بها .. الكتاب اسمه" العزيف", وحين تمت ترجمته إلى اللاتينية صار اسمه" نيكرونوميكون "..

بالطبع وقبل أن أتحدث عن الكتاب يجب أن تعلموا أننى لم أحصل على أى إفادة عن حقيقة هذا الشاعر العربى حين حاولت أن أتتبع وجوده فى كتب التراث العربى ,فلاذكر له على الإطلاق فى كتب التراث العربى ,ولا آثار شعرية باسمه .. إنه فى التراث العربى كأنه العدم.. لم يوجد قط ..

الغريب أن أول من ذكر هذا الشاعر كان كاتب الرعب الأمريكى "لافكرافت"..حيث ذكر كتابه فى الكثير من قصصة.. هل كان هذا الشاعر من بنات خيال ذلك الكاتب الأمريكى الموهوب ..مرة أخرى نحن نلعب فى منطقة لا شيء فيها يقينى.. فكل شيء يحتمل طرفى الحقيقة.

وصمت مرة أخرى .. كانت القهوة أمامه، وقد قدمتها إليهم مديرة المنزل, فارتشف رشفةً منها ،وأعاد الغليون لفمه، وسحب نفساً طويلا ثم أطلقه ببطء, وأكمل :

-هذا عن الكاتب فماذا عن الكتاب .. إن اسمه فى اللاتينية يعنى أشياء كثيرة ,مثل كتاب الموتى ..كتاب أسماء الموتى ..كتاب تصنيف الموتى .. أسماء مخيفة كما ترون ..ي قولون إن الكتاب

تبلغ عدد صفحاتة حوالى 900 صفحة فى سبعة أجزاء .. طبعاً التسمية العربية الأصلية "العزيف " تعنى فى العربية الأصوات التي تصدر ليلاً من الحشرات، والتي كان يعتقد العرب أنها أصوات الجن والشياطين.

تمت ترجمة الكتاب إلى الإغريقية بواسطة" ثيودور فيلاتاس", وأخذت اسم" نيكرونوميكون" من وقتها.. تم إحراق هذه النسخه (بعد محاولات من قبل البعض لعمل أشياء مريعة) بواسطة البطريك "مايكل "الأول في عام 1050م.

ويذكر "لافكرافت "أن النسخة اللاتينية ظهرت مجدداً في القرن الخامس عشر في ألمانيا ،والقرن السابع عشر في إسبانيا ،وظهرت النسخة الإغريقية في القرن السادس عشر في إيطاليا. ويعتقد أن الساحر "جون دي" قام بترجمة الكتاب إلى الإنكليزية إلا أن "لافكرافت "قال أن الكتاب لم يطبع أبداً. ويزعم البعض أن هناك نسخة وحيدة متبقية في مكتبة الفاتيكان.

أما النسخة العربية فقد اختفت تماماً من الوجود في الوقت الذي مُنعت فيه النسخة الإغريقية من الكتاب. حيث بحث عنه"إدريس شاه" في جميع المكتبات العربية والهندية، ولم يجد له أثراً. ويذكر" لافكرافت "أن النسخة العربية من الكتاب ظهرت في القرن العشرين "بسان فرانسيسكو" إلا أنها أُحرقت فيما بعد. يقال كذلك بأن الكتاب ترجم إلى العبرية على الأرجح في عام 1664م بواسطة "ناثان غزة" وسُمي" بسيفر هاشاري حادات" أي كتاب بوابات المعرفة.

والكتاب على عكس مايعتقد ليس بكتاب سحر بل تأريخ للكيانات, والحضارات القديمة ،والعديد من الأحداث التى تم التلميح لها فى القرآن، و فى سفر التكوين ،وكتاب "أينوخ"

الفرعونى ،وبعض الأساطير القديمة ..كلها تتحدث عن الكائنات القديمة التى سكنت الأرض قبل البشر ..وأنها تعيش وراء هذا العالم ..وأنه يمكن الاتصال بها ،وأنها تسعى دوماً للعودة إلى الأرض لاستعادتها من البشر بعد التخلص منهم.

أيضاً يذكر الكتاب كيف أن هذه الكائنات اتخذت هيئة البشر بل، وأيضا تزوج بعضها من البشر ؛ليتكاثروا لأن أعدادهم قليلة للغاية .

كل هذا حتى الآن كلام مرسل ..حتى الكلام الذى قيل عن قيام الساحر البريطانى الشيطانى "كروالى" باقتباس الكثير من كتابه البشع فى السحر المسمى بالقانون من ترجمة دى لكتاب "النيكرونوميكون".

صمت مرةً أخرى وابتلع ريقه , وهو يترقب تأثيره على نفوسهما قبل أن يقول مبتسماً، وهو يشير إلى الكتاب المفتوح أمامهم :

- بالطبع يتبقى هذا الكتاب الذى يتحدث عنهم بصورة أكثر تفصيلياً ..هيئتهم ..الاتصال بهم ..أعمارهم ..بل وكيفية مواجهتهم ..من الغريب أن أن شهرته أقل بكثير من عزيف ,بالرغم من الفرق الجلى فى الكتابين ..إن عزيف كتاب شهرته أكبر بكثير من قيمته الحقيقية ,وهذا كتاب قيم بحق لكن بلاشهرة..فى الواقع إن هذا أمر رائع ,فلايجب أبدا أن يعلم الكثيون أو يتحدثوا عن هذا الكتاب.

كانت أنفاسهم محبوسة من الإثارة ..وهم يستمعون إلى كم المعلومات الذى ينثال على آذانهم .. هناك أشياء أخرى فى العالم يجهلونها بشدة.. ربما كان هذا ؛لأنهم لم يتخيلوا وجودها قط ..

كيف ومتى عرف هذا الرجل كل هذه المعلومات الغزيرة، ومن أين استقاها؟..

وغمغم الدكتور مصطفى بصوت مبحوح من الإثارة :

-لكنك لم تخبرنا كيف عرفت أن هذه الجثة لأحد هذه الكيانات القديمة كما تسميهم ؟.

-هناك أشياء تميزهم .. إن هيئتهم بشرية تماماً ..أعمارهم طويلة للغاية حتى إنها تتجاوز آلاف السنين.. ما أمامكم ليست جثة ميتة .. بل إنها أحدهم ,لكنها فى سبات عميق.. شيء يشبه البيات الشتوى الذى تمارسه بعض الحيوانات ..لكنه هنا قد يصل لعدة قرون ..

لو لاحظتم فالجثة لم تتحلل على الإطلاق ،ولم يظهر عليها أى عامل من عوامل التحلل .. إنها تبدو كفتاة نائمة لا أكثر..ثم إنكم قد حقنتموها بالفورمالين لحفظها ..وكما رأيتم، فإن جسدها قد لفظ هذا الفورماليين من خلال مسامه,حتى أن عروقها مازال بها دماء كما رأيتم حين سحبت بعضه بالمحقن ..

هل لاحظ أحدكم الرائحة الزكية المنبعثة منها ..إنها من مميزاتهم ..أنهم فى غاية الرقى ،وليسوا متوحشين بدائين كما قد يتوهم البعض.. كما أن أجسادهم فى حاله الثبات تطرد المياه عنها ،وتبخره كى يبقى الجلد جافاً دائماً ..لقد رأيتم كيف تصاعد البخار منها ؛حين وضعت قطرات الماء عليها.

-هل تعنى أنها حية، وتدرى بما يحدث حولها.

قالها الدكتور مصطفى بحيرة ,فأجابه الدكتور محمد:

-ليس بصورة كاملة.. إنها مازالت فى مرحلة الثبات.. شئ كالنوم أو الخدر عندنا مثلا.

-ولماذا لم تفق بعد، وتعلن عن نفسها إذا.. هل هي بانتظار شئ ما؟.

-إنها مازالت تحت تأثير بياتها الطويل هذا ..إنه ليس نومنا الذي نألفه, والذي يكفي فيه مؤثر ما, لتستيقظ منه .. إنه طقس سحرى قوى , ولابد من طقس مقابل له كى تفيق ..لكنها بالرغم من ذلك ليست معزولة بالكامل عن العالم الذى يحيط بها ..فهى تتأثر بما يحدث حولها بصورة ما .. وحين الخطر هى قادرة على حماية نفسها بصورة تفوق تخيلكم ..إن مايحدث لها الآن يشبه حلم تحلمه ,ولكن نظراً لقواها الخارقة , فالكثير مما تحلم به تحققه فى الواقع ..

هل قتلت فى حلمها تلك الطالبة ..ربما هذا ماحدث ..وهل قتلت الطبيب الشاب كذلك؟.. احتمال مؤكد .. فهو كما ذكرتم كان يهم بتشريح جثتها، وكان عليها حماية نفسها منه ..لماذا تراءت لعمال المشرحة .. ربما تتسلى بارهابهم أو تحذرهم منها .. لاحظوا أن كل هذا الرعب الذى تعيشونه، وهى لم تفق بعد من سباتها هذا؛ فماذا ستفعل بكم لو كانت يقظة واعية ؟.. إنني أترك هذا لخيالكم! .

كان تفسيراً مخيفاً لما يحدث .. وغمغم الدكتور محمود ،وهو يزدرد لعابه بصعوبة :

-هل تعنى أن هناك احتمال لأن تفيق من سباتها كما تقول؟

-إنها فى سبيلها لهذا بالفعل ..لقد بدأت منذ البداية فى ممارسة طقوس العودة ..إن القدماء اقوياء للغاية وليسوا بحاجة لمن يقوم بعملهم بدلا منهم ..إنها من قامت بطقس البيات الطويل وهى أيضا من تقوم بإعداد العدة لطقس العودة.

وشعر الدكتور محمود بجفاف فى حلقه, من هول الفكرة المفزعة , فقال وهو يبتلع ريقه بصعوبة :

-ماذا تعنى أنها تمارس طقوس العودة؟.. إن كلماتك تثير الفزع حقاً فى نفسى.

-وهل يمكننى أن ألومك على فزعك؟! .. ذلك الطقس يسير على قدم وساق منذ البداية ..ألم تلحظ حين قمت يادكتور محمود بتشريح جثتى الفتاة والطبيب أنها خالية من الدماء ..إنها بحاجة لدم بشرى .. البعض يتحدث على دماء بشرية لثلاثة بالغين، والبعض يتحدث عن أكثر , لقد ذكر كتاب اللعنات هذا الأمر وفصله كثيرا..

-ولماذا تحتاج إلى كل هذه الدماء؟.. هل تتغذى عليها مثلاً؟.

سأل الدكتور محمود ,فصمت للحظة ثم أجاب ببطء:

-ربما.. وربما كانت تحتاجها لتجديد دمائها مثلاً .. لقد حصلت بالفعل على دماء بشريين ،ولن يكون عسيراً عليها أن تحصل على دماء ثالث أو أكثر ..أيضاً هناك الجثث المحلقة حول جسدها..لو لاحظتم كانت الجثث ترسم أضلاعاً خفية لمربع ..هنا هى بحاجة إلى جثتين أخريتين ليكونوا ستة .. وما يستحق الرعب من هذا, هو من سوف تختاره، وتقتله لتكمل طقوس عودتها .. إن كل واحد احتك بها ،أو آذى جسدها هو ضحية

محتملة لها ..وكلنا كما ترون قد فعل ..ولهذا قد تختار أحدنا ..فلا أحد يعلم مايجول برأسها ، وفيما تفكر.

وقال الدكتور مصطفى هذه المرة بصوت مخنوق:

-ولماذا يجب أن تكون الجثث ست ..بل ولماذا تلك الجثث فى الأساس .. لا أعتقد أنها ستتغذى عليهم مثلاً .

ضحك الدكتور محمد ،وأجاب:

-الطقوس تتطلب جثثا ستةً .. كل واحدة منها في رأس من رءوس نجمة سداسية .. نجمة داود لو شئتم الدقة ..أعتقد أن النجمة السداسية, ولاأدري في الواقع لماذا نجمة داود وليس النجمة الخامسية التى تملك قوى سحرية ما, والتي يزعم هذا كل من عمل بالسحر والخوارق.. أما لماذا الجثث فلان الطقوس لا يشهدها الأحياء, لابد من ضحايا وقرابين كى تتم الطقوس بصورة سليمة.

وغمرهم الصمت للحظة قبل أن يقول ثانيةً:

-بقي شيء أخير.. يجب أن تمر عليها دورة قمرية كاملة ؛كى تتم الطقوس, ولو كانت المواعيد التى أخبرتمونى بها دقيقة ,فهذا يعنى أن الطقوس ستكتمل بعد غد مساءً ..حينها سوف تفيق ولا أريد فى الواقع أن أتخيل ماسيحدث بعدها معنا ؟ .

رمقوه بوجوم ويأس،وهم يتخيلون الفوضى التى سوف تحدث لو استيقظت هذه الفتاة من سباتها ..وقال الدكتور مصطفى بصوت مرتجف:

-لكن ألا يمكن إيقاف هذه الطقوس ،أو تعطيلها مثلا، أو حتى القضاء على الجثة نفسها بوسيلة ما.. يمكننا أن نحرقها مثلاً,أو نذيبها فى الحمض.

عدّل الدكتور محمد من وضع غليونه ، وثبّت نظره على عينيه وأجاب بهدوء:

-يبدو أنك ياسيدى لم تعى ماذكرته عنهم ..إنهم مختلفون تماماً عنا ، ولايمكن القضاء على أحدهم بطرقنا المعهودة, نحن كبشر أضعفٍ من أن نقوم بشيء كهذا ..لاحظ أنهم يمتلكون قوى خارقةً حتى بالنسبة للشياطين ، وكائنات الظلام الأخرى ..كما أن قدراتهم هائلة فى الحفاظ على أنفسهم من أى سوء. لا تنتظر أن تؤثر النيران أو الحمض على اجسادهم أو حتى أى شئ أرضى آخر .

وازداد إحباط الدكتور مصطفى ،فتمتم بعجز:

-هذا يعنى أنه لا أمل إذاً ؟

-أنا لم أقل هذا ..إننى أفكر فى طقس مضاد قد ذُكر بكتاب اللعنات , قد يعطِّل طقس العودة هذا .. لكننى لست متيقناً إن كان هذا الطقس حقيقى أم أنه مجرد هراء ..لسوء حظنا أن الكتاب لم يذكر إن كان أحد قد قام من قبل بهذه الطقوسٍ أم لا .. لهذا فليس أمامنا إلا أن نجرب ،ونتحمل النتيجة كاملةً , حينها ربما ننجح ،أو نهلك لو فشلنا..

ثم أغلق الكتاب ،وتنهد قائلاً بصوت غريب مرتفع:

-والقرار لكم الآن ،وقد أخبرتكم ما أعلمه، ومانواجهه ..فماذا أنتم فاعلون؟

امتقعت وجوههما، وتبادلا النظرات الحائرة ,دون إجابة.

(46)

فى نفس الوقت كانت هناك أشياء مثيرة تجرى فى المقطم

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق.

إنه بيت الشيخ عبدالعاطى ..

ولم يكن الرجل بمفرده فى المنزل .. كان قد أقنع إحدى زبائنه التى جاءته بضع مرات ؛كى يجد لها حل ما لزوجها الذى هجرها وطلقها ..ليتزوج آخرى, أن تقضى ليلتها ببيته معه ..

كان الرجل قذراً, لا يتوانى عن فعل أى من الموبقات مادامت سترضيه, وترضي شهواته ..

فالرجل قد بدأ حياتة قواداً بشارع الهرم ..ليتحول بعد سجنه إلى لص.. ثم أطلق لحيته بعد أن خرج من السجن مرة أخرى وتحول لمهنة أخرى .. صار نصابا هذه المرة وقد عمل دجالاً.

سكن في مكان جديد مغيراً اسمه إلى الشيخ عبدالعاطى ,مقنعاً الجميع أنه ببركة الأولياء ,صار قادراً على تسخير ملوك الجان ,وأنه قادر بإذن الله على قضاء كافة الحوائج ،وحل كل المصائب.. كان قد تحول بسهولة من قواد إلى لص ،وأخيراً إلى نصاب ودجال ..لكنه ظلّ كما هو, لايتورع عن فعل أى من الموبقات ولايتناهى عنه ..

كانت المرأة البيضاء البدينة بانتظاره داخل حجرته وقد تخففت من الكثير مما تلبسه وإرتدت قميص نوم أحمر فاقع

لونه.. بينما كان هو بالخارج جالساً على بساط مفروش بالصالة ،وأمامه لوازم طقوسه التى يقوم بها فى كل مرة يكون لديه واجب منزلى؛ كما يحب أن يطلق على السيدات اللاتي يعاشرهن .

الطقوس المعتادة كانت قطعة أفيون مُرةً يضعها تحت لسانه، ويمتصها ببطء لتصفية دماغه ,كيلو من الكباب والكفتة أو دجاجة مشوية كاملة , لشحن طاقته .. وزجاجة بيرة لتنشيط دورتة الدموية .. وفى النهاية حجر من الشيشة الممزوجة بالحشيش.

كان جالساً يأكل بتأن، وهو يفكر فى اللحظات السعيدة القادمة.. ومن الداخل أتاه صوت المرأة رفيعاً رقيعاً ,مائعاً ومناديةً بشبق:

-ألن تات ياشيخ عبد العاطى ..لقد تأخرت يا رجل!..

أطلق ضحكةً خشنةً، وهو يرد:

-اصبرى على رزقك يا امرأه ,ولا تتعجلي.. إنها بضع دقائق فقط وسأتيك ؛ لأعلمك أسرار ملوك الجان كلها.

أجابتة بضحكة مائعة ؛ فابتسم برضا عن نفسه ..وأخذ يكمل طعامه .

تحركت عيناه نحو آخر الصالة فى منزله, فرأها تختفى فى الظل ,وجل قلبه للحظة ،وهو يتساءل مَنْ هذه , وكيف دخلت منزله ؟..

هل نسى أن يغلق الباب ؟..

بنعومة وتؤدة تقدمت نحوه ,ليكتشف بعد ثوانٍ بعد أن دخل وجهها دائرة الضوء أنه أمام امرأة فاتنة للغاية ..سبقها لأنفه عطر مثير أخآذ تفاعل مع الأفيون الذى امتص بعضه منذ قليل فى خلايا دماغه الرمادية, فاحتقن وجهه باهتياج، وابتسم ببلاهة, ولعابة يسيل ملوثاً جانبى فمه من الإثارة ..

لم يسأل نفسه بعدها كيف دخلت إليه ومن هي, ولا ما تريده ؟.. إنها فاتنة جذابة ، وفى منزله الآن بعد منتصف الليل..كان هذا يكفيه منها ليفكر فى أمور آخرى ..

ظلت الابتسامة البلهاء على وجهه ،وظلت الفاتنة تتطلع إليه بابتسامة مثيرة لعوب ،وقد صارت أمامه الآن ..وارتكنت على الحائط بذراعها ، وبدا أنها تتنظره أن يبادرها بالكلام.

طال الصمت، فقطعه قائلاً بصوت مبحوح من الإثارة:

-أنا الشيخ عبدالعاطى، لو كنت جئت من أجله .. كيف يمكننى أن أخدمك ؟.. اطلبى ماشئت فأمرك مجاب ..

أجابت بصوت مثير :

-لقد جئت من أجلك أنت ؟

شعر بالدماء الحارة تندفع إلى رأسه بشدة .. وبح صوته بشدة وهو يردد:

-وأنا فى الخدمة.. تعالى إلىّ.

لم ترد عليه، ولم تجب يده التى امتدت نحوها ,ومن الداخل جاءه صوت المرأة التى بالداخل, متسائلة بقلق وقد وصلت إلي مسامعها حديثه مع الفاتنة الغريبة :

-مع من تتحدث ياشيخ عبدالعاطى ...هل معك أحد بالشقة؟

شعر بالإزعاج ..ليس هذا وقته أبداً.. وقال مرتبكاً، وهو يتطلع إلي الحسناء التى أمامه؛ خشيةً أن تتركه؛ لأن هناك أخرى معه :

-إنها إحدى الزبائن ..وسوف أطردها حالاً .. لاتدعى هذا يزعجك أرجوك.

إلا أن الفاتنة قالت له فى غموض وإبتسامتها تتسع:

-لا داعى لهذا يا فتاى ,فأنت من ستأتى معى.

ومدت يدها إليه؛ فمد يده بلهفة ؛كي يلامس أناملها..لكنها قبضت فجأة على يديه بقوة فصرخ ألماً وفزعاً ..

وأظلمت الدنيا بعدها في عينيه للحظة ,قبل أن يعود الضوء إليها ثانية .. لكن هذه اللحظة بدّلت كل شيء..

لم يعد بداره ..ولم تعد هناك الفتاة ..كان معلقاً من قدميه فى الهواء ورأسه لأسفل ..وبالرغم من الظلام إلّا أن بعض خيوط ضوء القمر الفضية استطاعت اختراق النوافذ الزجاجية فرأى مذعوراً ما حوله.. كانت هناك أجسام ساكنة معلقة مثله فى الهواء ..

أغمض عينيه المحتقنة ،وعاد يفتحهما برعب ليرى إن كان يحلم .. لكنه لم يكن يحلم..كان كل شيء حقيقياً تماماً, وأدرك فجأة كنه الأجساد الساكنة المعلقة حوله .. إنها جثث بلاشك .. أخذ يصرخ بفزع ويصيح طلبا ًللنجدة, حتى أتاه صوتها مخيفاً من أحد الأركان المظلمة قائلةً بغضب:

-الآن قد حان وقت الحساب أيها الغبى ..هل تعتقد أنك بحجابك السخيف ،والبول القذر ستتخلص منى ..ما رأيك لو فعلت الأمر نفسه الآن معك..مارأيك لو جربت البول أنت الآخر؟..

هنا فوجئ بصراخه يُكتم فى حلقه..ووجد نفسه مرغماً على فتح فمه باتساعه .. وراح سائل لزج من مكان خفىّ يندفع إلى فمه مرغماً إياه على أن يبتلعه .. وأخذ يبتلعه رغماً عنه شاعراً بطعمه الحامضى، ورائحته الكريهة المثيرة للغثيان , وحين تعالت الرائحة أدرك أنه يبتلع بولاً بشريّاً..

حاول أن يغلق فمه، وأن يمتنع فلم يقدر. حاول أن يتحرك فلم يتمكن .. ظل يبتلع، ويبتلع المزيد شاعراً بالاختناق,حتى بدا السائل ينهمر نحو رئتيه, فكان الألم مريعاً وقد أزاح البول الهواء من مسكنه الدائم بالشعيبات الهوائية .

ومع آخر دفقةٍ من وعية ,وقبل أن يفقده للأبد, كانت أمامه تبتسم ساخرةً قائلة:

-هل أعجبك البول أيها الأحمق؟..

(47)

فى تمام الثالثة فجراً شعرت باتعة بصوت ما خارج حجرة نومها فوجلت , نهضت وهمست فى أذن زوجها النائم بجوارها محاولةً اختراق الظلام بعينيها وهى تهز جسده برفق..

-استيقظ يا متولى ..أشعر أن هناك أحد ما بالخارج.

انتبة على الفور لما تقوله ؛فجلس بجانبها يلهث ,وأخذ يصغى السمع قبل أن يقول بتوتر، وهو يدعك عينيه:

-إننى لاأسمع شيئاً.

-هناك من كان يسير بالخارج ..أنا متأكدة مما أقوله.

-ربما كان أحد الأولاد ..أو ربما يكون جرذاً يعبث فى مكان ما .

إلا أنها لم تشعر بالارتياح لتفسيراته ،فعادت تقول بإصرار:

-إننى أعرف خطوات أبنائى ..ليسوا هم من يتحرك بالخارج..

وبرجاء وخوف أكملت:

-اذهب أرجوك لترى من هناك ..ربما كان لصّاً وقد يؤذى الأولاد.

شعر بالخوف على أبنائه فنهض ..أمسك بهراوة خشبية يحتفظ بها أسفل الفراش لمثل هذه الظروف ,واندفع سائراً على أطراف أصابعهِ نحو باب الحجرة ..فتحه ثم خرج بتردد.. كان الصالة غارقةً في الظلام ،فتحسس بيده الحائط باحثاً عن مفتاح

الإضاءة وهو يحاول عبثاً اختراق الظلام بعينيه ..لم يعثر عليه فى مكانه المعتاد ..فمد يده موسعاً من دائرة بحثه , محاولاً الوصول إليه ..

-لن تجده !

دوى هذا الصوت العابث فى أذنه فجأة, فأفلتت صرخةً منه دون وعى..

بعدها حدث كل شيء سريعاً ..أخذت زوجته تصرخ برعب كما لم تصرخ من قبل حين سمعت صرخاته ..

فى نفس اللحظة امتدت يد باردة لتمسك بمعصمه بإحكام ,وشعر بقوة هائلة تسحبه إلى مكان بعيد .. مكان آخر

وعادت الإضاءة للشقة التى مازالت الزوجة تصرخ فيها ,موقظةً للمرة الثانية كل الجيران في منتصف الليل..

وظلت تصرخ بشدة, وتولول حين أدركت أن زوجها لم يعد بالشقة ..

لقد اختطفتة الجنية مرة أخرى ..راحت تطلم خديها،وتصرخ بيأس..

التف الجيران حولها بحيرة حقيقة، وشفقة ..وراحوا يبحثون عنه فى كل مكان .

لكنهم لم يعثروا عليه أبداً..

كان فى مكان آخر وبعيد ..كان فى الشرحة الأن معلقا وسط الجثث ..

حيث انتهى أمره الآن للأبد..

(48)

كان اليوم التالى هو الخميس ..

كان هذا هو يوم الأجازة بالكلية ..لهذا لم يذهب أحد إلى المشرحة، ولم يدرك أحد أن جثتين جديديتين قد أضيفتا إلى الجثث الموجودة هناك بالفعل ..لقد صاروا ستً الآن بخلاف جثة رومية, أو الكيان القديم بمعنى أدق .

فى اليوم السابق طلب الدكتور محمد شاهين من الدكتور مصطفى والدكتور محمود أن يقضيا ليلتهما معه بالفيلا .. فقد رأى أن هذا أكثر أماناً لهم جميعاً، ولأسرهم ،وهم حتماً لايرغبون فى إثارة فزعهم بأى أحداث غامضة , أو زيارات غير متوقعة من تلك الفتاة ..

لقد حدث هذا من قبل مع عمال المشرحة، وكانت زيارة غير محببة على الإطلاق..

كان متأكداً من أن الفتاة قد شعرت بهم .. وربما أدركت أنهم سيحاولون أن يمنعوها من إتمام طقس عودتها.. وكتاب اللعنات اللاتينى القديم الذى كتبه الراهب, يتحدث طويلاً عن المصير المظلم لمن يحاول هذا, لو أدرك أحد من القدماء بهذا.

لذا قرروا أن يقضوا هاتين الليلتين المتبقيتين سوياً.

جلس الدكتور محمد شاهين بحجرة مكتبه على أحد المقاعد الجلدية ،وراح يدخن غليونه ببطء وشرود ,وعقله يسبح فى الكثير من الذكريات ..

راح يفكر فى حياته العجيبة التى واجه وشاهد فيها الكثير ..لقد اعتقد من قبل أنه شاهد كل شيء غريب .. لقد رأى أشباحاً.. واجه جاناً .. اصطدم بكائنات مخيفة ..تعامل مع جماعات غريبة وخطيرة ..لكنه كان ينجو دوماً.

لكن هذه المرة تختلف.. إنه لأول مرة فى مواجهة أحد الكيانات القديمة .. لم يبخل الكتاب اللاتينى القديم الذى طالما قرأه من قبل فى التحدث عن القدرات اللامحدودة لتلك الكائنات ..كانت أقوى من عاش على الأرض يوماً ,فهى تمتلك قوة السحر والظلام نفسه ..إنها أصل القوة والشرور ..

المشكلة الحقيقية أنه لا أحد يزعم أنه يعلم كل شيء عن هذه الكائنات .. وبالرغم من تواجدها بيننا دائماً ,لكن أحداً لم يقترب منها إلا وأصابه شرها.. الكتب الجادة التى تناولتها على مر العصور قليلة للغاية, لاتتعدى أصابع اليد الواحدة، ولاتقدم الكثير للباحث الحقيقى .. ومن حسن حظه أنه يمتلك أحد أهم تلك الكتب ..

كتاب اللعنات .. ذلك الكتاب الذى ألفه ذلك الراهب الرومانى القديم قبل أن يهلك .. لكن ما أدراه أن ما ذُكر فى هذا الكتاب من معلومات صحيح .. أليس هناك احتمال ما ,أن ما بالكتاب من معلومات ،وطقوس قد تكون مزيفة لا قيمة لها..

شعر بجفاف فى حلقه حين وصل تفكيره لهذه النقطة ..لو كان صحيحاً أن المعلومات التى يحتويها الكتاب عن الكيانات القديمة مغلوطة فهذا يعنى هلاكهم بالتاكيد ..

فهذا الكتاب والطقوس التى يتحدث خلالها عن طقوس العودة والطقوس المضادة لها هى كل سلاحه الذى يملكه الآن..شعر بالتشتت، ومرة أخرى تمنى لو لم يشترك فى الأمر من البداية ..ولكن وقد دارت العجلة, فليس أمامه إلا الاندفاع معها للنهاية .

لاحت ابتسامة خفيفة على ثغره حين تذكر كيف أنه قد تمنى يوماً حين كان أصغر سناً أن يقابل أحد هذه الكائنات ..بل وراح يبحث عنها حثيثاً مقتفيا العلامات الدالة على وجودها والتى ذكرها الكتاب.. كانت رغبةً حمقاء .. تأكد من هذا الآن ..فأمنيته السخيفة على وشك التحقق الآن ,ولكن فى صورة مواجهة يدرك أن احتمالات هلاكه فيها عالية للغاية .

لكنه لن يصرح لمرافقية بمخاوفه, وإن لن يخفى عليهم كل الاحتمالات القائمة .. لايريد أن يخدعهم؛فيدفعهم إلى هلاكهم لو فشلت المواجهة, ولا يريد أيضا أن يتحمل مسئولية الأمر بمفرده ,فهذا أكبر منه .

قضوا ليلتهم حتى الفجر دون نوم ..فلا أحد منهم كان قادراً على النوم الآن. ولكنهم بعدما أدوا صلاة الفجر شعروا ببعض الراحة ؛فداعب النعاس أعينهم, وناموا فى حجرة واسعة معاً , فقد اقترح الدكتور محمد ألا يبيت أحدهم بمفرده .

فى تمام الحادية عشر صباحاً أيقظهم الدكتور محمد ..تناولوا إفطارهم معاً، وبعدما انتهوا ذهبوا إلى مكتب الدكتور محمد؛ لتناول القهوة هناك .. ارتشف الدكتور محمود قهوته وقال:

-والآن ماذا علينا أن نفعل؟..ألن نستعد لتلك المواجهة بشيء ما.

أجابه الدكتور محمد بهدوء :

- لاجاجة بكم للقيام بأى شئ الأن ..يمكنكم العودة إلى بيوتكم الآن ,كى تطمئنوا زوجاتكم وأبناءكم عليكم, وليكن لقاءنا مساءً.. سنبيت معاً مرة أخرى , فلا زال الخطر قائماً كما تعلمون .

-فكرة صائبة ..لكن ماذا عن الغد ..لم تخبرنا حتى الأن ما الذى سنقوم به؟

قالها الدكتور مصطفى ...فأجابة الدكتور محمد, وهو يزفر سحابة صغيرة من الدخان من جانبى غليونه :

-سنفعل ما اتفقنا عليه ..سوف نذهب إلى المشرحة ؛لنحاول أن نمنع طقس العودة ..مرة أخرى أذكركم أنها قد تكون رحلة بلاعودة , وربما نفشل ؛ فتكون نهايتنا حينها ,لا أقول هذا لأخيفكم ,ولكن من حقكم التفكير فى عواقب مانحن مقدمون علية الآن ,والقرار مازال بأيديكم .. ففكرا جيداً.

ابتلع الدكتور محمود ريقه بتوتر, وغمغم :

-وماذا لو لم نذهب..أعنى ماذا لو تجاهلنا الأمر؟...

- ستتم طقوس العودة, وحينها أؤكد لك أننا سنكون فى أول قائمة ضحايا هذا الشيء. إننا نتعامل مع شيء كالنار ,من يلهو بها ,حتما سيحترق بلهيبها.

صمت الجميع بعدها..كان الدكتور محمد يشعر بالصراع الدائر فى صدورهم وعقولهم, لقد واجه نفس إحساسهم هذا من قبل ؛حين

كان عليه أن يواجه شرّاً ما أو لعنةً ما ..وكان يعلم أن أفضل شيء هو أن يتركهم ليقرروا مصيرهم بأنفسهم .. فتركهم لحظات أخرى مع أنفسهم, وأكمل هو شرب قهوته ,حتى قال الدكتور مصطفى ،وقد حسم أمره :

-أعتقد أننى سآتى معك..إن الأعمار بيد خالقها ،ولن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا..توكل على الله يا رجل ودعنا نمضى فى الأمر معا للنهاية.

كانت نبرته قوية لا تردد فيها ..وكطبيب نفسى أدرك الدكتور محمد أن مايقوله ليس إحدى محاولات إدعاء البطولة الزائفة .. الرجل بالفعل يؤمن بما يقول.. وسيكون مفيداً له بشدة لو تسلح بمثل هذه الإرادة حتى المواجهة المرتقبة .

فقال له مبتسماً بإعجاب ،ومشجعاً:

-قرار شجاع بحق يستحق التحية ..أنت رجل شجاع بالفعل.

ثم التفت إلى الدكتور محمود مكملاً:

-وماذا عنك يادكتور محمود؟...

ارتسمت ابتسامة متوترة على وجه الأخير ،وأجاب:

-إننى معكم طبعاً ..أنا فقط أتساءل .. هل من شيء ما نفعله استعداداً للغد.

-لاشيء على الإطلاق ..فأنا من سيقوم بإعداد العدة لهذا الطقس السحرى ،وأنا من سيقوم بأدائه, وأنتم ستشاركوننى فقط فى

إتمامه .. وحين أنتهى من إعداد المواد التى سنحتاجها سأخبركم بما عليكم أن تفعلوه.

-وهل سنحتاج لمعاونة ما لمساعدتنا ,أعنى هل سيكفى ثلاثتنا أم علينا أن نبحث عن متطوعين آخرين؟

سأله الدكتور مصطفى ؛فأجاب الدكتور محمد:

-هذا مؤكد ؛فسنحتاج لتواجد آخرين معنا ..فيجب أن يكون عددنا ستً كى نقوم بألامر.

-هل تقترح أحد ما بعينه ,أم أن أى شخص يمكنه أن يشارك؟..

-أى انتحارى أو مغفل لايعنيه حياته يصلح لهذا.. هناك عمال المشرحة مثلا, اختاروا منهم اثنين ممن تثقون فيهم.. ومن الممكن أن يكون الشخص السادس هو الدكتور نعيم لو رغب فى التواجد معنا..

-لا أظن أنه سيوافق على المشاركة معنا ..إنه يرفض الاشتراك فى الأمر بأى صورة,لأنه يرفضها تماما.

قالها الدكتور مصطفى ,فقال الدكتور محمود بسرعة :

-لا مشكلة فى هذا .. أظن أننى أعرف شخصاً سيرحب بأن يشاركنا الأمر.. إنه الدكتور هشام الطبيب الشرعى بوزارة العدل .

- حسناً ..هذا يعنى أننا سنصبح ستة .. إن هذا هو كل شيء .. يمكنكم العودة الآن إلى أسركم ,ولكن أرجو أن تكونوا هنا قبل الثامنة مساءً.

انصرفا بعدها ،فاتجه الدكتور محمد إلى كتابه اللا تينى ،وفتحه مرة أخرى ، وجلب ورقة صغيرة وقلم ؛ليكتب منه المواد المطلوبة لتنفيذ الطقس..

-ست جماجم لأشخاص بالغين ..كان يمتلك أربعة بالفعل ،ومن السهل أن يوفر الدكتور مصطفى جمجمتين أخريين.

-دماء بشرية ..لامشكلة فى جلبها ..هناك بنك الدم الذى يترأسة أحد الأطباء من أصدقائه .

- قط حالك السواد بلاشعرة بيضاء واحدة .. هذا أيضا يمكن إحضاره من أى من محلات بيع الحيونات الأليفة.. كان هذا هو الجزء السيء فى الأمر.. لكنه أهم جزء فى الطقس.

-بعض البخور والروائح الزيتية..وكانت متوافرة لديه.

-شمع أسود وأحمر .. يمتلكه بالفعل.

-وبعض الأشياء الأخرى التى لاداعى لذكرها .. لكنها عنده بالفعل ..

إذا كان كل شيء متاحاً ..ولم يبق إلا التوفيق ليتم الأمر بخير ..لكنه لم يكن واثقاً من هذا .

(49)

الجمعة...

بعد العصر...

فيلا الدكتور محمد شاهين...

كانوا ست بخلاف الدكتور محمد شاهين نفسه...

الدكتور مصطفى ..الدكتور محمود.. الدكتور هشام ..وكيل النيابة الشاب ..عم منصور .. وأخيرا عبدالدايم ...

نجح الدكتور هشام فى إقناع وكيل النيابة بضرورة الحضور ..أخبره أن حل جريمتى القتل سيكون متاحاً هذه الليلة .. وبالرغم من عدم قناعة وكيل النيابة بالأمر ,إلا أنه فى النهاية حضر ..

قدمت الخادمة المتشككة لهم الشاى والقهوة ,وبعض الكيك والحلوى التى أمرها الدكتور محمد بإعدادها خصيصاً لهم ..وكان الانزعاج بادياً تماماً على وجهها، وهى لا تعلم ماهم مقدمون عليه.

انهمك الجميع فى بعض المناقشات الجانبية، وهم يتناولون الكيك والشاى .. ومال الدكتور هشام نحو الدكتور محمود وقال بانفعال:

-حتى هذه اللحظة لا أصدق ما نحن بصدده .. هل تفعل انت؟.

أجابه الدكتور محمود بابتسامة قلقة :

-أما أنا فقد صرت على استعداد لأن أصدق أى شيء ..أنت لم تكن فى المشرحة لترى مارأيت ..إن مشهد الجثث المعلقة فى الهواء, لايفارق مخيلتى قط..

-وهل سينتهى الأمر على خير ؟.

-هذا ما أتمناه وأدعو الله به فى كل لحظة ..

أما وكيل النيابة الشاب الذى جلس بجوار الدكتور محمد شاهين ، فقد أخذ يلتهم قطعة الكيك التى أمامه بالشاى باستمتاع ،وهو يقول:

-ألست ترى الأمر غريباً أن أكون فى مكان به أطباء ذوى مكانة علمية مرموقة ،ثم أراهم يستعدون لمطاردة أشباح وعفاريت؟.

رد الدكتور محمد ببساطة كمن اعتاد مثل هذه التعليقات السطحية:

-إننا لن نطارد أشباحاً.. ولو كان الأمر يتعلق بالأشباح لما كانت هناك مشكلة على الإطلاق ولما كنت بحاجة لمساعدة أحد ما ..ما نواجهه اليوم أخطر بكثير ..أشعر أنك لا تدرك ما نحن مقبلون عليه ..

-لنتكلم بصدق ..إننى لا أصدق شيئاً مما أخبرتمونى عنه ..ولا أعتقد أن شيئاً ما سيحدث الليلة..لقد أتيت فقط ؛لأن الدكتور هشام ألحّ فى هذا ..لكننى أشك أننا سنخرج من ليلتنا هذه بأى شئ سوى تضيع الوقت.

لم يبال الدكتور محمد بتصديقه من عدمه ،فقال بهدوء:

-أتمنى أن تحافظ على قناعتك هذه فى نهاية اليوم..

-هل تعلم يادكتور ..إن هناك أمر آخر يحيرنى ..فحتى لو إفترضنا أننى رأيت بعينى أشباح أو عفاريت أو وحوش حتى ،وتيقنت أنها المتسببة فى حادثتى القتل بالمشرحة, فلن أستطيع أن أذكر هذا فى تحقيق رسمى.

- على الأقل ستعلم الحقيقة حينها، ولن تبحث عن متهم بريء .

أما عم منصور فقد شعر بالكثير من التوتر والقلق منذ فوجئ بالدكتور مصطفى يطرق باب بيته ،ويطلب منه أن يأتى معه .. مرا بالبيت الذى يسكن فيه عبدالدايم ؛فلحقهما هو الآخر, وفى الطريق شرح لهم بإيجاز ماسيفعلونه ..

أخبرهم بطريقة مبسطة أنهم سيواجهون شيئاً خارقاً يشبه فى أفعاله أفعال الجان ,وخيّرهم إن كانت لديهم الشجاعة ليشتركوا

في هذا الأمر أم ينسحبوا دون تثريب عليهم ..بالطبع وافقا ،وإن لم يُظهرا له كم شعرا بالرهبة والخوف ..

تراءت فى مخيلة عم منصور أثناء الطريق إلى فيلا الدكتور محمد عشرات الأحداث منذ بدأ الأمر .. الحكايات التى قصها متولى عن صاحبة الجثة، وأفعالها المخيفة .. الطالبة التى وجدوها ميتة بالمشرحة, وكذلك جثة الدكتور شريف .. ماحدث مع متولى حين قضيا ليلتهما معاً بالمشرحة، ومارآه عبدالدايم من الجثث المعلقة ,ومتولى يطير بينها .. الأمر مخيف ولكنه حياءً لم يكن بمقدوره أن يظهر أمام الدكتور مصطفى بهيئة الرجل الجبان..

نفس الأمر لم يختلف كثيراً بداخل عبدالدايم , كان يشعر بالخوف فعلاً, وإحساس غامض مقبض بداخله يطالبه بالانسحاب وعدم خوض الأمر معهم, وهمس بقلق لعم منصور كى لا يسمعه أحد:

- هل سيمر الأمر بخير ياعم منصور.. إننى لست مطمئناً لما نحن مقدمون عليه.. إن الهواجس والمخاوف لا تفارق عقلى لحظة.

-وأنا مثلك ياعبدالدايم ..أنا أيضاً خائف وبشدة , لكن لا أرى مجالاً للتراجع الآن ..لندع كل شيء بيد الله, ولندعوا الله أن يمر الأمر بسلام.

صمتا بعدها ،وسرح كل منهما مرة أخرى فى أفكاره, وبعد أن انتهوا من الشاى والقهوة والكيك ،جاءت الخادمة ,ورفعت من أمامهم الأكواب ،والأطباق الفارغه.

وأشعل الدكتور محمد غليونه ,وقال موجهاً كلامة للجميع بصوت مرتفع :

-مرة أخرى إننى أرحب بالجميع في منزلى ..ولكن دعونى أذكّركم للمرة الأخيرة بما نحن بصدده ..إن علينا أن نوقف أمراً شريراً للغاية متجسداً فى هيئة جثة الفتاة التى بالمشرحة.. والأمر هنا ليس أحد الجان أو حتى الشياطين .. إنه شيءأخطر.

وصمت وعيناه تتنقل بين الوجوه المترقبة ,فأكمل :

إننا سنواجه إحدى الكائنات التى عاشت على الأرض قبلنا منذ آلاف السنين ..كائنات قوية، وشريرة، وملعونة.. يكفى أن أخبركم صادقاً إن مواجهتنا لهذا الشيء قد تحمل هلاكنا .. وأن تعلموا أن احتمالات الفشل فيها أوفر حظاً من فرص النجاح , ولاداعى لأن أذكركم أن الفشل فيها يساوى هلاكنا جميعاً .

سرت همهمات خافتة بين الجميع وتبادلوا النظرات ,إلا أنه لم يدعهم وهمهماتهم وأكمل قائلاً :

-لا أريد أن يظن أحدكم أننى أبالغ فيما أدعيه أو أننى أرغب فى إفزاعكم..إنها الحقيقةٍ أيها السادة ..الحقيقية مجردة كما أعلمها, وإننى أعرضها كاملةً عليكم .. والقرار الأن بأيديكم ..من يرغب فى الانسحاب فليفعل الآن ,ولن يلومه أحد .فهذه آخر فرصة للانسحاب لمن يرغب .

نهض بعدها من مقعده، واتجه نحو النافذة ،وأولاهم ظهره , وأخذ ينفث دخان غليونه بهدوء فى انتظار قرارهم الأخير..

بينما تبادل الجميع النظرات الحيرى المضطربة دون أن يتكلم أحد منهم .. بعد هنيهة قال الدكتور مصطفى محاولاً السيطرة على مشاعره:

-سيمضى كل شيء بخير إن شاء الله يادكتور محمد ..توكّل على الله وأفعل ماتراه صوابا , وكلنا معك فى محاولتك هذه.

هنا التفت نحوهم الدكتور محمد، وقال بحسم :

-سأعتبر صمتكم جميعاً ترحيباً بالاستمرار فى الأمر ..دعونى أحييكم لشجاعتكم أولاً ,ودعونى الآن أشرح لكم ماعلينا أن نقوم به الليلة..فأعيرونى آذانكم ,وأذهانكم من فضلكم .

وشرح لهم بعدها كل شيء بالتفصيل..

(50)

فى العاشرة مساءً كانوا أمام باب الكلية ..

وفوجئوا هناك بالرائد محمد وهدان في انتظارهم ..كان وكيل النيابة قد أخبره قبلها بما سيفعلونه , فقرر ألا يفوِّت الفرصة عسى أن يصل للحقيقة ..إنها قضيته فى النهاية ،ومازال هناك قتيلان لم يقدم قاتليهما بعد ..

اتجهوا الى المشرحة بخطوات هادئة ,وتعاون عم منصور وعبدالدايم فى حمل الأغراض التى اصطحوبها معهم, بينما اكتفى الدكتور محمد بحمل حقيبة صغيرة بيده ..

أمام باب المشرحة تقدم الدكتور مصطفى ،وأخرج من جيبه مفتاحاً صغيراً فتح به الباب فدلفوا واجمين.. وصلوا إلى قاعة التشريح, فأضاءوا النور ليشاهدوا أسوأ كوابيسهم هذه المرة ..

ارتفعت جثة الفتاة عن الأرضٍ ,وقد أسدلت عليها عباءة سوداء فضفاضة غطت جسدها كاملاً, وفردت ذراعيها على اتساعهما ؛فبدا مع أكمام العباءة الواسعة كجناجين هائلين..وفى أركان ستةٍ من فراغ الحجرة ,سبحت الجثث الستة فى الهواء فى وضعٍ مقلوب, أرجلها لأعلى ورأسها لأسفل , وقد عقدت كل جثةٍ ذراعيها أمام صدرها ..

كانت هناك جثتان قد أضيفتا إلى الجثث دون أن يعلم أحد منهم..جثة متولى ،وجثة عبدالعاطى ..

تدلى فك مفتش المباحث فى بلاهة ،وشعر بذعر لاحدود له حتي أنه كاد أن يثب للخاردج هارباً من المكان .. وشعر وكيل النيابة

بنفس مشاعره ، وصاح وهو يمسك بكلتا يديه فى ذراع الدكتور هشام شاعراً بأنفاسه تضيق فى صدره :

-انظروا للجثث إنها تطير بالفعل ..إي هراء هذا؟ ..

أما الدكتور هشام ،فشعر بجفاف شديد فى حلقه، وبغيبوبة تجتاح عقله فراح يلتقط أنفاساً سريعة كى يمنعها.

أخذ عم منصور يردد الكثير من الأدعية ،وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ..ولاحظ عبدالدايم جثة متولى بين الجثث فتقلصت أحشائه جزعاً، وصاح بصوت باكٍ:

-يا إلهى .. إنه متولى..لقد قتلته اللعينة..إنه بين الجثث.

تطلعوا حيث أشار بقلق ...فهتف عم منصور بألم ،وهو يغالب دموعه :

-إنه متولى بالفعل ..إنه متولى .

صاح فيهم الدكتور مصطفى ،وقد تعرّفه هو الآخر ،وهو يتجة نحو جثته المعلقة:

-ليساعدنى أحدكم فى إنزاله , فربما مازال على قيد الحياة .

لكن الدكتور محمد صاح فيهم بحزم وصرامة ، وهو يجذبه من ذراعه مانعاً إياه من الاندفاع :

-إياكم أن تفعلوها .. لقد مات بالفعل.. لا أحياء فى مثل هذه الطقوس, دعوه مكانه, ولاتستفزوها بفعل كهذا, فهى لن تسمح لكم بإفشال طقس العودة .

تجمدوا فى أماكنهم بفزع وترقب، وهم يتطلعون إلي الجثث المعلقة .. كان شيئاً مريعا ،ولم يكن أحد منهم أن يتخيل بشاعته .. هنا كان مفتش المباحث قد فقد كل ذرة من شجاعة باقية فى نفسة ؛فاندفع نحو الخارج ،وهو يصيح:

-لن أمكث فى هذا المكان لحظةً واحدةً ,وليذهب كل شيء الى الجحيم..

وقطع جملته حين اكتشف أن مكان باب المشرحة الخارجي لم يعد هناك, لقد صار حائطاً كباقى حوائط المشرحة.. هنا شعر بذعر لا حدود له, فأخذ يصرخ وهو يضرب بكلتا يديه الجدار الذى حل مكان الباب :

-أخرجونى من هنا ..لا أريد أن أموت..أخرجونى عليكم اللعنة .

اندفع الجميع نحوه, ثم توقفوا أمام الحائط الذى حل محل الباب بذهول ,وغمغم الدكتور هشام، وعيناه تتفحصان الجدار الذى جاء من العدم:

-ماهذه العبث الشيطاني ..أين ذهب الباب؟..

غمغم الدكتور محمود ،وقد أدرك أنه لا تراجع الآن :

-يبدوا أننا صرنا محبوسين هنا.

هنا هتف فيهم الدكتور محمد شاهين بصرامة، وقد شعر أن الامر بدأ يخرج من يديه نحو الفوضى:

-ماذا دهاكم أيها الجبناء..لقد أخبرتكم أنه بمجرد أن ندخل المشرحة فلا مجال للتراجع بعدها ..إنها لن تسمح لكم بهذا .. فلماذا هذا الذعر الصبيانى إذاً ؟..

كونوا رجالاً, وعودا لصوابكم, ودعونا نفعل ما أتينا من أجله أو استمروا فى الولولة هكذا كالأرامل حتى تقضى علينا جميعاً بعد قليل .

أطرق الجميع رءوسهم لأسفل فى خجل، وتوتر قال عم منصور :

-نحن طوع أمرك يادكتور.. ماذا تريدنا أن نفعل ؟

زفر من فمة نفس طويل، وقال وهو يعود لقاعة التشريح:

-هيا بنا جميعاً إلى القاعة لنبدأ عملنا .

انتقل إليهم الحماس للحظة، ولكن قبل أن يتحرك الجميع انطلقت من المشرحة ضحكة أنثوية ساخرة ،وعالية فارتجفوا ،وغمغم وكيل النيابة ، وهو يتلفت حوله برعب:

-هل استيقظت ؟.

الا أن الدكتور محمد قال بسرعة كيلا يطول ذعرهم:

-تجاهلوا أى شيء.. أمامها أكثر من الساعة كي تتم طقوسها ..الطقوس تنتهى فى منتصف الليل تماما , فدعونا نسرع ولاتلتفتوا لما تفعله..إنها ترغب فى إفزاعكم .

أخذوا يراقبون الجثث المعلقة برعب وحذر, وبخاصة جثة الفتاة التى أخذت تدور حول نفسها في الفراغ ببطء ..

وتجاهل الدكتور محمد شاهين كل هذا ،وبدأ فى إعداد المكان بمساعدة عم منصور وعبدالتواب .

فى البداية أخرج دلواً يحتوى على الدماء التي جلبها من أحد بنوك الدم .. وأخرج فرشاة كبيرة، وعلى مساحة واسعة وفارغة من أرض المشرحة أخذ يرسم بالدم نجمة سداسية كبيرة حتى أنها كانت لتسعهم جميعاً.. انتهى منها ثم رسم حولها دائرة لامست حواف النجمة الستة..

راقبه الجميع أثناء ذلك, وقال وكيل النيابة للدكتور هشام بجزع:

-أهذه دماء حقيقه ؟..

-أعتقد ذلك ..لابد أنها لازمة لإتمام الطقوس!.

تصاعد الغثيان فى جوف وكيل النيابة ،وشعر بالرغبة فى القيء , فحاول كتم إحساسه هذا مكتفياً بالصمت ومراقبة مايدور حوله ،وعقله لايصدق أن هذا يحدث أمام بصره ..

أتم الدكتور محمد رسم النجمة السداسية والدائرة, ثم أخرج فرشاة أصغر وغمسها فى إناء الدم وبدأ فى رسم بعض النجوم السداسية والخطوط المتقاطعة الصغيرة فى كل ركن من أركان النجمة ..كان يرسم الكثير من الخطوط الصغيرة العجيبة والطلاسم الغامضة..

هنا توقفت جثة الفتاة عن الحركة ..لاحظها أولا الرائد محمد الذى لم يرفع عينه عنها قط , فأشار اليها برعب وصاح :

-لقد كفت عن الدوران .. ماذا يعنى هذا؟! ..

اتجهت عيونهم إليها برعب وتوجس .. وارتفع صوت الدكتور محمد بينهم دون أن يلتفت إليهم, أو يكف عن رسم الدوائر والخطوط المتشابكة:

-لاتلتفتوا إليها وتجاهلوا وجودها تماماً .. إنها لن تؤذيكم الآن.

إلا أن الفزع فى أعماقهم كان هادراً كاسحاً كإعصار ؛فلم يلتفتوا إلى كلماته ، واستمروا فى مراقبتها ..

وفجأة سقطت الجثث المعلقة إلى الأرض بعنف فأحدثت دوياً مفزعاً , وشعروا جميعاً بالرعب وقد التصقوا ببعضهم فى فزع, وصرخ الدكتور هشام :

-أخبرنا يادكتور محمد بالله عليك.. ماذا يحدث هاهنا ؟.

الا أنه لم يعيرهم انتباها، وهو يسرع فى عمل الخطوط، والعزائم، والطلاسم التى يرسمها .. كان يرسم تلك الرموز والطلاسم السحرية التى رآها فى الكتاب، والتى يزعم الكتاب أنها قادرة على الحماية من شر هذه الكائنات القديمة وسحرها. كان الوقت يمضى بسرعة مخيفة، ومنتصف الليل يقترب مهرولاً ,وعليه قبلها أن يبدأ الطقس ،ويردد التعاويذ ..فلو انتصف الليل قبل أن يتم عمله ,فستفيق ..وحينها لن يكون لما يفعله أى جدوى.

فصرخ فيهم محذراً، ويده تسارع الزمن ؛كى تنتهى من رسم الرموز ،والطلاسم التى سوف تحميهم:

-قلت لكم تجاهلوا أى شيء ..لا تلتفتوا إليها مهما حدث.

-وماذا عنهم؟.. هل تضمن أن يتجاهلونا ؟!..

قالها الدكتور مصطفى برعب حين لاحظ أن حركة ما دبت بالجثث الملقاة على الأرض ..كانت تحاول أن تنهض من سقطتها ببطء ,فصاح الرائد محمد بفزع:

-إنها تعود إلى الحياة ,انظروا إلى الجثث ..إنها تتحرك ؟!

إلا أن الدكتور محمود صاح باستنكار محاولاًأن يجعل صوته متماسكاً:

-الجثث لاتعود إلى الحياة أبداً ,هذا شيء لايقدر عليه الا الخالق..

وهتف الدكتور هشام بصوت مخنوق ،وهو يشير للجثث التى كانت على وشك الانتصاب واقفةً :

-وماذا تسمى هذا إذا؟!.

-ربما تحركهم بحيلة ما ..إنها مجرد حركة ميكانيكية لا أكثر.. لا تدعوا الخوف يزلزل معتقداتكم .. إنهم موتى .. موتى لن يعودوا للحياة أبداً .

وارتفعت بينهم آيات القرآن التى يتلوها معظمهم فى هلع.. بينما أكملت الجثث نهضتها، وانتصبت فى صف واحد كجنود فى انتظار معركة حاسمة .

التفتت الجثث إليهم بعيون مغلقة ..و فتحت فمها، وأصدرت أصواتاً مخيفةً متحشرجةً, قبل أن تبدأ التحرك نحوهم ببطء مفزع ..

تراجعوا بفزع تاركين الدكتور محمد بمفرده .. ولاحظ الدكتور محمد مايحدث؛ فشعر بالقلق ..يبدو أن تلك الشيطانة قد شعرت بما ينوون أن يفعلوه, فرغبت فى بث الفزع بينهم كى تمنعهم ..

رأى الجثث المتحركة نحوهم, فألقى بنفسه وسط النجمة الكبيرة التى رسمها محتمياً بها .. فطلاسمها سوف تحميه من سحرها ..وما إن دخلها بجسده حتى مد ذراعه خارجها مكملاً بسرعة رسم الطلاسم الباقية.

بالفعل تجاهلته الجثث ،واستمرت فى اندفاعها نحو الباقيين, الذين تراجعوا فى فزع ،وتعالت صيحاتهم، وبخاصة مفتش المباحث الذى أخذ يصرخ فيها :

-ابتعدوا عنى .. لا تلمسونى أيها الشياطين.. ابتعدوا عليكم اللعنة..

قالها وأخرج مسدسه من حزامه، وراح يطلق على الجثث طلقات مدوية راحت تغوص فى أجساد الجثث دون أن تعيق تقدمها ..ظل يطلق نيرانه حتى فرغت خزينة مسدسه فألقاه بيأس ،وعاد ليعدو مع زملائه.

فى النهايه اصطدموا بالحائط ،ولم يعد هناك من مهرب.. أخذوا يلتصقون ببعضهم فى رعب ،وأجسادهم ترتعش ،وتنتفض، وهم يرقبون الجثث التى تقترب منهم بحركة بطيئة رتيبة ومخيفة,وحين بلغتهم امتدت أيديها نحوهم كأنما تبغى القبض عليهم, فأخذوا يحاولون بجنون تحاشى الأيدى الممتدة نحوهم .

كانت جثة متولى فى المقدمة ،واتجهت مباشرة الى عم منصور كى تمسكه.. لم يكن هناك مكان ما يهرب إليه ,فأخذ يدفع

الباقين الملتصقين بالحائط وهو يصرخ بهلع, بيأس حتى أمسكت به الجثة, فصاح فيها بفزع ، وهو يدفعها بيده بكل قوته:

-لا تؤذنى يامتولى .. أفق يارجل.. إننى منصور ..اتركنى بالله عليك..ابتعد عنى ولا تلمسنى..

لكن يدى الجثة لم تتركه بل ارتفعت نحو رقبته كى تخنقه, فدفعها بقوة ليبعدها عنه.. ترنحت الجثة للحظة، وكادت أن تسقط قبل أن تستعيد توازنها وتعود إليه مرةً أخرى بآلية لتكمل ما بدأته.

اندفعت باقى الجثث نحو الباقين, وانقضت عليهم.. أخذ الجميع فى ضربها ،وإبعادها بأيديهم عنهم برعب هائل .. وفقد رئيس المباحث , والدكتور مصطفى وعيهما رعبا ؛فسقط جسديهما على الأرض , فانحنت جثتان نحوهما وأحاطت بيديهما عنقهما لتخنقهما ..

تعالت الصرخات أكثر ،واستمرت الاستغاثات اليائسة دون جدوى, وشعر الجميع أنها النهاية .. وقد يئسوا من قدرتهم على التصدى للجثث إلا أنهم فوجئوا بالدكتور محمد يندفع نحوهم لاهثاً، وبيده الفرشاة الصغيرة الملوثة بالدماء ,ثم اتجة إلى أقرب جثة، ورسم مثلثاً بداخل دائرة ،وحرف عجيب على ظهرها ؛فتجمدت الجثة بمكانها على الفور.. واندفع بسرعة إلى غيرها،وفعل نفس الشيء؛فتجمدت هى الأخرى.. وشعروا بالأمل، وصاح الدكتور محمود، وهو يدفع بكل قوة الجثة التى تحاول الوصول إليه بإصرار:

-أسرع بالله عليك يا رجل ..أوقف هؤلاء الملاعين أرجوك.

أسرع الدكتور محمد بالفعل ,وبعد دقيقتين كانت الجثث جميعاً واقفةً متجمدةً فى مكانها بثبات غريب.. كان مشهداً مفزعا تهتز له القلوب ولا تتخيله العقول مهما أوتيت من خيال..

وتطلعوا إليها بفزع وترقب.. وقال الدكتور هشام بدهشة:

-ماذا فعلت بهم يادكتور محمد؟.. هل انتهى خطرهم؟.

- ليس لفترة طويلة ..إنها مجرد تعويذة لتجميدهم، وإيقاف السحر الخاضعين له مؤقتا .

ثم أشار إلى جسدى الدكتور مصطفى ،ومفتش الشرطة ،وأكمل بتوتر:

-احملوهما ،وتعالوا بسرعة إلى الداخل ؛لتحتموا بالدائرة التى رستمها.. إن تأثير التعويذة التى أوقَفتهم قصير المفعول ,وربما يفيقون منها فى أى وقت.

تعاون الجميع فى حملهما فى رعب ،واندفعوا إلى الدائرة المرسومة بالدم على أرض المشرحة، والتى اتسعت لهم جميعاً، فشعروا ببعض الطمأنينة، بينما أكمل الدكتور محمد عمله بخارج الدائرة بعدما رسم على ذراعه الأيسر بعض الخطوط المتشابكة بالدم.

أفاق الدكتور مصطفى ومفتش المباحث الذى هتف ما أن أفاق ،وهو يتلفت حوله بهلع :

-هل متنا ؟..

ابتسم الجميع ،وأجابه وكيل النيابة:

-لقد أنقذنا الدكتور محمد فى اللحظة الآخيرة..

وفجأة انطلقت من فم جثة الفتاة ضحكة عالية وساخرة كعادتها .. وبصوت مخيف قالت:

-لن ينفع هذا ..ستفشلون وستدفعون جميعاً الثمن.. فلا شيء يوقفنى.. لاشيء بقادر على فعل هذا!.

دارت رءوسهم نحوها بفزع .. وصرخ فيهم الدكتور محمد دون أن يتوقف:

-إياكم أن تستمعوا لها ..سدوا آذانكم بأيديكم ؛كى لاتسمعوا أى شيء.

إلا أنها استمرت فى التحدث مثيرةً الفزع فى إعماقهم:

-هل تعلمون مصيركم الذى ستنالوه بعد قليل..دعوا عقولكم المرتجفة تخمن هذا, وأعدكم أن أفعل بكل واحد منكم أبشع شيء تخيله ..

اقشعرت أبدانهم، واحُتبست أنفاسهم ،وتوتروا أكثر، وكل منهم يفكر فى أبشع مخاوفه .. بعضهم كانت مخاوفه سيئة بحق ,فأكملت بجزل:

-أنا جائعة للغاية .. أنتم لاتتخيلون كم اشتقت لتذوق الطعام مرة أخرى .. لكن هل تعلمون ماهو طعامى المفضل؟.. لن اخبركم يا صغارى ..سأترك هذا لتخمينكم .

وتعالت ضحكاتها المخيفة مثيرةً مزيداً من الفزع إلى قلوبهم, ومرة أخرى صرخ فيهم الدكتور محمد، وهو ينتقل إلى بقعة جديدة, مواصلاً رسم المزيد من الدوائر ،والخطوط بالدماء:

-لاتستمعوا إليها ..إنها تبغي تشتيت انتباهكم..أديروها ظهوركم ولا تلتفوا إليها ..لقد أوشكنا على البدء.

وقالت ،وهى تطلق ضحكةً ساخرةً:

-إفزاعهم فقط؟.. يبدو انك لاتراهم.. إنهم يرتجفون من الرعب كفرخ مبلول فى ليل شتاء ..إنهم ليسوا بحاجة لما أقوله لكى يفزعوا.. إن قلوبهم لتوشك أن تغادر أماكنها هلعاً .. ياللمساكين الصغار !. لن يطول عذابكم طويلا, فسوف آتيكم بعد قليل.

لم يجيبها ،وإستمر بإصرار فى اتمام عمله.. فوجهت كلامها هذه المرة له قائلةً بلهجة مخيفة:

-هل تظن أن هذه الخطوط التافهة التى ترسمها ستحميكم منى .. أنت واهم أحمق.. إنها لاقيمة لها أيها المغفل.

ومرة آخرى تجاهلها.. كان فى عجلة من أمره.. الوقت يمضى بلاتوقف, ولابد أنها تحاول إعاقته بشغله وإثارة توتره ..فتجاهلها، وهى تقول:

-أعلم أنك تمتلك ذلك الكتاب الذى كتبه ذلك الراهب المأفون .. إنه لايساوى ثمن الحبر الذى كتب به..إنه تافه مليء بالأكاذيب المسلية .. سوف أثبت لك هذا بعد قليل حين ترى بعينك أن تعويذاتك هراء .

شعر بالبلبة والرهبة ..بداخله كان يعلم أنها ربما كانت محقة..فلا أحد جرب هذه الطقوس والتعويذات التى بالكتاب من قبل .. إلا أنه لم يكن يملك غيرها, فلم يكن أمامه إلا أن يستمر ،ويمضى فى عمله للنهاية..

فجأة تعالت همهمات قوية من الخارج ،وخطوات أقدام تتردد فى المكان.. لقد أفاقت الجثث من جمودها ..هنا صاحت بصوت مخيف تردد فى جنبات المكان ؛فارتجت له جدران المشرحة :

-تعالوا إلىّ يا عبيدى ..إنه وقت العودة ..

دلفت الجثث القاعة بخطواتها الآلية ،وتجاهلت الجميع هذه المرة.. ثم ارتفعت أجسادها فى الفضاء مرة أخرى متخذة وضعها السابق الذى رأوه من قبل..

صمتت الفتاة تماما , وإتخذت هى الاخرى وضعها السابق ,وأخذ جسدها فى الدوران فى الفراغ حول نفسه، وذراعاها مفرودان تماماً ..

وأظلم المكان بغتة فى تلك اللحظة، وتعالت أصوات مبهمة، وحشرجات غريبة بدت وكأنها تأتى من كل مكان حولهمٍ، وتدريجيا راحت حدتها فى التصاعد ..كانت أصواتاً مخيفةً ومرعبةً ..وفى أركان الغرفة كلها بدأت دوامات هوائية صغيرة فى التكون ..

بلغت القلوب الحناجر هلعاً، وارتجفت الأبدان ،وتقلصت الأحشاء ، وقد أدرك الجميع أن طقس العودة يقترب من الاكتمال .. ولم يتمالك الدكتور مصطفى نفسه فسقط فاقداً الوعى مرة أخرى بداخل الدائرة.

كان الدكتور محمد قد انتهى هو الآخر من رسم الخطوط والطلاسم , فانتقل بسرعة إلى وسط النجمة السداسية الكبرى وصاح فيهم:

-هيا بنا نبدأ ...فالوقت يكاد أن ينفذ.

وكما أخبرهم اتخذ كل منهم قمة رأس من رءوس النجمة السداسية، وجلس في منتصفها, ثم التقط كل منهم جمجمة وضعها بين قدميه .. قاموا بعدها بإشعال شمعة سوداء ،وثبتوها على الأرض ,ثم وضع كل واحد منهم الجمجمة التى يمسكها فوقها فتوهجت فجوات عيون الجماجم بضوء لهبى مخيف كأنه منبعث من الجحيم ..

أما الدكتور محمد فقد أشعل شمعةً أخرى فى منتصف الدائرة حيث جلس , وألقى عليها بعض البخور والمواد الغريبة؛ فتعالى دخان كثيف فى المكان، وصاح فيهم الدكتور محمد بصوت عالٍ صارمٍ :

-ليمكث كل واحد منكم فى مكانه.. إياكم أن تتحركوا أو تغادروا أماكنكم مهما حدث ..امسكوا أيدى بعضكم البعض بقوة ..ولاتتركوها أبداً.

أسرع الجميع بتنفيذ الأمر ،وقلوبهم تتواثب فى فزع ..وتعالت أصوات مخيفة فى المكان راحت ترددها الجدران ؛كأنما حضرت شياطين الجحيم لتشهد الحدث ..

تعالى صوت الدكتور محمد فى المنتصف، وهو يردد باللاتينية التعويذة التى حفظها عن ظهر قلب ..

Spiritus est munus satiatur Tkhmdy tenebris, et vado ad Spatk..

Anima eius in sempiternum, et tenebras lucem Tnami Talny..

Avis et redire ad mandatum Spiritus Thmdy

Spiritus munus satiatur tenebris .. Ahpty Amkty et Inferno

لم يفهم أحد ما يردده , إلا أنه ظل يردد بقوة وحماس ..تحول حينها إلى شخص آخر بدا لهم أكثر قوة وسيطرة.. بدا وكأنه ينتمى للجحيم الذى يعيشون فيه الأن

فى الوقت نفسه ازدادت سرعة الدوامات فى جوانب الحجرة ؛حتى صنعت عواصف صغيرة .. وكلما ارتفع صوت الدكتور محمد مرددا التعويذة, تعالت فى فراغ الحجرة أصوات غاضبة تطلق صرخات مريعة ارتجفت لها الجدران..

وبغتة وفوق رأس الفتاة التى تسبح فى الفراغ نشأت صواعق صغيرة من العدم..وراحت الصواعق فى التواثب بين الجثث التى بسطت أذرعها الآن ..تعالت الزمجرات والأصوات المخيفة, حتى شعر الجميع أن شياطين الكون تشاركهم المكان الآن، وإنها اللحظات الأخيرة فى حياتهم..

وصرخ الدكتور محمد بأقصى قوة محاولاً جذب انتباهم وتحفيزهم:

ـأغمضوا أعينكم وتجاهلوا ماحولكم ..إننا سننجح ..إننا سوف ننجح بإذن الله...

أغمضوا عيونهم بقوة ..فلم يكن هناك من يرغب فى أن يرى أى شيء مما يدور حولهم ..فقط تمنوا جميعهم أن ينتهى كل شيء بسرعة..مهما كانت النهاية...

تعالت الصرخات في المكان .. صرخات شياطين غاضبة تخلع الأفئدة .. ومعها تواثبت القلوب فى الصدور كأقصى مايكون..

تعالى زئير قوى فى المكان ،وأعقبة آخر ثم آخر ..كأنما كان هناك أسود تتصارع فى المكان ,إلّا أن أحداً لم يفتح عينيه .. شعروا بالهواء العاصف يكاد أن يقتلعهم من أماكنهم..فقبضوا على أيديهم بقوة محاوليين الصمود .

الوحيد الذى ظل يتابع بعينيه كل شيءكان الدكتور محمد ..كان يتابع الأمر برعب حقيقى .. سمع الصرخات والهمهمات والزئير، فتلفت حوله بقلق ، وهو لا يرى أى شيء, فاستمر فى ترديد التعاويذ اللاتينية بوتيرة أسرع, محاولاً التغلب على فزعة...

فجأة انفتحت أبواب الجحيم أمامه فانخلع قلبه فى رعب .. فعشرات العيون الحمراء كانت هناك فى الفراغ ترمقه بغضب ..كانت مجرد عيون فى الظلام بلا رءوس أو أجساد ..هل يكونون شياطين الجحيم ، وقد حضروا ؛ لكى يشهدوا الحدث ..

أغمض عينيه وفتحها... لكن العيون لم تختف ..

كانت هناك رياح قوية تحاول اقتلاعه من مكانه؛ لكنه تشبث بالأرض بقوة ،واستمر بأقصى قوة لديه فى تلاوة التعاويذ.

اندفعت الجثث بأكملها نحوهم؛ لتطير بسرعة حول دائرته وتمد أيديها نحوهم؛ كأنما تحاول أن تمسكهم ،وفمها يصدر أصواتاً مفزعةً.. تجاهلها وقد بدا اليأس يدب فى أعماقة وشعور مفزع بالفشل يجتاحه..

لاحظ الفتاة التى توقفت ،وأخذت تحملق فى أحدهم ..فشعر الدكتور محمد أنها تدبر شيئاً ما ..

فجأة جذب عبدالدايم يديه من يدي عم منصور والدكتور هشام الجالسين بجانبيه ..رآه الدكتور محمد يفعل هذا ..فصرخ فيه بفزع :

-إياك أن تفعل..

إلا أن صرخته كانت متأخرة للغاية...

وفجأة امتدت أيد خفية نحو عبدالدايم الذى ما إن حرر يديه حتى قفز خارج الدائرة ..وأمام عيني الدكتور محمد المفزوعتين تمزقت جثة عبدالدايم إلى أشلاء على الفور ..

وأغرقت دماء عبدالدايم الجميع ،وأشلاؤه الممزقة تضرب وجوهم وأجسادهم؛ فصرخوا بجزع دون أن يفلتوا أيديهم ,بينما اندفع الدكتور محمد على الفور نحو مكان عبدالدايم الخالى ،ومد ذراعيه ممسكاً بأيدى عم منصور ،والدكتور هشام .. كان يخشى أن تنكسر الدائرة السحرية اللازمة لإنجاح التعويذة .

هنا استيقظ الدكتور مصطفى فى منتصف الدائرة ..

بدا غريباً مختلفاً حين نهض فجأة متجاهلاً ما يجرى قبل أن يفتح فمه، ويقول بصوت غريب:

-لن تفلحوا في هذا !..

فتح الجميع أعينهم ورأوه فى فزع وهو ينقض على الدكتور محمد, كأن هناك مايسيطر علي عقله، واضطر الدكتور محمد لترك يدى منصور والدكتور هشام للدفاع عن نفسه ..

كان الدكتور مصطفى يحاول جاهداً دفع الدكتور محمد خارج الدائرة .. وامتدت ناحيته عشرات الأيدى المخلبية من الفراغ نحوه بانتظار تمزيقه فور خروجه من الدائره ..

شعر الدكتور محمد بالعجز، وقد أدرك أن الطقس الذى يقوم به قد فشل ..لقد أفلت يدى زملائه ؛فكسرت الدائرة السحريه ومازال هناك الجزء الأخير من الطقس الخاص بالقط الأسود الذي لو لم يتمه لفشل الأمر، ولن يستطيع أبداً القيام به مع المحاولات الحثيثة للدكتور مصطفى -الذى سيطر على عقله شيء ما - لإخراجه من الدائرة للتخلص منه .

كانت صرخات كائنات الجحيم على أشدها الآن احتفالاً بفشلهم .. وتملّكت الدكتور مصطفى قوة غريبة, فوجد الدكتور محمد نفسه يُدفع رغماً عنه إلى خارج الدائرة؛فأغمض عينيه متمتاً بالشهادة فى انتظار الموت السريع القادم بعد لحظات.

لكنه فوجئ فى اللحظة التالية بتراخى ذراعى الدكتور مصطفى عن عنقه ، ففتح عينيه على الفور ليجد الدكتور هشام واقفاً، وقد ضرب الدكتور مصطفى بجردل الدماء المعدنى فى رأسه فشج

رأسه وأفقده وعيه ..وصاح الدكتور هشام ،وهو يثب نحو مكانه ثانية :

-أسرع بالله عليك يادكتور محمد قبل أن ينتهى الأمر..هيا انتهى من عملك.

هنا أسرع نحو صندوق خشبي فى وسط الدائرة .. أخرج منه القط الأسود الذى خدره قبل ذلك ..هنا التفتت إليه الفتاة بفزع حقيقى ومقت ،وصرخت صرخة اهتزت لها الأركان...

-إياك أن تفعلها ..سوف أقتلك لو فعلت.

إلا أنه لم يبال .. أخرج سكيناً فضياً، وامتدت يده نحو عنق القط بضيق وتردد ..لم يكن يرغب فى هذا ،ولكنها الطقوس .. هنا فتح القط المخدر عينيه فجأة وأطلق مواء غريباً؛ فوجل الدكتور محمد ..حاول القط أن يهرب من يده حتى أنه مزق بمخالبه كف يده, فسالت منه الدماء, إلا أن الدكتور محمد أمسك به بإصرار أكبر..

ودون تردد هذه المرة اندفعت السكين الفضية نحو عنق القط فذبحه.. عوى القط للمرة الأخيرة، وتدحرج رأسه الصغير على الأرض ، واندفعت نافورة من الدماء من الجسد المنتفض ؛فألقي الدكتور محمد جثمان القط ،ودمائه المنهمرة نحو جثة الفتاة السابحة فى الفراغ..

أصاب تيار الدم المتدفق من جثة القط وجهها ؛فصرخت برعب وألم, وارتج المكان بآلاف الزمجرات الغاضبة الصاخبة ، وإهتزت الجدران كلها حتى كادت أن تميد بهم.

وامام عينيه راحت عشرات العيون تختفى وبدأت الدومات الهوائية فى الإنقشاع ,وبدات الظلمة الرهيبة فى الإنحسار

وصاحت بغضب ومقت للمرة الأخيرة...

-سأعود أيها البائس وستدفع الثمن..سوف أعود إليك قريباً جداً..تذكر هذا وانتظرنى ...

هنا ردد الدكتور محمد تعويذته الأخيرة بأقصى ماعنده من قوة وامل:

Modo malum CADO, somnus apud Tranquilla

وفجأة وكالسحر همد كل شيء ..

سقطت الجثث على أرض المشرحة ..

هبطت جثة الفتاة بهدوء إلى مكانها على منضدتها بالمشرحة..

اختفت الأصوات والعيون والعواصف الصغيرة ..

حبست الأنفاس فى ترقب وخيم السكون على المكان ..بعد قليل فتح الجميع عيونهم بترقب ..

كان المكان يموج بالفوضى..

لاحظ عم منصور أشلاء عبدالدايم الممزقة ودمائة التى تغرق كل شيء حوله ؛فأخذ يصرخ ويبكى ،وهو يحتضنها ويداه تتلوثان بدمائه وأنسجته..

راقبه الجميع بوجوم، ولم يعرف أحد منهم مايقوله ليواسى عم منصور ويخفف ألمه لفقده عبدالدايم ..

لكنهم وبرغم الحزن على عبدالدايم, إلا أن شيئاً من الارتياح اجتاح أعماقهم .. وقد انتهت لعنة تلك الجثة..

وبقى فى أنفسهم سؤال معلّق بلا إجابة..

هل انتهى الأمر حقّاً ..

لكن أحداً منهم لم يعرف الإجابة ..

تمت

فصل لم يكتبه المؤلف

إنهم حمقى..ومنذ متى لم يكن البشر كذلك..

هل ظنوا أن دفنى بالصحراء بعيداً عن العمران كافياً لأن يتخلصوا منى ؟..

ألم أقل إنهم حمقى ..

لو راجعوا كتاب الراهب جيداً لعلموا أنه لاشيء يوقفنا ..وأننا قادرون على العودة حين نشاء ..إنّ ماقاموا به ما هو إلا لهو لاجدوى منه .. أيعتقدون حقاً أنهم قادرون على هزيمة أحد القدماء ودحره ؟..

وبعد أعوام محدودة ,لاتقاس بعمرى الطويل للغاية- بصورة لاتتصورونها أيها الهالكون -كان علىّ أن أعود ..

كان فجرنا فى طريقه للبزوغ ثانية ،ومعه نهايتكم أيها الفانون

إن سيد الكيانات القديمة يدعونا كى نستعد للمعركة الكبرى..

وكان علىّ أن أستيقظ وأستعد..

وكان هناك طلاب الجامعة الأمريكية..

ثلاث فتيات وثلاثة فتيان..

إنهم محبون، أو عشاق ،أو عابثون .. إن هذا ليس مهما..

كانوا يرغبون فى الخلاء ..مكان ما بعيد عن العيون يمارسون فية طقوسهم المجنونة ..ومجونهم..

ودون أن يعلموا, ألهمتهم إلى مكانى فى الصحراء..

لم يعلم أحد منهم أن حسام قد جلب معه سرّاً دماء بشرية اشتراها من بنك الدم .. هو نفسه لم يدر لماذا فعل..

كما لم يعلم الجميع أنّ لينا الشقراء الجميلة، قد جلبت معها فى حقيبة يدها جمجمة بشرية اختلستها من أختها طالبة الطب ..دون ان تدرى لماذا فعلت ،ولا لماذا أخفت عنهم هذا.

ولم يكن هانى مسئولاً عن جلب المخدرات والخمر فقط ..فما لايعلمه الجميع أنه جلب معه مخدراً، وأنه وضع الكثير منه فى الشراب دون أن يعى لماذا فعل ..

وكانت سالى فتاة متحررة ..تعشق رسم الأوشام على جسدها كله ..لكنها لسبب غامض استبدلت الوشم المرسوم على بطنها بوشم آخر غريب ومخيف ..وشم لنجمة سحر سداسية الرءوس ..الغريب أنها للمرة الأولى ترتدى فستاناً بلا أكمام لتغطى بطنها كى لا يرى الوشم أحد منهم ..ولو سألتها لماذا فعلت ؛فستنظر إليك حائرة بصدق .

لماذا جلب عمرو فى السيارة الجيب التى جاءوا بها هذا الفأس والجاروف ..لا أحد يعلم ..

ولماذا اختارت رودى تلك المنطقة البعيدة من الصحراء؛ كى يخيموا بها ،وكيف عرفت بمكانها ..ولماذا لم يعترض أحد منهم ..كان هذا لغزاً...

حفروا الصحراء ،ونبشوا الرمال بنشوة ليعثروا على جسد الفتاة الفاتنة ..

وضعوها بوسط نجمة سداسية ضخمة ،وجاءوا بالأشياء التى جلبوها سراً، وبدءوا فى احتساء الخمر ،ثم بدأت الطقوس المجنونة ..

وانتهت الطقوس بلا أحياء كما تجرى دائما .. واستيقظت !

وعدت إليكم مرةًأخرى أيها الفانون ..

سيكون بيننا الكثير من المرح ..فأنا البداية فقط..

بداية النهاية التى لاتعلمونها..

لكن علىّ فى البداية أن أنهى بعض الأمور العالقة القديمة..

هناك ثأر أرغب فى إنهائه أولاً.. ولاشك أن بعضكم يدرك ما أقصده.

ركبت السيارة الحديثة التى جاء بها هؤلاء الحمقى إلى هنا ..

كانت جيب حمراء بلون الدم الذى أعشقه ..

وارتفعت الموسيقى الصاخبة من المذياع..

كان يغنى سعيدا Happy وكذلك أنا. (pharrell willams) إن

Because iam happy..

Clap along if you feel like a room without a roof..

Because iam happy..

Clap along if you feel like happiness is truth..

Because iam happy..

Clap along if you know what happiness is to you..

Because iam happy..

Clap along if you feel like that is what you wanna do..

Here com bad news talking this and that..

Yeah.give me all you got donot hold back..

***

كنت فتاةً جميلةً فاتنةً ورقيقةً ترقص باستمتاع على نغمات صاخبة بداخل سيارة جيب حمراء تنهب الطريق نهباً, حتى تخالها تطير بين السيارات..

أسكرت فتنتى كل من يرانى..

فهل رأيتنى ؟..

إن كنت قد فعلت فانتظرنى ..

شكر خاص

أود ان أوجه الشكر لكل من وقف بجوارى وساعدنى ليخرج هذا العمل للنور بالأفكار والإقتراحات والتعقيب على ما كتبته

شكر خاص للدكتور: ماجد عبدالحميد ,صديقى الذى راجع العمل معى مرارا

وشكر خاص لأخى :محمد السيد على تشجيعه لى بالمضى قدما فى الكتابه

شكر آخر لصديقتى العزيزه: صافى ربيع ..كانت أول من قرأت الروايه

وشكر خاص للصديقة .. زيزى سلامه .. فطالما أبدت ملاحظات هامة على مسار القصه..

شكر كبير للصغيرة الحلوة .. أنغام (عصفورة البحر أنغام جمال) ..لتشجيعها الدائم

وفى النهاية ..

شكر وإهداء أخير, لمن رحلت بجسدها عن عالمى, ومازلت أشعر بروحها فى كل حين حولى تشجعنى أن أؤمن بموهبتى وأن أكتب وأكتب ..

إلى لمياء أحمد النجار .. تمنيت لو تشاركينى فرحتى هذه .. لكنها إراداة الله ..

هذا عملى الأول يا عزيزتى, فهل تشعر روحك به وتعيه .. ليتها تفعل.



Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372   011-27772007